مشاهدات خاصة 1



علي عبد الله إبراهيم الأنصاري

2010



علي بن عبد الله الأنصاري

على ضفاف البوسفور

مشاهدات خاصة

تأليف

علي عبد الله إبراهيم الأنصاري

2010

الطبعة الأولى ١٤٣١ للهجرة- ٢٠١٠ للميلاد

الرقم الدولي (ردمك): ISBN: 97899921-91-66-8

الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٠١١/٤٨٩

بطاقة الكتاب:

٩١٥,٦١ علي عبد الله إبراهيم الأنصاري

على ضفاف البوسفور: مشاهدات خاصة، الدوحة: الرواق للإعلام والعلاقات العامة، ٢٠١١.

٣٩٨ ص، ٢٦سم

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٠١١/٤٨٩

الترقيم الدولي للكتاب: ٨- ٦٦- ٩١- ٩٧٨٩٩٩٢١

١. تركيا- وصف ورحلات

تمت أعمال الصف والتنسيق والتصميم لدى:

للإعلام والعلاقات العامة
AL-RWAQ
Media & Public Relations

هاتف: ٣٦ ١٢ ٤٤٤٤ ٩٧٤+

فاكس: ٣٧ ١٢ ٤٤٤٤ ٩٧٤+

ص.ب: ٣٩١٩٤ الدوحة ـ قطر

Al-rwaq@al-rwaq.com

عنوان المؤلف:

E-mail: batteel@gmail.com

Website: www.ansari.net.qa

Twitter: @_alansari_

الإهداء

إلى شقيقتَيَّ: مريم.. وأسماء..

اللتين تنتظران بفارغ الصبر



شكر وعرفان

أولاً يجب أنْ أشكر شركاء رحلاتي إلى إسطنبول كلهم.. وعلى رأسهم القارئ الأول للكتاب.. زوجتي الحبيبة نورة عبد الله المفتاح، ثم ابنيَّ.. شريفة.. وعبد الله.

ويجب أنْ أشكر أيضًا قارئي الأول.. أخي وابن أخي/ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الذي قرأ الكتاب وأبدى ملاحظات عليه.. كان لها أثرها في رفع قيمة الكتاب.

كما أشكر الأستاذ الفاضل/ السيد حسن الوكيل، القلم اللغوي، والإملائي الرشيق الذي أُعمله في كل ما أكتب، فيعطيني الرونق المطلوب.. والصواب.. والأصوب.

وأشكر كذلك إخوتيَ الأحباء، وأصدقائي الأعزاء، عبد الله بن محمد النعيمي، وخالد بن يوسف الماس، وماجد بن محمد الأنصاري، الذين قرءوا أجزاءً من الكتاب، وصححوا فيه، وأبدوا ملاحظات حول الأسلوب أو المضمون.

وأجد لسان حالي يشكر أخًا لي على مساعدته في التصاميم، وخدماته وإشاراته في الطباعة قائلاً : أخي عصام فرج كامل كَريك أزهار حدائقك، رويت حديقة هذا الكتاب، فشكرًا لك.

كما وأشكر الأخ أيمن حمادة السيِّد، الذي أشرف على طباعة الكتاب، وسعى في إخراجه، وأشكر كل من ساعد في أنْ يكون هذاالكتاب في منظره الذي هو عليه.

ولو أردت أنْ أحصر من أشكر فالمقام يطول.. فأصحاب الفضل في هذا الكتاب كثر.. ومن يجب أنْ أشكر على الدوام أكثر.. هم يعرفون أنفسهم.. ويعرفون امتناني الدائم لهم.. وحبي الذي لا ينتهي.. وأعرف عطاءهم لي الذي لا يزال يتواصل.

قبل أنْ تقرأ..

لا أزال كلما أعود منها أشتاق إليها.. ولكني كلما كنت فيها أفتقد الشوق لها.. إنها إسطنبول.. تلك المدينة الحُلم.. أكتب هذه الكلمات اليوم بعد قرابة العام ونيف العام من إتمام تأليف هذا الكتاب.. ولا تزال حيرتي تنازعني في طباعته.. أو إخراجه للنور.. والشكلِ الذي يجب أنْ يكون عليه.. ولكن لا بد في كل الأحوال من هذه المقدمة التي أضمنها بعض ما يخص الكتاب ورموزه.

لا بد أولاً.. أنْ تجد في هذا الكتاب أخطاءً، فما هو إلاَّ مشاهداتي الخاصة.. وكم كنت أتردد وأنا أراجعه على بعض ذوي الاختصاص في الهندسة.. لضبط المقاييس، أو أراجع في المعلومة مصادري.. ومصادر أخرى.. ولكن يظل هذا الكتاب "مشاهدات خاصة" في نهاية الأمر.

قمت بتقسيم الكتاب إلى أيام.. استبدلت بها الفصول، وجعلت الهوامش في آخر الفصل، وذلك لكون بعض الهوامش طويلة تستهلك أكثر من نصف الصفحة.

القياسات الواردة في الكتاب للمساحات والأطوال تكون تقديرية في بعض الأحيان.. فالمسافات إمَّا أكون قدَّرتها.. أو نقلتها من مكان ما.. كالمرشدين.. أو الكتب السياحية.. أو قياسات عن طريق برامج الكمبيوتر مثل (جوجل أيرث)، فإذا أضفت كلمة تقريبا على القياس فهذا يعني أنَّه تقديري، وإن لم أضفها فهذا يعني أنَّه نقل من مصدر دقيق.

بالنسبة للتواريخ الواردة في الكتاب، فإنَّني أذكر في الأغلب أحداثًا وقعت حينما كان التاريخ الهجري هو العمدة.. إلاَّ أنَّ للميلادي اليوم، وفي استيعاب المعاصرين وزنه، لذا فإنَّني سأذكرالتواريخ بالهجري.. ثمَّ أذكر معادلها بالميلادي.. إمَّا في الهامش أو بعدها مباشرة، وقد اعتمدت في أستخراج الموافقات التاريخية على كتاب "التوفيقات الإلهاميَّة في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية"، للواء محمد مختار باشا مأمور جند الخاصة للخديوي عباس حلمي الأول، والمطبوع عام (١٣١١هـ)، ولا أجزم بدقة الموافقات التي أنقلها.. فقد تختلف سنة قبل التاريخ أو سنة بعده لا أكثر. وبالنسبة للتواريخ في الفترة ما قبل الهجرة الشريفة.. أو قبل فتح إسطنبول والتي تتعلَّق بحكام غير مسلمين فذكرتها بالميلادي في الأغلب.

أمَّا فيما يخص تواريخ الأشخاص، فقد ذكرت بعد أسمائهم التواريخ الهجرية وأوردت في الحاشية التواريخ الميلادية، فأقوم بذكر: (تاريخ الميلاد، فتولي العرش، فالوفاة). أو (الميلاد، تولي العرش،

العزل أو التنازل، الوفاة) فمثلا ستجد: السلطان أحمد الأول (٩٩٨- ١٠٩٢- ١١٠٦ هـ)، وكان هذا المسلك في الكتاب كله باستثناء السلطان محمد الفاتح، وذلك بسبب وروده لقبًا في المقدمة (عائد قبل اللقاء) فأوردت جميع معلوماته في الهوامش.

أمَّا فيما يخص المعلومات التاريخية.. فهي موثَّقة عندي.. ما لم أضف قبلها كلمة "يقال" أو "يُروى" وما في تصريفهما، ففي هذه الحال أكون لا أثق في مصدرها.. أو غير متأكِّد منه فلا أشكك فيها.. ولا أصادق عليها، أوْ أنَّ المعلومة لا يتصوَّر العقل حدوثها.

فيما يخص المعلومات التي أوردها في الهوامش.. أو ضمن السياق للتعريف بالشخصيات، فهي معلومات اجتهدت في جمعها.. إمّا من كتب.. أو من مواقع عربية وأجنبية وتركية وفارسية، وتعريف هذه الشخصيات سيكون في الهامش عند أوَّل ذكر لهم، أو عند ذكر أعمال مهمة لهم، فقد تمر شخصية غير مهمة لكونها ذكرت ذكرًا فلا تُعرَّف أبدًا.. حتى ولو كانت سلطانًا، ثم تذكر (هي أو سواها) مقابل عمل يكون من المهم أنْ تعرَّف على أساسه، وأنوِّه أنَّ هناك بعض الشخصيات التي لم أجد لها سيرة رغم البحث.

وبخصوص تسميات الدول، فقد اعتمدت الطريقة العربية في كتابة الأسماء الأجنبية للقارات والدول، مثل (أوروبة، تركية، ألمانية،

فرنسة)، وهي الطريقة التي كانت تكتب فيها هذه الأسماء سابقًا، وقد اعتمدت هذه الطريقة لكونها الأصوب بعد مراجعة لبعض الدراسات ولا أعلم سبب التغيير، إذ أنَّها لا تكتب في لغتنا كما تنطق في أمهات لغاتها، لا في الطريقة القديمة ولا الحديثة، إلاَّ أنَّ التاء المربوطة أقرب للتأنيث وهو الأغلب في الدول والمناطق.

أمَّا فيما يخص التسميات للشوارع والمدن والمناطق، وبعض الكلمات التركيَّة أو الأجنبيَّة فقد حاولت أنْ أسجِّل اللفظة التركية لها إنْ أمكن، وأرجعت في ما استطعت إلى أصل كتابة الكلمة باللغة العثمانية إنْ وجد.. أو استبدلت الحروف بما يسهل نطقه.. ولا يشتبه على القارئ، فمثلاً: اسم القصر "طُوْلْمَا بَاغْجَة"، فيه حرف الغين المهمس، والذي يكتب في العثمانية القديمة "ـكْ"، ولكن لكي لا يلتبس الاسم، فقد قمت بكتابتها على الهيئة التي كَتبها الأستاذ/ أكمل الدين أوغلو، في ترجمته لمذكرات السيدة/ عائشة عثمان أوغلي.. أو عائشة آل عثمان، ابنة السلطان عبد الحميد الثاني، ومثلها في القياس كلمة (الينيشارية) فقد كتبتها كما تنطق في التركية والعثمانية، لأنها تكتب في مراجعنا خطأً (الإنكشارية) والكاف هذه هي الكاف المهموسة. وفي ما يخص حرف (**Ç**) بالتركية والذي يوازي (**H**) أو (**Ch**) في الإنجليزية، والذي يكتب في العثمانية كحرف الجيم بثلاث نقاط، فقد استبدلته بحرفي "تْشَ"، مشكَّلين بهذه الطريقة، وفيما يخص النطق، فإنَّني لا أجزم

بصحة ما كتبته من ناحية النطق، فمثلا: كلمة غرفة وهي "أوضه" تكتب بالطَّاء بدل الضاد.. ولكن نطقها أقرب للضاد منها للطاء.

فيما يخص الأماكن فقد أكون زرت بعضها لمرتين في الرحلة الأولى.. أو زرتها في رحلات أخرى.. ولكن فضَّلت دمج المعلومات في مكان واحد، لتسهل مطالعتها، أمَّا عن جدول سير الرحلة فقد اعتمدت جدول الرحلة الأولى التي كانت مع أسرتي الحبيبة، وأضفت بقية المواقع من الرحلات الأخرى في أيام أخرى مستقلة.

هذا بعض ما دوَّنته من ضوابط خلال كتابتي للكتاب.. وقد أكون نسيت البعض، ولكنني التزمت بهذا على الأقل.

يقول الشيخ/ فريد الأنصاري رحمه الله تعالى في كتابه عودة الفرسان: "كل طائرات العالم تسافر في المكان إلاَّ طائرات إسطنبول، فهي وحدها تسافر في الزمان"(١)، فعلاً.. السفر إلى إسطنبول سفر في الزمان.. لحظة تتجدد كلَّ حين.. أزعم أنَّ هناك بابًا للزمن خلف تلكم الجدران.. ستحسُّه عند أوَّل لحظة تستنشق فيها عبير إسطنبول الجميل.

إسطنبول- الدوحة

(٢٠٠٩/٧/٧- ٢٠١٠/١٠/١٠م)

عن الأتراك أحدِّثكم

مَنْ قال إنَّ الشعوب لا تتغيَّر؟! من قال إنَّ المدن لا تستحيل جمالاً بعد قبح.. أو قوَّة بعد وَهَنٍ.. أو نشاطًا بعد خمولٍ، أنا هنا أكتب عن شعبٍ تحدَّى ضعفه الكَابِدَ عليه قرابة القرن، بعد أنْ كان في سُدَّة المجد.. ليعود فينتصر.. ويعود يخطو نحو سُدَّة المجد مرة أخرى.

أتحدَّث عن مدينةٍ تربَّعت على عرش الدنيا قرونًا، وكانت عاصمةً لقوَّتين من أقوى دول التاريخ.. إن لم تكونا أقواهما على الإطلاق: الرومانِ.. والمسلمين، ثمَّ خذلها العالم.. فأصبحت وُعُوْرَةُ مستقبلها كوعورةِ دروبها.. وبدا الإحباط دُخانًا أحمرَ يجول في طرقاتها.. حتَّى اعتاده الناس.. وبدأ يثقل ويثقل.. حتَّى صبغ الطرقات.. وتلبَّد على المباني.. ودَنَّسَ الشوارع.. فأحس الناس بـ"اللاأمل"، فلما حانت منهم حائنه.. قفزوا ينفخون التغيير ريحًا طردت الغبار الأحمر.. فصحا الجو.. فإذا بأهلها ينصعون بياضًا.. وشوارعها تفيض نظافةً.. ومبانيها تشعُّ كما كانت قديمًا.. لقد غيَّرت الإرادةُ الحاجةَ عند الناس.. فعادت إسطنبول مدينة التلال السبع.. والأبراج السبعة.. المنشطرة على قارتين[٢].. وعاد

أناسها أولئك القدماء.. الذين يستشعرون - ككلِّ الآريِّين[٣]- عزَّة العرق التركي في أرواحهم، ويبنون عليها العزَّة الإسلامية في معتقداتهم.. فأهملوا تقريبًا مشروع الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي الذي كانوا يعملون عليه لأكثر من (٣٠) سنة فيصدَّهم الأوروبيون بشرط جديد كلَّما استجابوا لشرط، حتَّى أصبح الاتحاد الأوروبي في فترة من الفترات هو من يخفف حدَّة شروطه رغبة في انضمام الترك له، بل وأصبحوا يعلنونها صراحة "لم نعد نهتم بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي"، كما جاء على لسان أكثر من مسؤول في أكثر من مناسبة.

سألت أخي عبد الرحمن - وهو كثير الأسفار.. دقيق النظر- سألته عن إسطنبول وكان قد زارها في أواخر تسعينيات القرن الماضي فقال: "إسطنبول.. القاهرة.. ولا فرق"، وأسهَبَ في شرح الفقر المؤلم في الناس.. والتلوُّث الخانق فيها.. والغلاء القاتل.. والابتزاز والنصب والرشوة.. وآلمني ما قال حقًا.. فلمَّا عُدْتُ من زيارتي هذه إلى إسطنبول، سألني: كيف وجدتُ إسطنبول؟ فَقلتُ له: "إسطنبول.. ميونخ.. ولا فرق"، وأسهبت في التحدُّث عن مستوى المعيشة الجديد للناس، ونظافة الجو وعذوبته.. والاهتمام بالبناء الداخلي للناس والخارجي للمدينة، ومعقوليَّة الأسعار.. ومرحبانية.. وأمانة.. وخدميَّة الناس للكلِّ، وزارها بعد زيارتي ولاحظ الفرق فعلاً، لقد تغيَّرت المدينة والناس في العشر سنوات الماضية تغيُّرًا باهرًا.

أولئك هم الآريون.. تحترق الدنيا بهم.. فتملأ جوهم رمادًا.. ويَعِيْلُ الكل عليهم.. فيسقطون مثخنين بالجراح.. فينزل رماد الحرائق ليغطي الساقط تحته.. فيظن الناس أنَّ من تحت الرماد ميت لا يرجى.. وأنَّ الرماد كفيل بخنق البقيَّة الباقية فيه.. فإذا حانت الحائنة.. ومن الفُجاءة.. انتصب واقفًا ينفض الرماد.. وأشار بيده إلى ظاهر الأرض فأحالها خضراء.. ونفخ الرماد.. فطار ليُخرج منه حضارته.. في أقصر مدَّة.. ليعود فيكمل مسيره من حيث سقط.. لا من حيث يقف الآن.. إنْ لم تصدِّق فانظر إلى الألمان.

الترك.. أو التركمان.. تلك القبائل الآرية المستقرة في قلب آسية.. من غرب الصين إلى شرق الفرات.. لَّما دخل إليهم الإسلام في عهد الفتوحات الأموية استجابوا له، فقدَّموا للأمة بعدها بسنين مجموعة من أكابر العلماء، وكانوا في عهود العباسيين من الجند والفاتحين، حتَّى أصبحوا خؤولة الخلفاء.. ثمَّ الحكام باسم الخلفاء لثلاث مرات.. ثمَّ أصبحوا الخلفاء رسميًا.

لم يكن الترك (وهم يؤسسون دولهم على الخريطة الإسلامية) يهتمون ببناء المباني كاهتمامهم ببناء الإنسان.. روحيًا.. وجسديًا.. وفكريًا، لذا ففي الوقت الذي لن تذكر فيه حاضرة للتركمان يشار إليها بالبنان، ستجد نفسك تتحدَّث عن أكابر العلماء.. كابن النفيس، وابن سيناءَ، والخوارزمي، وأكابر المرشدين الروحيين للطرق الصوفية.. كجلال الدين الرومي، والنقشبندي، وآق شمس الدين، بل وأكابر

المحدثين لدينا.. كالبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأكابر القادة.. كنور الدين زنكي، وألب أرسلان، ومحمد بن الحسن الطوسي... ولكنهم لم يشيِّدوا قصورًا فارهة.. لذا يتهمون بالأمية والجهل!! ولو كان المتهِم منصفًا لتحدث عن المساجد والمدارس والقناطر والأوقاف والخدمات العامة التي أسسوها في شمال غرب آسية وشرق الأناضول فترةَ حكمهم.

إنَّ الأتراك في العموم - وأهل إسطنبول على وجه خاص- يتمتعون بعاطفة عارمة جيَّاشة.. فلن تتكبَّد الكثير من الجهد لترى تعاطفهم مع الفلسطينيين، وكرههم لليهود، وإيمانهم بأنَّ السيد/ رجب الطيب أردوغان.. رئيس الوزراء الحالي، هو الرمز التركي المطلق بعد موقف دافوس، وتستطيع أنْ تلمس عاطفتهم في تصوفهم.. الذي يصل إلى حد إتيان الخزعبلات.. والوقوع في كثير من المحظورات.. كالتي تحدث في زيارات "بكداش ولي" من سجود للضريح، واستدبار للقبلة واستقبال له، وكل ذلك عن جهل، أو مجرد حبٍّ لا يحمل سوء نية.

والترك بطبيعتهم شعب يؤمن بالرموز.. فهم يقدِّسون أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه، الراقد بين ظهرانيهم، ويعتبرون بركة بقاء المدينة ببركة وجوده، وينتمون بالحب إلى محمد الفاتح.. رغم أنَّ النظام العلماني للجمهورية كان وإلى وقت قريب لا يعترف بالأسرة العثمانية.

والترك يُعْلُون شأن الرئيس/ مصطفى كمال أتاتورك، الذي غيَّر طبغرافية الفكر التركي لينشئ الدولة الحديثة.. ثمَّ الجمهورية.

والشعب التركي في العموم بسيط.. وتلقائي.. لا يظن في الناس شرًا.. يرحِّب بك أيًا كنت.. ويحاول أنْ يخدمك بأي طريقة.. حتَّى يظن البعض بهم السوء (وللأسف).. وكونهم يحاولون استغلالك.. فيسأل نفسه: "ماذا يريدون؟" وما أجمله من شعب.. وأقربه إلى الفطرة البشرية الأولى وأُخُوَّتِهَا التي قتلتها المدنية أيًّا كان حاملها.

لا ريب ستجد في الأتراك الفضول الشديد.. والتدخل في خصوصياتك.. كأنْ يسألك عن سبب لبسك للون الأزرق مثلا، فتظن أنَّ هناك سببًا يمنع ذلك.. فلا تجد إلاَّ الفضول، ويمزح معك بتلقائية وكأنَّه يعرفك منذ سنين وهو لم يرك إلاَّ منذ دقائق.. وقد لا يراك ثانية، إنَّني أظن أنَّ ذلك الفضول لديهم مصدره الطيبة والتلقائية.. فالشعور البدائي لديهم للأغراب الحب والتقبُّل.. لا العدوانية.

وهم شعب خدوم.. يخدمك لا لشيء.. كأنْ يدلَّك على مقدم خدمة آخر غيره.. يقدمها بسعر أرخص، أو أنْ يترجم لك من التركية إلى الإنجليزية أو العربية دون أنْ تطلب أنت ذلك.. وتراه يقدِّم الخدمة بسعادة.. حتى يظن الظانُّ أنَّهم يبحثون عن مقابل ذلك.. وأشهد أنَّ قصدهم بعيد عن هذا.. وإذا وُجد فلا يخلو الأمر من قلَّة.

وأشهد أيضًا أنَّه وفي رحلاتي إلى تركية.. لم أواجه إلاَّ عملية نصب واحدة من سائق سيارة أجرة.. وحين تقدَّمت بالشكوى عليه لقي جزاءه.. ولكنَّ الحذر واجب.. فأنا لا أتكلَّم عن مدن الملائكة.. أو عن المدن الفاضلة.. فكل صواب لا بد فيه من الخطأ.. فهذه طبيعة البشر.. إلاَّ أنَّني وللأمانة.. بقدر ما حُذِّرْتُ من أعمال النشل.. والارتشاء.. والنصب في الأماكن العامة لم أواجه إلاَّ حادثة سائق الأجرة.. والذي لقي جزاءً أرضاني.

هذه هي إسطنبول.. قد يقول البعض إنَّني أُبالغ.. وقد أكون أبالغ.. فقد أحببت المدينة بحق.. تذوَّقت جمال أوروبة.. وسحر طبيعتها الخلاب بنكهة إسلامية.. لم أخف يومًا على أسرتي من أيِّ تعدٍّ بسبب الحجاب.. بل ووجدت اهتمامًا بأطفالي ممن لا يعرفني وكأنَّهم أطفاله هو.. وممن يعرفني وصل إلى حدِّ إنقاذ حياة ابنتي شريفة من حادث.. وكان المنقذ حرم السيد/ علي قيصاري، صاحب مكتبة في شارع "ديفان أوغلو" بمنطقة علمدار القريبة من سلطان أحمد، والتي كانت علاقة التعرف بهم لم تتجاوز الساعات يومها.. وهي ممتدَّة إلى الآن والحمد لله.

إنَّ الحميمية التي يحس بها من يعرف الترك عن قرب تجعل منهم أناسه وأهله.. تجعله يعود إليهم.. وبِغَضِّ النظر عن (كيف كانوا) فإنَّ حزب العدالة والتنمية.. في الفترة القليلة الماضية التي وصل فيها إلى السلطة جعل الناس تعلم (كيف أصبحوا) ومن هم الترك.

---

١) فريد الأنصاري. (ط١ ، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م). عودة الفرسان: سيرة محمد فتح الله كولن.. رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب. القاهرة، ج مصر العربية: دار النيل.. ص ٦٢.

٢) تُعد إسطنبول (المدينة الوحيدة) في العالم التي تقع على قارتين، أمَّا بقية التقاء القارات فليس فيها مدينة مقسمومة على قارتين، فمثلا: بور سعيد والسويس تقعان على الضفة الأفريقية لقناة السويس.

٣) الآريون.. جمع آري، وهو العرق البشري الذي ينتمي إليه الأتراك.. والجرمن.. والكرد.. والفُرس، والبنكال "الهنود"، ومنه تُسَمَّى إيران، أصل هذا العرق من أواسط آسيا، ونزح إلى مناطقه الحالية عن طريق الهجرات.

عَائِدٌ.. قَبْلَ اللِّقَاءِ!!

غريب تصريف القدر للمواعيد!! ما تظنُّ أنَّه يجب أنْ يكون قديمًا، تراه يقع في موعده اليوم، وما تظنُّ أنَّه لن يقع ولو بعد دهور تراه يقع دون سابق إنذار!! لا يعلم الإنسان ما يُخبئ له قدره، لا يعلم ما يجري عليه في يومه أو غده، ومتى ذلك، لا يعلم من هو.. ومن سيكون.. حتى يرى نفسه في قلب الحدث الذي يصنعها.. أو يصنعه هو.

مع شديد تعلقي بالحضارة والتاريخ، وشديد إعجابي وإكباري للعراقة العثمانية، إلاَّ أنَّ الكثيرين يُهْدُوْنَنِي نظرة الاستغراب إذا جاوبتهم عن سؤالهم: "كم مرة زرتَ إسطنبول؟"، بل إنَّ السائق الذي أقلَّني من المطار إلى الفندق سألني نفس السؤال وأنا أشرح لزوجتي عن الأماكن التاريخية التي نمرُّ عليها، وأجبته.. فاستغرب.. وبعد قليل أعاد نفس السؤال ليتأكد.. وأبدى نفس الاستغراب.

يستغرب الجميع أنَّني اليوم (١٥/من رجب / ١٤٣٠هـ)، (٢٠٠٩/٧/٧م) كنت على الموعد الأول مع حاضرة الخلافة الإسلامية الأخيرة إسطنبول، وكم كنت مشوْقًا لها.. يا لله! وكأنَّني زرتها قبلُ.. وكأنَّني أعرفها.. شوارعها الحجرية.. أسوارها البيزنطية[٤].. مساجدها العثمانية.. أناسها.. أسماؤها.. وبوسفورها الهادئ.. أصافح في كلِّ منعطف منها سلطانًا عظيمًا، أو باشا مقتدرًا.. أو وليًا فاضلاً.. أو مجاهدًا أو شهيدًا، أرى إمبراطورها الأخير قسطنطين الحادي عشر[٥] يقف على بقايا سورها العظيم، ويجمع شتات المخلصين من جنوده، ويخلع رداءه الأرجواني، ويهجم هجمته الأخيرة، وأرى أهل القسطنطينية هناك يشاهدون بأعينهم المدفع السلطاني[٦] يدك جانب السور.. أرى الجنود على الأبراج السَّبعة[٧] يراقبون عاجزين.. إلاَّ أنهم يدفعون ببقايا قوتهم المكتسح الجديد.. أرى حراس برج سلسلة القرن الذهبي[٨] "غَلَطَة" ينخلعون رعبًا وهم يرون سفن المسلمين مع الصباح داخل القرن ولا يعرفون كيف دخلَتْ، وأرى موكب الفاتح[٩] العظيم.. أعظم فاتح في التاريخ وهو يدخل القسطنطينية عند الظُّهر.. ويقف ذلك المنتصر في ذُلِّ العبيد تشكُّرًا لملك الملوك، ويسجد سجدة الشكر للواهب.. هنا في آيا صوفيا[١٠] أرى كلَّ ذلك ولا أراه!! تُراني كنت هنا يومها؟ لا يهم.. المُهمُّ أَنَّني الآنَ هنا.

أسعد الله أوقات آخر حاضرة للخلافة.. وأخيرًا لامسَت عيناي عينيكِ، لا أزال أتلمَّس طريقي كضرير، أراك يا مدينة المدائن على الأرض.. أكاد أمس عظمتك.. أراك وأرى ناسَكِ العائدين إليك في كل صباح، وها أنا بَعْدَ بُعْدِ الشُّقة أعود.. أعود لأدخلكِ كالفاتح رحمه الله، لو كان له يومها نشوتي لكفاه سعادةً ذلك، أدخلك يا واصلة القارتين.. أكاد أسجد لله شكرًا لولا أنَّني لا أستطعم النصر.. لكن رحيق التاسع والعشرين من مايو[١١] لا يزال يفعم نفسي نشوة رغم بعد الدهر.

أسعد الله أوقاتك يا قرة عين الناظرين.. وها قد جمع الله الشتيتين.. فما أحلاك.. وما أجملك.. وما أشوقني إليك.. ها أنا أجيء.. لا.. ها أنا أعود إليك.. فاتحا.... فاتحًا ذراعَيَّ.. فاستقبلي يا حُرْمَةَ الباب العالي من عاد.. ها أنا أعود لأجدك كما عهدتك تمتلئين حيوية وعظمة يا آخر عواصم الدنيا.

إسطنبول

٢٠٠٩/٧/٧م

٤) لفظة بيزنطة مستحدثة في التاريخ، ولم تكن قبلُ، واستحدثت للتفريق بين الإمبراطوريتين الروم الشرقيين (البيزنطيين) والروم الغربيين أهل روما، وإنما كان اسم الإمبراطورية هو الإمبراطورية الرومية الشرقية حتى سقوطها على يد العثمانيين.

٥) هو قسطنطين بن مانويل الثاني (١٤٠٥- ١٤٥٣م)، ولد بمدينة ميتسرا باليونان، وهو الابن الثامن لوالده، كان يحكم إمارة الميرة، وضم أثينا إلى حكم والده، وفي ١٤٤٨م توفي أخوه الأكبر يوحنا الثامن باليولوج، فتولى هو الحكم من بعده، حتى سقطت مدينته في يد السلطان محمد الفاتح، وكان قد استنجد بإخوته قبل ذلك فأعرضوا عنه إلا أنَّ إمارة جنوه والبندقية أرسلت له المساعدات، ولكن دون فائدة، وبعد سقوط مدينته وفرار البنادقة والجنويين، جمع بقية جنوده، وخلع رداء الإمبراطورية كناية عن استعداده للشهادة، وهجم معهم هجمته الأخيرة، وبعد مقتله بحث الناس عن جثته بين القتلى ولم يجدوها، فادَّعوا أنَّ الربَّ أرسل ملكًا رفعه إلى السماء إلى أنْ يحين الوقت فينزل ويخلِّص مدينته من يد العثمانيين.

٦) المدفع السلطاني: يعد السلاح الأكبر والأقوى في أيام صنعه، طوله ٦ أمتار، قطر فوهته متر، عرض البرونز حول الفوهة ٣٠ سم من كل اتجاه، أي أنَّ قطر وجهه ١,٦٠مترا، يقذف كرة من الحجر وزنها ١٢ رطلاً إلى مسافة ١,٦ كيلو مترا، يجره ٨ ثيران، صممه الفاتح بنفسه، بناه المهندس المجري/ أوربان.

٧) الأبراج السبعة: كان لأسوار القسطنطينية سبعة أبراج رئيسية للمراقبة والحماية، ويبدو أنَّ ارتباط الرقم (٧) بالمدينة المقدَّسة في الديانة المسيحية.. وفي الديانات الوثنية الرومانية وثيق، فالقسطنطينية كروما، مدينة التلال السبع كما سيأتي

ذكر ذلك، وهي أيضًا مدينة الأبراج السبعة.. كما أصرَّ قسطنطين على بنائها بهذا العدد فقط.. ولم يزدها من تلاه أبدًا، حتى سقطت في يد الفاتح.

٨) سلسلة القرن الذهبي/ حصانة القسطنطينية: كان من حَصانة المدينة أنْ كانت مسوَّرة بسور يرتفع قرابة (١٠) أمتار، وبعرض (٣) أمتار، ولم يكن لها إلاَّ ميناء واحد داخل خليج القرن الذهبي، وكان طرفي الخليج موصولين بسلسلة حديدية ضخمة، تُنزَل من برج على طرف المدينة الناتئ في منطقة (غَلَطَة) يسمَّى "ميجالوس بيرجوس" وتعني البرج العظيم، لتدخل السفن التي يريدها البيزنطيون ثم ترفَع، فتمنع دخول من لا يريدون إلى ميناء المدينة، وكان من دهاء محمد الفاتح أنْ عبَر بالسفن من على اليابس، فرفعها على جذوع شجر مدهونة بالزيت إلى منطقة تقسيم الحاليَّة ثم أنزلها في داخل الخليج ليدخل المدينة صباحًا عن طريق البحر ويفتحها مع الظهر.

٩) هو السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني الذئب الرمادي بن محمد الأول بن بايزيد الأول يلدرم الصاعقة بن مراد الأول بن أورخان الأول بن السلطان عثمان الأول (٨٣٣- ٨٥٥- ٨٨٣ هـ) الموافق (١٤٣٢- ١٤٥١- ١٤٨١م)، هو سادس السلاطين العثمانيين، وفاتح القسطنطينية حُلْم كلِّ من سبقه من الأمراء والخلفاء منذ عهد معاوية بن أبي سفيان حتى يومه، وواضع الأساس للدستور العثماني، وباني الدولة الحديثة، ومهندس المدفع السلطاني.. أكبر سلاح في عصره، كان عالمًا متقشِّفًا ورعًا، له معرفة بالحساب.. والهندسة.. ويتقن أكثر من سبع لغات.. عدا فقهه وعلمه بالتاريخ.. فكان بحقٍّ جديرًا بأن يكون المقصود بحديث الرسول ﷺ: "لتفتحن القسطنطينية.. فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"، توفي رحمه الله مسمومًا على أسوار فيينا، وحُمل ودُفن بقرب مسجده في إسطنبول.

١٠) أيا صوفيا: ومعناها الحكمة المقدَّسة، وهي تقع على الطريق المقدس للحج المسيحي من أوروبة إلى بيت المقدس، وتوجد هناك أكثر من كنيسة تحمل نفس الاسم (أيا صوفيا) منها واحدة في مدينة طرابزون، وهي الآن متحف كذلك، وسيأتي الحديث عن المكانين في الأوراق اللاحقة.

١١) الثلاثاء (٢٩/من مايو/١٤٥٣م)، تاريخ فتح القسطنطينية (٢٠/ من جمادى الأولى/ ٨٥٧هـ).

إسطنبول.. رحلة اليوم الواحد

ما أجمل أنْ تصل إلى إسطنبول.. ولكن ما أبشع أنْ يكون ذلك لليلة واحدة، برغم أنَّني سأعود لاحقًا إليها إلاَّ أنَّ شعور مغادرتها ينتابني فأقرر أنْ أتملأ من جمالها، وأتعبَّأ من هوائها قدر المستطاع.. لذا فقد قررت أنْ أجلس بقية اليوم في الحديقة المطلَّة على البوسفور بالفندق، إلاَّ أنَّني ولحسن حظِّي أطعت زوجتي وتحرَّكت معها وأبنائي في رحلة ليوم واحد استحقَّت أنْ تسجَّل ضمن دفتر هذه الرحلة.

كنَّا قد وصلنا إلى فندق "فورسيزون البوسفور" قبيل الثالثة عصرًا.. من المهم أنْ أقول إنَّ النهار هنا طويل.. فالشمس تغيب في التاسعة والنصف مساءً أو بعد ذلك بقليل، حينما جرت السيارة بنا بقرب "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي".. وتخطَّته إلى شارع تْشِيران سراي.. وانعطفت يمينًا نازلة منحدر الفندق تبدَّى لي ذلك القصر الذي تم تحويله إلى فندق، القصر نفسه هو ما تحول إلى بهو الاستقبال.. وبعض الغرف الرئيسة، ثمَّ أضيف إليه مبنيان جانبيان، بينما يطل القصر على البحر.. كان الاستقبال ممتازًا..

الخدمة كذلك.. والغرف.. غرفتنا كانت تطل على الجامعة الملاصقة للقصر.. والتي كانت بيتًا لأحد الأمراء سابقًا.

بعد أنْ أرحلنا رحالنا.. واطمأنَّت أنفسنا بملامسة الأرض بعد رحلة السفر المعلَّقة تلك.. قررنا أنْ نخرج لاستكشاف المنطقة المحيطة بالفندق، كانت الشمس قد غابت.. تحركنا في الشارع المتاخم للفندق نبحث عن صيدلية.. ومطعم للعشاء، إلاَّ أنَّ مسير الليل في هذا الشارع أخَّاذ.. ودون سابق موعد.. وبالصدفة المحضة.. كان لقائي به.

في حضرة معمار سنان "للمرة الأولى"[١٢]

لم أكن أعلم وأنا أُسَاقُ في شوارع "باشكطاش" بإسطنبول أنَّني على موعد قُبيل العِشَاءِ مع المعمار العظيم سنان، كنت أمشي باتجاه شارع طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي، ومررت من أسفل الجسر المؤدي إلى "يلدز".. وواجهت المسجد المقام على ناصية الطريق.. كان المسجد عاديًا (على المقاييس العثمانية..) مما يعني أنَّه تحفة من تحف الخط والبناء .. ألحقت به مقبرة صغيرة اسمها: (مقبرة محمد أفندي غزالي) شواهد قبورها قطع فنية، منحوتة من الرخام على طراز فني رائع، وبخط عربي متقن.. ثلث أو تعليق[١٣]، مع طربوش رخامي منحوت يبين رتبة ووظيفة صاحب القبر، ويشمل المسجد بالإضافة إلى ذلك مكتب للإمام... إنَّه مسجد سنان باشا[١٤] الجنرال العثماني العظيم، والذي بناه معمار سنان.

دَخَلْنَا ساحة المسجد، ومنها أفضيتُ إلى حرم الجامع المنمَّق المزيَّن، والذي بني على قواعد سنان آغا التي أصبحت عرفًا عثمانيًا، وبجولة في المسجد استطعت الرجوع إلى التاريخ.. لم يكن المسجد كبيرًا فساحته (٢٠×٣٥م) ومصلاه (٣٠×٣٥م)، إلاَّ أنَّ جماله يشهد بدقَّة معماره العظيم.. المعمار سنان باشا.

خرجت من المسجد على المقبرة.. ورحت أقلِّب الشواهد بين القبور هنا.. (هو الحيُّ الباقي) جملة تزين كلَّ شاهد من شواهد القبور.. ثم اسم الميت.. وتاريخ وفاته.. ونبذة عنه، كانت متعةً أنْ تقرأ كلَّ هذا الكم من المعلومات.. ويبدو أنَّ بين تلك القبور كانت ترقد بكلِّ تواضع السلطانة صفية أمُّ السلطان محمد الثالث (٩٧٣- ١٠٠٣- ١٠١٢)[١٥].. وجدَّة السلطان أحمد الأول (٩٩٨- ١٠٩٢- ١١٠٦ هـ)[١٦].. والتي بدأت بناء المسجد الشهير "ييني جامع".

خرجنا لإكمال جولتنا في الأحياء القريبة من حي السنانية، وعيني على رخامة المسجد التي نُقش عليها تاريخ الإنشاء.. وحُفِرَ عليها: سنان باشا جامع، والذي كان لزَوجتي الفضل في اكتشافه حين قرأته ودلتني عليه ونحن في خضم بحثنا عما خرجنا للبحث عنه.

أنهينا دورتنا تلك، وعدنا للفندق.. كنت أحمل عشاءنا، أنا.. وعائلتي، وبعد العشاء.. والجلوس لفترة قليلة.. خلدنا للنوم.. في انتظار

الصباح وما سيُجْلِي معه.. فغدًا هو اليوم الوحيد في إسطنبول قبل المغادرة إلى طرابزون.

أورطاكوي(١٧).. والبوسفور

الساعة الآن الثامنة صباحًا بتوقيت إسطنبول.. من لي بمثل الجلوس معك.. من لي بمثل الجلوس على ضفافك، هي ساعة.. ينسى بها الشيخ شيخوخته.. ينسى بها العاشق معشوقته وعشقه، سحرك الأزرق الذي يشق كبِد إسطنبول، وكأنَّها ثكلى تسيح دموعها مراكب على وجنتيك، أيُّها البوسفور، ساعة صباحيَّة - كأنَّها دمعة تتوه بين الدموع على ضفَّتك- تكفي، إنَّها لحظة لا تتكرر.

كان الجو - بالنسبة لنا كخليجيين- معتدلاً، ولكنه بالنسبة للآخرين حارٌ، رغم أنَّك تجد بجانبك عربًا من الشام ومصر.. وأجانب من ألمانية وفرنسة.. إلاَّ أنَّ الجلوس في حديقة "فورسيزون البوسفور" على طاولة مطلَّة على المضيق.. مع أسرة جميلة كأسرتي كافٍ.. إنْ كانت الجنَّة - شرَّفها الله عن الدنيا كلِّها- بها مثل هذه اللحظات لكفى أهلها.

كنت قد قررت أنْ أقضي نهاري في تلك الحديقة، إلاَّ أنَّ زوجتي اقترحت أنْ نخرج لرحلة في البوسفور، لم أكن متشجِّعًا.. والحمد لله أنَّني أطعتها.. وفي الرابعة تقريبًا خرجنا إلى منطقة أورطاكوي.. تلك المنطقة

الشعبية التي يقوم فيها مسجد.. وكنيسة.. ومعبد يهودي، تلك المنطقة الجميلة الواقعة تحت جسر بواز.. أو جسر البوسفور، تلك التي يقوم فيها جامع أورطاكوي مجيدية المعروف الذي تستخدمه تركيَة في الإعلانات السياحية لها.. ذلك المسجد المربع الذي يقوم تحت قبَّته بالضبط.. ويحاط بمنارتين ويُطل على البحر.. إسمه جامع مجيدية.. أو جامع أورطاكوي.

بُني هذا الجامع على أنقاض مسجد محمود آغا (صهر إبراهيم باشا أوَّل صدر أعظم لسليمان القانوني)، والذي آل بناؤه للسقوط بسبب كون الأساسات معرضة لمياه البحر، فقام السلطان عبد المجيد الأوَّل عام (١٢٦٩هـ)، (١٨٥٣م) بإعادة بنائه على الطراز الباروخي الأوروبي الذي كان مولعًا به،ووضع عليه ختمه، وهو من التحف التي أشرفت على بنائها أسرة "بليان"[١٨] الأرمنية، وقد صممه وأشرف على بنائه المهندس "نيكوياوس بليان"، وفي العام (١٣٧٩هـ)،(١٩٦٠م) تم إعادة ترميم الجامع نتيجة لضعف الأساسات.. إذ يقوم الجامع على لسان ممتدٍّ في البحر، وتم تعميق الأساسات إلى (٢٠م)، تبلغ مساحة الجامع (٢٠×٢٠م) تقريبًا، وتقف على مدخله مئذنتان لهما الطابع الباروخي الدخيل على العثمانيين، ويمتاز المسجد بشبابيكه العالية، وألوانه الفاتحة الهادئة التي لا علاقة لها بالغوامق الفخمة التي يستخدمها العثمانيون في إضفاء الفخامة على مساجدهم.

بالقرب من المسجد هناك محطة تنطلق منها السفن السياحية التي تُجيلك في قلب البوسفور.. وبالقرب منه تقف أسفل الجسر الجديد.. الذي سيكون أوَّل محطَّة تمرُّ عليها في رحلتك الشمالية في البوسفور، ركبنا في السفينة.. وتحرَّكت.. وكأنَّها تتاخم الجسر.. تنسحب مع طريقه من أوروبة إلى آسية.

"بواز جيه كوبري".. وتعني جسر المضيق، ويسمى جسر البوسفور.. أو الجسر الأول هو الجسر الثاني من ناحية الإنشاء، فقد أنشأته شركة أوروبية في ثمانينيات القرن الماضي، يصل طوله إلى قرابة الكيلو وخمسين مترًا، ويسمَّى الجسر الأوَّل لأنَّه أوَّل نقطة التقاء بين قارتي آسية وأوروبة.. وهو الذي سأعبر عليه بعد ساعات لأعود إلى البر الآسيوي.

الرحلة ستكون بين الجسرين، فالجسر الثاني هو "فاتح سلطان كوبري" وطوله (٧٦٣ مترًا) وهي أقرب نقطة التقاء بين القارتين، وهو أقدم من هذا الجسر، بنته شركة يابانية في أوائل السبعينيات من القرن الماضي.

بين الجسرين هناك ثرثرة تستمعها فتعجبك.. هناك كلام متتالٍ عن تأريخ يصل عمره في القِدَم إلى ما قبل فتح القسطنطينية.. حينما نزل المسلمون في الجهة الآسيوية المقابلة للقسطنطينية.. ثمَّ قرر السلطان مراد

الثاني(٨٠٤- ٨٢٤- ٨٥٥)[١٩] الالتفاف من وراء البحر الأسود.. فوصل إلى الجهة المقابلة الأوروبية للقسطنطينية.. هنا.. حيث بنى الفاتح قلعته الشهيرة "روملي حصار" لتكون نقطة كاشفة لخليج القرن الذهبي.. قَدَّمت تقريرًا عسكريًا عن السفن الداخلة للقسطنطينية.. والخارجة منها.. التجارية.. والعسكرية منها، والدول التي تنتمي لها.. وعدد الحرس على قمم أسوار المدينة.. والتحركات التي تدور حولها.. ذلك التقرير الذي أصبح فيما بعد الأساس الاستخباراتي لفتح المدينة.

بين الجسرين.. ترى بيوت الأتراك التي تطل مباشرة على المضيق.. وأمامها مراكبهم وزوارقهم الآلية الشخصية.. فتُتَمْتِم: "ما أسعد من يسكن في مكان كهذا!!"، وترى تلك البيوت التي ترتفع على التلال الملاصقة للبحر.. فتقول: "بل ما أسعد من يسكن في مرتفع على هذه المنطقة"، وترى القصور العثمانية التي تحوَّلت بعد رَدْحٍ من الزمن فأصبحت كليات عسكرية.. أو متاحف.. أو لا تزال مغلقة، كمثل قصر الهديوي، النسخة المصغَّرة لطُولْمَا بَاغْجَة، والواقع على الجانب الآسيوي، والقصر الأبيض الذي أصبح اسمه الآن قصر مهند.. وأصبح سعر تذكرة الدخول إليه تزيد عن (٥٠) ليرة، بعد أنْ مُثِّل فيه المسلسل السياحي[٢٠] الشهير "مهند ونور"، وترى قصر تْشِيران قصر الأمير عبد العزيز.. الذي أصبح فيما بعد السلطان عبد العزيز (١٢٤٦- ١٢٧٧- ١٢٩٣هـ)[٢١]، والمتاخم لفندق الكمبينسكي تْشِيران، والذي استغلته

إدارة الفندق كمتحف - والذي ستكون لي فيه أيَّام فيما بعد- ويبهرك بين هذا وذاك طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي.. آخر قصور السلاطين والخلفاء.. والقصر الذي مات فيه أتاتورك (١٢٩٨- ١٣٥٠- ١٣٥٧هـ)[٢٢].. والذي استقبل فيه رئيس الوزراء الحالي رجب طيب أردوغان جلالة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز، والذي - قبل ذلك كله- كلَّف الدوْلة العثمانية سمعتها الحربية، إذ خسرت أمام روسية القيصرية لسوء الإعداد العسكري، بسبب صرف جُلُّ أموال الدولة (بل وتَحمِيْلها ديونًا) لبنائه.

سترى في الرحلة أيضًا برج الأميرة (كيزكولوسيه)[٢٣].. ذلك الذي لم يُغنِ بانيه عن موت ابنته التي حبسها فيه قرابة العشرين ربيعًا، فراحت.. وراح.. وظل البرجُ يروي القصَّة للناظرين، وستكتشف جمال إسطنبول القديمة من البحر.. وهو منظر لا يتكرر إلاَّ من البحر.. سترى برج غَلَطَة، سترى.. وسترى.. ثرثرةً كثيرةً.. وكلامًا لا ينتهي جمالُه.. وفي نهاية الدورة ستعود إلى أورطاكوي.. لتقف السفينة.. وتجلس مأخوذًا كالمحموم.. مشدوهًا.. بالجمال الذي تخيَّلته.. وأنْتَ تدور.. حتى يأتي على رأسك موظف السفينة ليخبرك بأنَّ كلَّ الركاب غادروا إلاَّك.

قمت من مكاني.. ونزلت.. وتحرَّكت باتجاه جامع مجيدية أورطاكوي.. فليس من العقل أنْ أصل عند بابه ولا أتذوَّق سحره.. كان الوقت قبيل العصر.. لم يفاجئني جمال المسجد.. أو بناؤه.. بل فاجأني

عدد المصلين الذين كانوا يخرجون بعد صلاة العصر منه.. أتراك.. شباب.. شيوخ.. أطفال.. نساء.. رجال.. من كلِّ المشارب.. لا تقل إنَّ هذا الموقف صدف مع هذا المسجد.. نفس المنظر تكرر لاحقًا أمام مسجد سنان باشا الذي سأروي عنه في وقته، ومع مساجد أخرى كثيرة.. دخلت المسجد.. فكان رائعة لا توصف.. لقد بني هذا المسجد في عهد السلطان عبد المجيد الأول (١٢٣٨- ١٢٥٥- ١٢٧٧هـ)[٢٤]، وعلى الطريقة التي بنيت عليها معظم المساجد في عهده إلاَّ أنَّ موقعه المتاخم للبحر.. والذي أصبح الآن أسفل الجسر جعله يظهر للعيان أكثر من غيره.

بعد هذه الزيارة.. مررت وأنا عائد إلى السيارة.. على أكشاك باعة الأطعمة في المنطقة، واشتريت منهم لي ولعائلتي البطاطا المشوية، والتي يقومون بحشوها وتنضيجها أمام عينيك، وركبنا السيارة فرغبت في المرور على الجسر.. فحددت وجهتي إلى تلِّ العرائس.. متمنيًا أنْ أشهد الغروب هناك من فوق التل.. وأنا لا أعرف ما ينتظرني.

بيوك تْشَام لوتْشيه

أقبلت على الجسر من الجانب الأوروبي.. كان المنظر وأنت تتحرك بين شقي إسطنبول خلاَّبًا، إنَّك تنتقل من قارة إلى أخرى خلال أقل من (١٠) دقائق، ترى البحر الذي يضيق ثم ينفتح عن يمينك.. وترى الجسر الآخر "فاتح سلطان" عن يسارك.. وتكشف طرفي المدينة.. وكأنَّك تستمع

المناجاة التي بدأت منذ قديم الأزل.. حينما كان البحر الأسود واديًا.. أو بحرًا مغلقًا.. فانفتح عليه البحر الأبيض المتوسط.. حينها بدأت كلُّ ضفة من ضفاف المضيق تناجي الأخرى وتشتاق إليها.. ولا تزال.. تستمع لتلك المناجاة.. فتصيخ السمع.. حنين لا ينقطع.. لا يَملُّ.. ولا يُمَلُّ.. وكلَّما اقتربت من ضفَّة سمعت مناجاتها أعلى.. إلاَّ أنَّ أهازيج الضفَّة الأخرى لا تزال تسمع نغمًا يجمِّل مناجاة الضفة القريبة.

سلكنا بعد الوصول إلى البر الآسيوي الطريق الصاعد من وراء المنازل إلى "تْشَام لوتْشِيه" أو قمة الصنوبر.. والتي أصبحت تسمى اليوم قمة تل العرائس.. المكان هناك ساحر.. فكما أنَّ المضيق يفصل بين القارتين.. تطلُّ القمَّة على الإسطنبولَين.. ترى المضيق.. ووراءه إسطنبول الأوروبية بجمالها وعراقتها وتأريخها.. وترى سفح التلَّة.. ووراءه إسطنبول الآسيوية.. بحداثتها ومبانيها وسكَّانها.

من يُصدِّق أنَّ سبب شهرة هذا المكان هو حادثة انتحار؟! هذه الجنة المرمية على سفح آسية.. على أعلى نقطة في إسطنبول.. تروي الحكايا أنَّ شابًا أحبَّ فتاةً.. وأحبَّته.. ولأسباب طبقية وأرستقراطية.. ويقول البعض دينية رفضت أسرتيهما زواجهما.. وبرغم المحاولات التي حاولاها إلاَّ أنَّ ارتباطهما حُكم عليه بالفشل.. فما كان من الشاب إلاَّ أنْ اعتلى تلَّة "تْشَام لوتْشِيه" أو (مرتفعات الصنوبر) ورمى بنفسه منهيًا حياته لأجل حبيبته.. (منتهى الرومنسية) وأنا أراها منتهى الغباء.. ففي الوقت

الذي فقد هو فيه حياته.. راحت هي وتزوَّجت وعاشت حياتها، وأصبحت القمة تسمى منذ ذلك الحين قمَّة تل العرائس.. وأقيم فيها المُتَنَزَّه.. ثمَّ أقيمت مجموعة من المطاعم أصبحت قاعات أفراح.. فترى المخطوبين.. والعرائس.. والمتزوجين يأتون إلى القمة لتوكيد زواجهم.. أو عقد قرانهم في أحد تلك المقاهي.. ويروحون، ويظل طيفه يرمي بنفسه مع كل قَرانٍ.. أو إعلان حُبٍّ إلى أسفل المرتفع.. ويصعد.. ليرمي نفسه مع القِران التالي.

المكان ساحر.. حديقة طبيعية أبدعها الباري سبحانه وتعالى.. واهتم بها الإنسان.. بنى فيها مرافقه ومقاهيه.. ترى الناس تروح وتؤوب، وترى الجالسين هنا وهناك.. ترى الكلَّ.. المكان يتحرك بالأزواج.. والأشخاص الذين أتوا لا لشيء إلاَّ للمتعة والتأمُّل.. طريق التلة تمشيه طلوعًا فنزولا ثم تطلع مرَّة أخرى في منحدرات بسيطة.. لتصل إلى المكان الذي أحدِّثك عنه.. ذلك الباهر الجميل الذي يكشف الجهتين.. تقوم فيه سلسلة من المحلات الخشبية الشعبية.. لعل أهمها هو محل الـ"أوزدمه"، وهو كوخ صغير.. تجلس فيه عجائز أربع إحداهن تعجن.. والأخرى ترق.. والثالثة تحشي العجين بالجبن أو البطاطس.. والرابعة تدخله للفرن وتسلمك إياه ساخنًا.. ناضجًا.. فأوزدمه هو نوع من الخبز المحلي لا أكثر.. ولكن تفقد زيارتك نصف جمالها إنْ لم تحصل على واحدة.. ليس للذة

- مع كونه لذيذًا- إلاَّ لأنَّ الجمالية تقتضي أنْ تحمل واحدة فتسعد بسخونتها.

أكلت مع أسرتي ما أكلت وأنا أتابع أطراف الغروب المنعكس بظل أوروبة على الجزء الأوروبي.. وبظل التلَّة على الجزء الآسيوي، إلاَّ أنَّ الغروب لم يكتمل بعد.. فلملمت وأسرتي أنفسنا ونزلنا إلى أوَّل طرف التلَّة.. لنجلس في مقهى "بلكون كافيه" الذي يكشف البحر والجانب الأوروبي في جلسته.. فهو مقام على السفح.. وجلست أُغَيِّب شمس ذلك اليوم من ذلك المكان.

إنَّ الغروب خرافة، أيُّ كلمة ستقولها في وصف ذلك المنظر كذب.. كنت أجلس على دكة خشبية مقامة على سفح التلَّة أسفل مني كانت تقوم أشجار متشابكة.. بعضها مثمر.. وبعضها أخضر.. جميل ذلك المنظر.. كجمالِ الغروبِ، إلاَّ أنَّ الغروب سحر.. فالشمس إذ تودِّع خلف أوروبة والبحر المفتوح تتكلَّم بأسرار محمومٍ يهذي.. إلاَّ أنَّه يغني بسحر صوت الأرض.. وأنغام السماء.. فتسمع كلَّ هذا.. وأنت ترى أحمرها المشفق.. وأصفرها الكليل العاجز.. وترى لازوردية السماء وكأنَّها فلول جيش تدفع هجوم الليل عن ملكتها الآفلة وهم ينسحبون.. لا أزال ومنذ قديم.. أتذوق هذا المنظر بنفس الصورة.. ولكن بطعم مختلف يجعله في كل مرة جديدًا عليَّ.

نزلت من التلَّة.. واتجهت إلى منطقة "تقسيم" تلك المنطقة التي أحسست أنَّني دخلت شارعًا في مدينة "جدة" لكثرة العرب هناك، سواءً من الإخوة السعوديين أو اليمنيين، أنهيت بعض الالتزامات مع شركة الحران السياحية فيما يخص رحلة طرابزون، ثم اتجهت إلى ساحة الاستقلال.. تناولت عشائي في مطعم "كباب دنيازي"، وهو مطعم جيد ثم عدت للفندق لأستعد للسفر إلى طرابزون غدًا.

١٢) خوجه معمار سنان آغا بن عبد المنان (٨٩٤- ٩٩٦هـ) (١٤٨٩-١٥٨٨م)، الشهير بمعمار سنان باشا، أشهر مهندس عثماني على الإطلاق، عاصر عهد أربعة خلفاء عثمانيين، أولهم سليم الأول، ذاعت شهرته لكونه أقام إصلاحات أيا صوفيا، ولكونه أسس للنظام المعروف اليوم باسم الحي التركي في بناء الجوامع (سنتحدث عن ذلك في حديثنا عن جامع السلطان أحمد)، ولعل أهم تحفة بناها هي جامع السليمانية في إسطنبول، ولد في قرية من قرى قيصرية بالأناضول، وكان من ضمن الينيشارية في عهد سليم الأول، وكان يمتاز بدقَّة الملاحظة، وسرعة التفكيك الهندسي بمجرد النظر، وقد شارك في حملة سليم الأول على إيران، فشاهد الآثار الإسلامية في تبريز، وبغداد، ودمشق والشام، والقاهرة، بالإضافة إلى مشاهدته للآثار البيزنطية والرومانية القائمة، مما كون لديه رؤية فنية عميقة، وكان أوَّل عمل أوكل إليه بعد ذلك في العام (١٥٣٤) هو بناء سفن النقل العسكري خلال الحملة على إيران، وأداها بنجاح ملفت، حتى أنَّ الصدر الأعظم لطفي باشا رشَّحه لشغل منصب كبير المعماريين بعد وفاة المعمار العثماني "عجم علي"، وكان له شرف تشييد العديد من المنجزات المعمارية العثمانية، كجامع شهرزاد محمد، وجامع سليمية بأدرنة، والتكية السليمانية بدمشق، ويعد هو نقطة التحوُّل في تاريخ العمارة العثمانية على الإطلاق، فكل المعماريين المشاهير الذين جاؤوا بعده هم من تلامذته، كأمثال: معمار فكري، ومعمار داود، ومعمار غطاس، ومعمار يوسف، والذين كان لهم الأثر الأكبر في تشييد الكثير من الآثار العثمانية كييني جامع، وسلطان أحمد جامع، وتوسعات أيوب سلطان، وبايزيد جامع... إلخ، والتي كانت تبنى على أساس الطراز الذي وضعه معمار سنان نفسه.

١٣) التعليق: يطلق البعض على خط التعليق.. أو النستعليق مسمى الخط الفارسي، وهو خط عربي ظهر (حسب الروايات في بغداد أوَّل ما ظهر، وبسبب ارتباط اللغات الأعجمية المكتوبة بالحروف العربية به، سمي تجاوزًا أو خطأً بالفارسي.

١٤) سنان باشا الألباني، (١٥٠٦- ١٥٩٦م) جنرال وعسكري وسياسي عثماني، أصبح واليًا على مصر في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٩م)، وقاد حملة لضم تونس عام (١٥٧٤م) والتي طردت الاحتلال الأسباني منها خلال الفترة الثانية لتوليه ولاية مصر، وقد تولى الصدارة العظمى لمرتين، وله اليد في ضم اليمن إلى حوزة الدولة العثمانية، وله أعمال إصلاحية كثيرة، وله مسجد باسمه أيضًا في القاهرة، يحمل نفس مواصفات هذا المسجد تقريبًا.

١٥) السلطان محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني (٩٧٣- ١٠٠٣- ١٠١٢هـ) الموافق (١٥٦٦- ١٥٩٥- ١٦٠٣م)، السلطان العثماني الثالث عشر، والخليفة الخامس، أمُّه جارية بندقية الأصل، عزف في بداية الأمر عن تسيير شؤون الدولة حتى اتجهت إلى الدمار، ثم تنبه لذلك حتى أنَّه قاد الجيش في حربه ضد النمسة بنفسه، وهو الأوَّل منذ وفاة سليمان القانوني الذي يشارك في قيادة الحرب بنفسه، وانتصر على النمسة في معركة كرزت، ونفى الجنود الهاربين من المعركة إلى الأناضول، فثاروا هناك، فحاصرهم ثم سالمهم، بعدها اشتعلت ثورة السيباه (وهم فرقة الخيالة من الجيش) في إسطنبول، فقضى عليها بالينيشارية، توفي السلطان في إسطنبول، وخلفه على السلطنة إبنه أحمد الأول.

١٦) هو السلطان أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول (٩٩٨- ١٠٩٢- ١١٠٦ هـ) الموافق

(١٥٩٠- ١٦٠٣- ١٦١٧م)، هو الخليفة العثماني السادس، والسلطان العثماني الرابع عشر من سلاطين آل عثمان، والثامن من السلاطين في إستانبول، ولد وتربى في كنف أبيه السلطان محمد، وتولى ولاية عهده وهو ابن (١٢) سنة، ثم السلطنة وهو ابن (١٤) سنة، لم يكن عهده زاهرًا في بدايته، فقد خسر في الجبهة الشرقية بعض المدن لصالح الشاه عباس الكبير الصفوي، الذي دخل بغداد، وحصلت على إثرها معاهدة إستنبول، ووقعت معاهدة أخرى اعترف العثمانيون بموجبها بملك النمسة إمبراطورًا، وكفَّ عن دفع الجزية، وتم التجديد للامتيازات الأجنبية، عدا الثورات الداخلية في كردستان، والشام، ولبنان، ومصر، التي صقلت معرفة أحمد بالأمور، وبان حسن تصرفه فيها واحدة تلو الأخرى. على عكس العادة التي سنَّها السلطان محمد الأول لم يقتل أحمد أخاه مصطفى، بل نقله إلى السراي القديمة، وكان لهذا الفعل أثره، فقد مات أحمد في ريعان شبابه، فبويع مصطفى خليفة من بعده، عرف السلطان أحمد بالتديُّن الشديد، والورع والتقوى، وحبِّ الخير.. يشهد على ذلك السبل التي تستطيع رؤيتها في كل إسطنبول، والمدن التركية، والتي تحمل اسمه، ولعل معلم إسطنبول الأشهر هو جامعه.. جامع السلطان أحمد.. أو الجامع الأزرق.

١٧) أورطاكوي: وتعني القرية أو القطاع.. أو المنطقة الوسطى.

١٨) أسرة بليان، من الأسر الأرمنية المسيحية، التي لعبت دورًا كبيرًا في حركة التغريب التي ابتدأت أيَّام السلطان محمود الثاني، فقد قدَّمت الأسرة على مدار ستة سلاطين، تسعة من أبنائها في مجال العمارة والهندسة، قاموا ببناء أشهر المعالم التي تعود لفترة حكم سلاطين التغريب.. بدءًا من السلطان محمود الثاني، وانتهاءً بالسلطان عبد المجيد الثاني، وقد قامت الأسرة ببناء أكثر من

(٢٤) قصرًا، وأكثر من (١٥) دار عبادة إسلامية ومسيحية، وأكثر من (٢٥) مبنىً إداريٍّ حكوميٍّ، وأكثر من (١٠) معالم أثرية، على امتداد خريطة الدولة العثمانية، ولعل طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي.. ذلك القصر الأحدوثة هو أهم ما قدَّمته هذه الأسرة من مبانٍ، ذلك بالإضافة إلى قصور أخرى أمثال: تشيران، و"باي لر باي"، ويلدز، وهديوي، ومساجد كمجيدية أورطاكوي، ومجيدية طُوْلْمَا بَاغْجَة، وحميدية، وقد بدأت الأسرة العمل في خدمة العثمانيين مع الجيل الأوَّل منها المكوَّن من الإخوة "جريجور" و"سينيكريم" و"جرابيت" أبناء آميار ماجار بليان، وبسلاسة ظهر الجيل الثاني المكون من "نيكوياوس" و"سركيس" و"يعقوب" و"سيمون" أبناء جرابيت بليان، ثمَّ اضمحلَّت الأسرة بوفاة ليفون نيكوياوس بليان في (١٨٩٤م)، وقد كان أوَّل ظهورها في (١٧٦٤م)، والأسرة مدفونة في مقبرة خاصة بها ضمن حي الأرمن في إسطنبول.

١٩) السلطان مراد الثاني بن محمد الأول، (٨٠٤- ٨٢٤- ٨٥٥) الموافق (١٤٠٢- ١٤٢١- ١٤٥١م)، السلطان العثماني السادس، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه وله من العمر (١٨) أو (٢٠) سنة، بدأ عهده بتوحيد الأناضول، أرسل إليه الإمبراطور مانويل الثاني إمبراطور بيزنطا يطلب منه تسليمه اثنين من إخوته وإلاَّ أطلق ودعم عمَّه مصطفى جلبي، وفعلاً أطلقه ودعمه، فاحتل مدينة "غاليبولي"، واتجه إلى أدرنة، إلاَّ أنَّ قوَّاده تخلَّوا عنه وتم القبض عليه وإعدامه، وقام السلطان بعدها بحصار القسطنطينية في رمضان (٨٢٥هـ)، إلاَّ أنَّ أخاه مصطفى تآمر عليه مع أمراء الأناضول، فاضطر إلى فك الحصار، وهزم مصطفى وقتله، ثمَّ قام بتوحيد الأناضول ليتفرَّغ للتوسع في أوروبة، فتنازل له ملك المجر عمَّا هو شرق نهر الدانوب، ودفع ملك الصرب الجزية وقطع علاقته مع المجريين، ودعم الجيش العثماني بفرقة

مساندة، وزوَّج السلطانَ ابنته، استطاع السلطان استعادة (سيلانيك) في (٨٣٣هـ)، وأعلن الألبان والأفلاق تبعيتهم للدولة، حينها بدأ السلطان يتجهز لحصار القسطنطينية، إلاَّ أنَّ الأمراء الأوروبيين خانوا العهود معه، فعاد إلى تأديبهم، ففتح عاصمة الصرب بلغراد، واستولى على بعض المدن المجرية، ثمَّ قام نظرًا لإنهاك الجيش بتوقيع معاهدة لمدة (١٠) سنوات، وفي (٨٤٨) تنازل السلطان لابنه محمد (١٤ سنة) عن العرش.. وتفرَّغ للعبادة، قام الأوروبيون حينها بنقض المعاهدة مع العثمانيين بتحريض من البابا، فأمر السلطانُ محمدٌ السلطانَ مرادًا بالعودة إلى العرش ومباشرة أمور الجهاد، وعاد بعدها إلى آيدين ليتفرَّغ للعبادة، إلاَّ أنَّ قادة الينيشارية قرروا التمرُّد على السلطان محمد، فنزل بهم مراد وأدَّبهم، ثمَّ تحرَّك لضم بلاد اليونان، وفي هذه الحرب استخدمت المدافع لأوَّل مرة، ثمَّ قام أحد أمراء الألبان بالثورة فذهب إليه السلطان وأدَّبه، ثمَّ صدَّ هجومًا للجيشين المجري والألباني في معركة وادي كوسوفو، وانتصر عليهم، وعاد بعدها إلى أدرنة ليعيد تجهيز الجيش، إلاَّ أنَّه توفي عن (٤٩) عامًا، وحُمل إلى بورصة ليدفن فيها، ويخلِّف في العرش ابنه محمد الثاني... الفاتح.

٢٠) المسلسل السياحي: قامت وزارة السياحة التركية بإنتاج مجموعة من المسلسلات، تم التركيز فيها على مجموعة من الآثار والمناطق السياحية في إسطنبول وتركيا، ثم قامت بدعم ترجمتها إلى معظم لغات العالم، بغرض الترويج السياحي، وقد كان لهذه الخطوة أقر بالغ في تنشيط السياحة في تركية، وكانت ظاهرة إعلامية تستحق الدراسة.

٢١) السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني (١٢٤٦- ١٢٧٧- ١٢٩٣هـ) الموافق (١٨٣٠- ١٨٦١- ١٨٧٦م)، السلطان العثماني الثاني والثلاثون،

والخليفة الرابع والعشرون، تولى الخلافة بعد وفاة أخيه عبد المجيد، وفي عهده قامت ثورة كريت، وتم افتتاح قناة السويس، وصدرت مجلة الأحكام العدلية، وحُصِرَت ولاية مصر في أبناء إسماعيل باشا الأول حفيد محمد علي، واتخذ لقب الخديوي، وقد اشتهر عبد العزيز بقدرته على استغلال الطمع الأوروبي في الدول العثمانية، وكان يقرِّب أحد السفراء على حساب الآخرين.. إلاَّ أنهم (أي الأوروبيون) سعوا إلى عزله، وتولى ذلك أحمد مدحت باشا رئيس مجلس الشورى، فعزل واغتيل في نفس العام، كان رحمه الله على خطى والده في الإصلاح والتغريب، حتى أنَّ فتوى شيخ الإسلام في عزله جاء فيها أنَّه كان يستمع إلى الموسيقى الغربية ويحضر الأوبرا في زياراته إلى أوروبة!! وكان عظيم الجسم شديدًا عصبي المزاج.. إذا جاءه الخبر السيء صفع من جاء به، ويقال إنَّه صفع أحمد مدحت صفعة ألزمته الفراش لثلاثة أيام يزار فيها، ولَمَّا أرادوا اغتياله أرسلوا له أربعة مصارعين ضخامًا، وكانت المصارعة رياضته المفضلة، فأتوه في القصر الذي سجن فيه وهو نائم فبركوا عليه فنهض عليهم ولم يقدروا عليه حتى قام أحدهم بقطع عرق يده بمقص فتمكنوا منه لما نزف بغزاره. تولى الخلافة بعده ابن أخيه مراد بن عبد المجيد.

(٢٢) مصطفى كمال أتاتورك (١٢٩٨- ١٣٥٠- ١٣٥٧هـ) (١٨٨١- ١٩٣٢- ١٩٣٨م)، هو مؤسس الجمهورية التركية الحديثة.. وصاحب قرار إلغاء السلطنة.. وإلغاء الخلافة.. وفك الارتباط، كان ضابطًا في الجيش العثماني، أصبح كولونيلاً.. وحقق العديد من الانتصارات على المنتصرين في الحرب العالمية الأولى، وأوقف زحفهم، وأعاد بعض المناطق منهم، وهو الذي بدأ حرب الاستقلال، وهو الذي أعلن العصيان قبلها بكثير على السلطان عبد الحميد الذي ظفر به ولكنه لم يقتله لحماية الأوروبيين لأتاتورك،

فقد كان قائدًا عسكريًا لمنطقة أنقرة، وفي (١٩٢٠م) أصبح أتاتور رئيس مجلس الأمة الكبير، وفي (١٩٢٢) عُيِّن برتبة مارشال كرئيس عام للجيش التركي، فأعلن إلغاء السلطنة العثمانية بعدها بعامين، وبدأ حركة علمنة الدولة وتتريكها، فحوَّل الحرف العربي التركي إلى الحرف اللاتيني، ومنع لبس الطرابيش والعمائم وأعدم بسببها الكثير من رجال الدولة الذين رفضوا كشف رؤوسهم أو لبس الزي الإفرنجي، وبدأ بمحاربة الدين، ونشر مبادئ العلمانية في الدولة، وأغلق الكثير من المساجد، وأعاد بعضها إلى كنائس، وحوَّل بعضها إلى متاحف، وحارب تاريخ العثمانيين، وحلَّ برلمان إسطنبول وأنشأ برلمان أنقرة، ومنع الحجاب، وألغى وزارة الأوقاف، والمحاكم الشرعية، وقد توفي عن (٥٧) عامًا إثر إصابته بأمراض غريبة متعددة، كالزهري وتشمُّع الكبد.

٢٣) كيز كولوسيه: وتعني برج العذراء، فـ"كيز" تعني العذراء، و"كولوسيه" تعني مبنى برج (وليس النجم)، يروى أنَّ أحد الأباطرة البيزنطيين ولدت له ابنة بعد طول انتظار.. فلما بلغت العامين جاءت له عرافة وقالت له أنَّ هذه الفتاة ستموت بلدغة حيَّة من كروم العنب.. فبنى لها البرج في جزيرة وسط البحر.. وشدد الحراسة عليه.. والمراقبة لكل شيء يوضع فيه، وحملها إليه، وجعل يلبي كلَّ طلباتها، حتى سمعت وهي ابنة العشرين بالعنب ولذته.. فطلبت أنْ يُحضَر إليها، وفعلا أُحْضِرَ لها عنقود منه، فلما أكلت أوَّل حبة.. وهمَّت بأخذ الثانية ظهرت حيَّة من العنقود فلسعتها فماتت.

٢٤) السلطان عبد المجيد الأول بن محمود الثاني (١٢٣٨- ١٢٥٥- ١٢٧٧هـ) الموافق (١٨٢٣- ١٨٣٩- ١٨٦١م)، هو السلطان العثماني الحادي والثلاثون، والخليفة الخامس والعشرون، وهو أوَّل خليفة يتولى بعد حركة

محمود الثاني الإصلاحية التغريبية، وهو الذي استحدث رئاسة مجلس الوزراء التي أصبحت تقاسم السلطان والصدر الأعظم مقاليد السلطة، وهو الذي بنى مجموعة القصور الواقعة في منطقة "باشكطاش" مثل طُوْلْمَا بَاغْجَة، وتشيران، وهديوي، "باي لر باي"، مما أنهك ميزانية الدولة، وحمَّلها ديونًا كثيرة، دون أنْ يعد الجيش وهو على أبواب حرب مع روسية خسرتها الدولة العثمانية مما جعله يضطر للبقاء في طوبقابي سراي خمس سنوات مع كون قصر طُوْلْمَا بَاغْجَة جاهزًا للسكنى، وهو الذي قام بتوسعات كبيرة للحرم المكي والحرم المدني والقدس الشريف، فقد كان مولعًا بالمعمار والتشييد.

الطريق إلى طرابزون..

اليوم أغادر إلى طرابزون.. ومنها إلى أوزنجول.. لا أزال أعاني خوف الطريق.. فأوزنجول منطقة مقطوعة تبعد قرابة الساعة ونصف الساعة بالسيارة عن طرابزون خلال طريق جبلي متعرِّج لا أعرف شكله.. إلاَّ أنَّ جمال البوسفور.. وحسن حديقة القصر.. وأسرتي التي متَّعني الله بها، يصدُّني عن كل شيء، لم تكن ليلة واحدة في قصر الفورسيزون تكفي.. برغم ارتفاع السعر.. إذ أنَّ المكان يوحي لك بالرفاهية التي كان يعيشها أبناء الأسرة الحاكمة في آخر أيَّام الدولة العثمانية.. تخيَّل أنَّك فرد في أسرة تستطيع كلَّ يوم أنْ تجلس على هذه الطاولة لتناول فطورك!! تخيَّل أنَّك تستطيع أنْ تستقبل الشمس إنْ تشرق.. وتودِّعها وهي تغيب من حديقة منزلك، أنْ تجلس بين قارتين.. ترى أكبر قارَّة عن يسارك، وأنْت تجلس على أصغرها عن يمينك!! لا أعلم لماذا مسحت دمعة ترقرقت من عيني حين هبَّت نسمة هواء لطيفة في المكان.. تناولنا فطورنا هنا.. واتجهنا إلى غرفتنا لنلملم بقيَّة أمتعتنا ونترك ما نترك عند أصدقائنا الجدد ونأخذ حاجياتنا معنا.

لم يكن من السهل وداع هذا المكان.. جلست في بهو الفندق أنتظر السائق الذي سيقلني إلى المطار.. وطبعًا طلبت مشروبي الساحر.. القهوة التركية، لم أتذوَّق في حياتي قهوة كتلك التي أسعفتني في تلك اللحظة.. باستثناء تلك التي شربتها في مقهى أحد الفنادق في "فيينا" في شهر العسل.. لم أذق قهوة تركية كتلك.. لا أعلم!! أهو سحر المكان؟ أم سحر اللحظة؟! أمْ أنَّها رهبة المشتاق حين يلقى مَشُوْقَه؟! كنت أستمتع بهذا المشروب الساحر كما استمتعت به طوال حياتي.. لكن هذه المرَّة في كأس واحد، كانت قطعة راحة الحلقوم المصاحبة للفنجان لذيذة وطرِّيَّة.. كانت وكأنَّها خرجت من مصنعها قبل دقائق.. وكأنَّها صباح اليوم لم تكن سوى موادٍ أوَّليَّة لم تخلط أو تبرَّد بعد.. لا يزال عَبَقُ القهوة يداعب أنفي حتى الآن.. لمْ يمهلني السائق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة.. جاءني وأنا في قمَّة نشوتي مسافر بين جمال المكان وعطر القهوة.. واستلَّني من هناك مسرعًا بي إلى المطار.. مررت معه مسرعًا على "إسطنبول الوسطى"(٢٥)، ثمَّ عبر بي الجسر إلى "إسطنبول القديمة"، ثمَّ تخطَّى بي الطريق إلى "إسطنبول الحديثة"، صراعٌ ذلك الذي تناقل بي في الزمن خلال دقائق في مكان واحد.. تخرج من القصر صاعدًا بمنطقة "باشكطاش" في طرف شارع تْشِيران سراي.. المحال التجارية.. المكتبة.. الجامعة.. الجسر المؤدي إلى منطقة "يلدز"، تعبر من أسفله إلى شارع طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي.. على يمينك مسجد سنان باشا وعلى يسارك حديقة خير الدين.. قبره.. تمثاله.. ووراءها البحر.. تنطلق بك السيارة محمومة فيقطع ما بينك وبين البحر ذلك السور

الضخم لطُولْمَا بَاغجَة سراي فالساعة.. ثمَّ البوابة الكبيرة للقصر.. فمسجد مجيدية طُولْمَا بَاغجَة، يستمر الطريق بعدها.. دون أنْ تشعر تنتقل إلى منطقة كاباطاش.. فتواجهك جامعة معمار سنان عن يمينك.. آثار كثيرة.. مساجد.. ومبانٍ كانت تستخدم إداريًّا.. وعن يسارك محلات تجارية قامت في مبانٍ من تلك الفترة.. فمنطقة "كيلشآلِي باشا".. ولا يزال الطريق مستمرًا إلى "قرَّه قوي".. ومنها ينعطف بك السائق يسارًا إلى الجسر.. جسر "غَلَطَة".. ترى على يمينك برج "غَلَطَة" الشهير على التلَّة المتاخمة للجسر.. وتصعد الجسر.. أيُّما كان الوقت.. ستسمع الأذان يعلو في أذنك.. فالمنظر يبعث على الرهبة.. فقرابة العشرين مئذنة ترتفع أمامك بمساجدها.. بدءًا من جامع السليمانية.. مرورًا بييني جامع فالأزرق.. وختامًا بأيا صوفيا ومسجد طوبقابي سراي.. راحتك من السير المحموم لن تستمر إلاَّ دقائق.. ستنزل من الجسر أمام ييني جامع "الجامع الجديد" والذي تعاقبت على بنائه أكثر من واحدة من أمَّهات السلاطين.. ستمر بمحاذاة السوق المصري.. إنَّك ترى المدينة القديمة.. لا ينقصها إلاَّ العمائم والطرابيش.. كلُّ شيء كما هو.. المسجد الأزرق سيلوح لك من تلَّته بمنائره الست.. سليمانية يلوِّح لك بالمنائر الأربع.. ستمر في أحضان أيا صوفيا ليس بينك وبينها إلاَّ الحدائق.. ستجد نفسك عن يسارك البحر.. وعن يمينك قصر السلاطين "طوبقابي" بتاريخه.. ستمر بجانب السور القديم للقسطنطينية.. فتحات الحماية.. كأنَّ جنديًّا يلوح في يده قوس من إحدى الفتحات.. فتحة أخرى وراءها عثماني بمدفعيَّته.. السور يأخذك لأعمق من ذلك في

التاريخ.. فتغوص فيه دون أنْ تشعر.. لنْ ترتاح بين الانتقال.. فلا بحر هنا.. ستدخل إلى إسطنبول الحديثة.. المباني الزجاجية.. الطريق الواسعة.. الأبراج الإدارية.. ستسير هكذا إلى المطار... عند باب المطار.. سيُفتح لك باب السيارة وأنت شارد.. ستلتفت دون شعور إلى الواقف وتقول: "وصلنا؟!" سيجيبك بابتسامة: "نعم" كنت أقصد طرابزون، وكان يعني المطار.. إنَّ الرحلة التي مررت بها في حدِّ ذاتها سفر.. أنْهيت إجراءات المطار.. واتجهت إلى طائرتي التركية التي سترتفع بي بعد قليل.. فأرى إسطنبول كلَّها.. إذ أنَّني أتَّجه من أقصى غربها الأوروبي باتجاه آسية شرقًا.. لكن هذا لن يكون سفرًا.. فسفري منها قد سافرته فعلا.. وأنا أمني نفسي بالعودة إليها بعد خمسة أيَّام.

أيّام في طرابزون

حطَّت الطائرة في مطار "طرابزون".. تلك المدينة المجهول.. لم تكن الرحلة مريحة.. لكنها لم تكن متعبة، لم أكن أعلم ذلك اليوم إنْ كانت تستحق هذه الرحلة عناء سعينا لها أم لا.. إلاَّ أنَّها تجربة.. بحلوها ومرها ومزعجها، وصلنا إلى "طرابزون" في أوائل مساء الخميس.. أهل هذه المدينة لا يعرفون العربية.. كما أنَّهم لا يعرفون الإنجليزية.. إلاَّ أنَّنا وجدنا سائقنا الذي كان ينتظرنا ليقلنا إلى فندق "أسطابارك"، وكان قد تأخر علينا نوعًا ما.. إلاَّ أنَّ دماثة أخلاقه.. وابتسامته.. وجودة خدمته.. جعلت الرحلة معه ممتعة.

أسطا بارك هوتيل

تشعبت بنا الطريق معه.. كنت أجاور البحر الأسود طول الطريق.. مما جعل الرحلة ممتعة ورائقة، وصلنا إلى تشعُّبٍ صاعد يُؤدِّي إلى حي شعبي.. المحلات على جانبي الطريق الأحادي، السعة صغيرة.. الناس شعبيون.. الدرب يصعد.. حتى وصلنا إلى نهاية الطريق.. في نهايته كانت

ساحة إبراهيم كراكونولو.. والمؤدِّية إلى حديقة أتاتورك هيكل[٢٦].. وهذه المعلومة لم أعرفها إلاَّ وأنا أكتب هذه الأوراق.. إذ أنَّني كنت أجلس ليليًّا في هذه الحديقة بعد عودتي من أوزنجول.. وهي تبعد عن مدخل الفندق بالضبط (١٣٠م).

هناك وعلى زاوية نهاية الطريق كان يقف مبنى على شكل حرف (L) تقريبًا، أبيض.. ومرتفع، كان ذلك أسطا بارك هوتيل، نزلت وأردت أن أتواعد مع السائق غدًا بعد الظهر ليأخذني إلى أوزنجول (قرية قايكارا)، فأفهمني بالإشارة أنَّه سيأتي بعد صلاة الجمعة، فسألته أين يمكنني أنْ أصلي الجمعة، فأرشدني إلى جامع صغير خلف مواقف السيارات الواقعة خلف الفندق (وهي المواقف الخاصة بحديقة أتاتورك)، والذي عَرَفْتُ فيما بعد أنَّ اسمه جامع إسكندر باشا، وحسب توقعاتي أنَّه الوالي الذي حل محل الأمير سليم بن بايزيد (السلطان سليم الأول لاحقًا(٨٧٠- ٩١٨- ٩٢٦هـ))[٢٧] حينما عيَّنه والده واليًا على اللواء الغربي للدولة.

لمَّا وصلنا إلى طرابزون اغتسلنا ثم نزلنا نتمشى في شوارع المنطقة، واشترينا عشائنا ثم عدنا إلى فندقنا، كانت الغرفة التي ننزل فيها مطلَّة على البحر، برغم كونها غير قريبة منه، فكنت أرى في الليل البواخر التي تمر.. والسفن الراسية في قلب البحر، فلمَّا شقَّ الفجر أوَّل خيوطه.. جلست على شرفتي أراقب تحرُّك الصباح في الأفق، وامتداد نوره على

البحر.. ساحلا.. وعرضًا، وأرى جمالية المباني العتيقة التي تحيط بالفندق.. ويحيط بها البحر.

ما أجمل طرابزون، فبرغم كونها مدينة صغيرة إلاَّ أنَّها أوروبية الطراز، مدنية التطوُّر، متحمِّلة لتاريخها، وحاضرها.. فهي إحدى مدائن الديانة النصرانية الكبرى، ففيها كنيسة تعرف بـ"أيا صوفيا"، وهي إحدى مدن طريق الحج النصراني، وهي المدينة التي فتحها الفاتح بُعيد فتحه للقسطنطينية، وهي المدينة التي تحمل إسلامها.. ومسيحيتها.. وعلمانيتها في روح واحدة، فمقابل حديقة أتاتورك هيكل يقوم في قلب مبنى البلدية مسجد إسكندر باشا الذي يغص بالمصلين يوم الجمعة.. فيصلون في ساحاته.. وفي الشوارع والمواقف الملاصقة له، بينما تجد الحياة في الطرقات والشوارع حول المدينة لا تزال تدور عجلتُها.

أوَّل جمعة في تركيَة:

كنت أستعد لأوَّل صلاة جمعة لي في تركيَة، وبرغم أنِّي خرجت مبكِّرًا إلاَّ أنَّ صوت الخطيب في المسجد كان مرتفعًا، فدخلت.. كان المسجد ممتلئًا نوعًا ما، صليت السنة.. وجلست.. لم يكن الخطيب يقوم على المنبر، كان يجلس على دكَّة في الناحية الأخرى من المسجد، وكان بعض الجلوس في الخلف يتحدَّثون فيسكتهم من حولهم، كان الأمر مؤلمًا أنْ يتعامل الناس مع حرمة الجمعة بهذا الجهل(أو ما كنت أعتقد أنَّه حرمة

الجمعة)، بعد قليل أنهى الخطيب خطبته.. ونزل!! هل كانت الخطبة الثانية؟! أين الدعاء؟؟ وهل يعقل أنْ تكون الخطبة الثانية بهذا الطول؟! قام الناس فقمت معهم، إلاَّ أنَّ كلَّ واحد كبَّر يصلي لوحده؟!! وكبَّرت أصلي.. وحينما سلمت بعد الركعتين لاحظت أنَّهم لم يسلموا بل قاموا لإكمال الركعات الأربع.. جلست.. إذًا هذه ليست السنَّة.. إلاَّ أنَّني أذكر قولاً أنَّ أربع ركعات سنة الظهر المقصودة في الحديث لا تسليمة بينها في بعض المذاهب.. جلست.. وجلس الناس.. فقام المؤذن بتلاوة الصلاة على النبي ﷺ، ثمَّ ركب إمام آخر على المنبر.. وجلس.. فأذَّن المؤذن، وعندها بدأت المساحات الخالية في المسجد تمتلئ وبدأ الناس بالإنصات.. ثم قام الإمام وبدأ بـ"إنَّ الحمد لله"، ثم جاء بأركان الخطبة، فالخطبة التي كانت بالتركية فيما سوى الآيات والأحاديث الشريفة، ثم جلس بين الخطبتين وقام للخطبة الثانية، ثم دعا.. فنزل وصلى، فكان انشراح نفسي بذلك أكبر من الضيق الذي لزمني أوَّل الأمر.

حينما أنهيت من صلاتي وقمت للخروج كان المسجد ممتلئًا أيضًا، لا يزال الناس يصلون السنة، الساحة أمام المسجد ممتلئة.. الشوارع خلف المسجد وبجنبه.. كان المنظر يبعث على السرور.. حملت نفسي لأستعد للرحيل.. وبدأت أستعدُّ لأوزنجول.. تلك الرحلة الجبلية السر.. تلك الرحلة الغامضة التي كنت أخشى أنْ أصاب فيها بشيء يجعل زوجتي وابْنَيَّ في مكان مقطوع دون عائل.. فكيف ستتصرَّف؟! كنت سألت

زوجتي في الليلة التي تسبقها لو أنَّني متُّ هنا فماذا ستفعل؟ غضبت.. وعنَّفتني.. وقالت: "لا تذكر سيرة الموت مرة أخرى"، كان القلق يساورني فيما لو وقع أي مكروه ماذا ستفعل؟!

أوزنجول

جاء علي (السائق)، وحملني وأهلي بسيارته.. قطعنا ميادين "طرابزون"، وخرجنا منها إلى الطريق الجبلي الذي كان على عكس توقعاتي مخدومًا ومنظمًا ومرتبًا وغير مخيفٍ أبدًا، يمر على القرى الجميلة التي تراها يمنة ويسرة.. أو تمر خلالها، جمال تشوبه البساطة.. وقرى تتحلَّق حول مساجدها العثمانية الطراز، وكأنَّها أُنْشِئَت حولها، ترى الناس في قراهم الصغيرة تمر عليهم فيسعدك المرور.. ويسعدهم، توقفنا في وسط الطريق الجبلي أمام مسجد جامع أقيمت تحته محلات تجارية احتلها مطعم أسماك واحد، بقربه حديقة صغيرة بها مسقط شلال.. يخرج النادل من المطعم.. يفتح السور المحيط بمسقط الشلال.. ويصطاد سمكة من هناك.. ويدخل مرَّة أخرى.. كان المنظر جميلاً.. المكان.. الفكرة.. المسجد.. كلُّ ذلك كان يبعث على السكينة والسرور.

أكملنا طريقنا إلى الجبل.. طلوعًا ونزولاً.. حتى بدا لنا من خلف جبل رأس منارة صغير.. ما فتئ أنْ كان مسجدًا جامعًا بمئذنتين يقوم على طرف جزيرة.. يصل إليه الناس عن طريق جسر.. إنَّه جامع أوزنجول..

وهاهي المدينة.. القرية.. المصيف.. الجبل.. السفح.. البحيرة، أيُّ هذه الأوصاف قلتها صدقت عليها.

تخطَّينا البحيرة.. ونزلنا في نزل صغير اسمه "أنصار هوتيل" كان صغيرًا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.. غرفه صغيرة لا تكاد تسع لأكثر من سريرها وكرسي، لكل غرفة حمامها طبعًا.. بها تلفزيون صغير لم يكن يعمل، الثلاجة مشتركة في المطبخ الموجود في الدور الأول، ولكل غرفة بلكونة مساحتها نصف متر في متر، كان كلُّ شيء غريبًا، إلاَّ أنها تجربة جميلة جدًا.

كان وقت وصولنا عصرًا، فنزلنا نتمشَّى في القرية التي تحيط بنا.. محلات صغيرة أغلبها لبيع الهدايا.. كروم ومزارع ومنازل (فنادق صغيرة)، تحيط بالبحيرة والقرية، والسيارات تعبر الطريق طالعة إلى الجبل أو نازلة منه، تمشينا على البحيرة، ثمَّ ركبنا عربة يجرها الخيل لتأخذنا في نزهة حول القرية، وفعلاً عرفنا معالم القرية.. ومصدر البحيرة النهري القادم من الجبل الكبير فوقنا، والمحال والمنازل حولنا، وعدنا لنجلس على طرف البحيرة نراقب المنظر الساحر للغروب والشمس تودِّع القرية خلف الجبل الآخر.. والقرية تستقبل الليل من الجهة الأخرى.. فتسرج أنوارها لكي تعلن حياتها الجديدة.

الشارع الداخل لقرية قايكارا أوزنجول يمر بمحاذاة البحيرة من المسجد والجزء المحيط به من القرية حتى النزل والجزء الواقع فيها من القرية، ويحد الطريق من الجهة الأخرى جبل.. لاحظت فيه وجود درج صاعد أمامه كشك صغير، وخلال تجوالنا علمنا أنَّه مطعم يقع على طرف الجبل، يصل إليه درج خشبي.. ثم حجري.. ثم يتم التسلُّق إليه عبر عتبات حجرية من الجبل.. في الليل قررنا الذهاب إلى هذا المطعم.. ركبنا الدرج.. وصعدنا حتى وصلنا إلى كوخ جبلي له مقصورة بنيت ناتئًة على طرفه، جلسنا هناك.. وقمت بصعود بقية السلم الحجري وإذا بالمكان ينفرج عن ساحة على جانبها المطبخ الذي لا يقدِّم إلاَّ نوعين من الطعام (الكباب الأناضولي) و(القاورمة)، أمَّا الكباب فهو عبارة عن كفتة عجنت مع بهارات معينة وكوِّرت بشكل بيضاوي.. ثم شويت على النار، ولكنَّ لها طعم السِّحر، وبالنسبة للقاورمة فهو عبارة عن صحن نحاسي قلِّبت فيه قطع صغيرة من اللحم على النار.. مع البصل والفلفل الأخضر.. وكان له نفس السحر، عمومًا كان المكان جميلاً.. والأكل لذيذًا، علمت من الأخ الذي يعمل في النزل أنَّ المكان يقوم على إدارته أسرة صغيرة مكونة من زوجين كبيرين وابنيهما وأخت الزوج، يقوم الرجال بالخدمة والتقديم.. والنساء بالطبخ، كان المكان ساحرًا، فأنت تجلس على سفح يكشف لك البحيرة بكل أطرافها وزواياها.. المسجد.. وطرف القرية القريب منه، والجهة الأخرى بسوقها ونزلها.. والليل في كلِّ مكان سِحرٌ في حد ذاته.. كنت أتنفَّس الليل.. أعيشه.. أسافر فيه إلى

مجاهل الغابات الشجرية المحيطة بالقرية.. بوحوشها.. وذئابها.. وقاطعيها الذين نرى أنوار سياراتهم تصعد وتنزل.. وراجليها الذين تعودوا على وحشة المكان المظلم حتى غدت أليفة إليهم وبهم.. الأصوات التي تتردد حواليك كلَّها تخلق جوًا من الألفة مهما كانت منكرة.

لم أكد أتم الساعتين.. أو أتممتها إلاَّ وأذان العشاء يُرْفَعُ من المسجد.. بعدها خرجنا إلى نزلنا.. درنا في المحالِّ المحيطة به.. إشترينا بعض التذكارات.. وعدنا للاستعداد لرحلة الغد، فغدًا رتَّبتُ للصعود إلى أعلى قمَّة أوزنجول.. لأرى مصدر هذه البحيرة وشلالاتها.. ولألتمس جمال الطبيعة الساحر الذي يأخذني معه أينما التفتُّ.

أوزنجول الجبل

ما كدت أخرج صباحًا للإفطار فالمغادرة إلى الجبل إلاَّ ولاحظت أنَّ المكان أصبح ملغومًا.. المتحدِّثون بالعربية أكثر من المتحدثين بالتركية.. وإنْ شئت الدقة فقل: المتحدثون بالخليجية أكثر من الأتراك.. السيارات تمرُّ علينا بلوحاتها.. السعودية.. الكويتية.. الإماراتية من أبو ظبي ودبي.. البحرينية.. والقطرية أيضًا!! الرائحون والغادون.. جميعًا يلقون التحايا بلهجاتهم الخليجية!!

بالأمس كنت أواجه صعوبة في شرح مطالبي بالإنجليزية والتركية والعربية.. واليوم أستخدم مصطلحات خليجية بحتة لأبين للباعة ما أريد، فيرد عليَّ السعر بالخليجي المحلِّي، فالـ(١٨) يقولها بلهجة تركية "سيمانتآش" فأفهم أنه يقصد "ثِمَانْ تَعَشْ"، هذا ما لاحظته في أحد المحلات التي جئتها بعد نزولي من الجبل، فعلمت أنَّهم يتعلمون من الخليجيين الأعداد بالعربية ليستطيعوا البيع لهم.

عمومًا.. صعدت في هذا اليوم مع سائق من أهل الجبل إلى الجبل.. مررت على الطرقات الصاعدة بجانب النهر النازل.. الناس يصطادون في النهر.. فيقف ليسألهم عن الصيد.. ويريدهم أنْ يرونا السمك.. يصعد ليقف قليلا بقرب حوض صغير.. ينزل فيه الماء من الشلال.. فيتحول إلى صنبور أسفل الحوض يشرب منه المارة ثم يكمل طريقه عائدًا إلى مجرى النهر.. يصعد أخرى بين شقوق الجبال تارة.. وبين الأشجار السامقة تارةً أخرى.. حتى ينكشف الطريق عن سفحٍ كبير ممتد ترى على أطرافه الطرائق طالعة إلى أعالي جبالها.. أكمل طريقه.. مررنا على قرىً قامت بها بيوتها على نظامٍ ذكرني كثيرًا بالبيوت والقرى التي كنت أراها في ريف البافارية في ألمانية والنمسة، لولا المساجد التي تزيِّن القرى.. لا تمرُّ عادة في وسط قرية.. فالقرى مُزْوَرَّة شيئًا قليلاً عن الطريق.. وتؤدِّي لها طرق ترابية من الطريق الرئيس.. حتى وصلنا إلى قرية السائق.. والتي يمر الطريق في وسطها.. فبيوتها تقع على جانبي الطريق.. ثمَّ أكملنا طريقنا إلى

أعلى الجبل.. توقفت السيارة حيث نرى الماء يسحُّ من نقطة من أسفل الثلج.. فمشينا قاطعين الثلج والمرج الأخضر المختلط بعضه ببعض.. نصعد تلَّة صغيرة.. أتعبنا الصعود.. فلما توقفت مقرِّرًا الرجوع نظرت أمامي وإذا بحيرة قد احتضنتها الجبال وخبَّأتها عن أعين الناظرين.. نزلت إليها.. خلعت حذائي.. وغطَّست رجلي.. ورجل ابنتي شريفة في الماء البارد.. كانت برودته عذبة.. ومنعشة.. ومريحة في آنٍ واحد.. لا أعلم كم طال بنا الوقت حتَّى أفلنا راجعين إلى السيارة.. ثمَّ آفلين إلى قريتنا.. التي رحنا نتمشَّى فيها بانتظار المغيب.. إذ لم تكن الشمس غابت بعد.. نرى الخليجيين حولنا وكأنَّنا في الخليج.

قررنا أنْ نتناول عشاءنا في مطعم أحد الفنادق.. لم يكن في المطعم غيرنا، وأسرة تركية رجل.. وزوجته.. وثلاث بنات، دخلنا وجلسنا لنطلب العشاء.. وواجهنا صعوبة في إفهام النادل طلبنا.. ونحن في خضمِّ الحيرة تلك انتبهنا على استئذان إحدى الفتيات من أبيها.. الذي وافق لها فأقبلت عارضة باللغة العربية المساعدة علينا.. بأنْ نخبرها وهي بدورها تترجم للنادل، وفعلاً أدَّت لنا الخدمة تلك، ثمَّ أدَّت خدمة للمطعم بترجمة قائمة الطعام للعربية، أعجبني تصرف تلك الفتاة.. إذ استأذنت من أبيها قبل أيِّ خطوة.

تعرَّفت على الرجل.. أصله سوري.. من حمص، وزوجته أصلها من حماة، ولكن أولاده جميعًا أتراك بالولادة، ومع كونه تركيًا إلاَّ أنَّه

يزور أوزنجول لأول مرة، وهو من أهل إسطنبول، كانت الجلسة معه ممتعة، وكم تمنيت أنْ تطول، تعارفت الأسرتان، عرفنا أنهم جاؤوا في رحلة بالباص من إسطنبول مرورًا بكثير من مدن البحر الأسود.. نصحتنا زوجته الفاضلة بتذوُّق طبق يختص به أهل مدن البحر الأسود.. هو الـ(مهلمه) أو المحلمة، وهي عبارة عن جبن خاص مقلي بالزيت أو الزبدة.. ويا لعشقي للجبن.

ودَّعتهم ممتنًّا لحسن خلقهم معي.. وآملا أنْ ألقاهم في ظروف أخرى، كنت أتنقَّل في أوزنجول وكلِّي ألم لكوني سأغادرها غدًا.. بدأنا نتأهَّب للرحيل منها.. وفي خلدنا أنَّها ستظلُّ محفورة في الذاكرة.

سلطان مراد

في طريق ذهابنا إلى أوزنجول لفت انتباهي لوحة كُتب عليها بالتركية (سلتان مراد) سألتني زوجتي من هو السلطان مراد.. فقلت لها أنَّ هناك خمسة سلاطين يحملون هذا الإسم، ولكن لا أعلم أنَّ أحدًا منهم دفن خارج إسطنبول باستثناء الأول والثاني والد الفاتح الموجودين في بورصة وليس في هذه الأنحاء.. وقرأت عن اللوحة وسألت عنها فعلمت أنَّ القمَّة الثانية لجبل أوزنجول هي سلطان مراد، ولكنَّ أحدًا لم يشفِ فضولي في معرفة صاحبي هذا، فقلت علَّ زيارة للمنطقة تكون مُطْفِئَةً لنار الفضول.

لَمَّا تحرَّكنا مع سائقنا علي سألته أنْ نمر على الجبل إنْ أمكن، فأبدا ترحيبًا.. وحينما وصلنا إلى المنعطف.. انعطف على الجسر.. وبدأت السيارة في التثنِّي على طرق صاعدة.. مررنا بمتحف كان خلوة لأحد العبَّاد.. ويبدو أنَّ له علاقة بتسمية الجبل.. ثم مررنا بقبرٍ أقيم عليه نُصُبٌ كان لجندي قُتل في تفجير للأكراد في المنطقة، ثُمَّ مررنا على قرية صغيرة.. فمقبرة قديمة قدم التاريخ.. ثم توقفنا في القرية المقصودة.. سلطان مراد.. القرية عبارة عن شارع واحد.. به المحال التجارية.. والمطاعم، وبه فندق مكوَّن من ستة أدوار على شكل كوخ كبير.. وقهوة شعبية اسمها سلطان مراد، ومسجد.. به شاهد نُقش عليه أنَّ هذا المسجد أقيم للسلطان مراد هنا.. أَمَام كلِّ ذلك كانت ساحة.. حديقة.. مسطح أخضر.. لا أعرف ما أسميها.. كانت تمتدُّ على مدى العين، اتخذها حزب السعادة الإسلامي مكانًا ليعقد فيه تجمعًا في ذلك اليوم، بينما اتخذ أهل سلطان مراد في طرفها القريب من المدينة ملعبًا لأطفال الزوار الأغراب عن القرية.

على تلك الأراجيح رأيت لغة من لغات العالم المشتركة، تلك التي جعلت طفلة عربية.. لا تفقه من لغتها الأم الكثير.. تلعب بكل براءة مع طفلة تركية لا تفقه إلاَّ لغتها، بل وتتبادل اللعب بسعادة مع مجموعة الأطفال الأتراك هناك.. بينما نقف نحن الآباء بكل ما أوتينا من رجاحة.. وبكل ما أسبغت علينا سحناتنا من تَزَوٍّ.. دون أنْ يلقي أحدنا التحية على الآخر.. حتى يقرر الأطفال ذلك.. فيبدأون بمساءلتنا عن عُمُرِ ابننا "عبد

الله"، وعن ما تعنيه صديقتهم الجديدة شريفة حينما تقول "دزيني" أي إدفعي الأرجوحة، وعن أصلها.. فيقترب الأب والأم منَّا محيِّيَيْن.. وشارِحَيْنِ ما يقوله أبناؤهم بالتركيَّة.. ما أعظم الطفولة التي لا تقيم ميزانًا لأي فوارق إلاَّ الحب.. ولا تعترف بأي حدود أو تكاليف إلاَّ السعادة.. وتتجاهل كلَّ ما لا قيمة له في نظرها من لون.. أو لغة.. أو جنس.. إنَّها اللغة الأعظم بين لغات بني آدم المشتركة.

تركت كلَّ ذلك خلفي.. وعدت باتجاه القرية لأستقل سيارتي إلى طرابزون.. ولم يزل السؤال في ذهني: "أيُّ مراد هذا؟".. إلاَّ أنَّ تساؤلي تاه في جمال المكان، فالمكان أكثر من رائع.. أكثر من جميل.. وأكثر من هادئ، دخلت المسجد.. ثمَّ تمشينا قليلاً في المنطقة.. لنقفل راجعين بعدها إلى طرابزون.. وفي ذهني السؤال: "من هو السلطان مراد المعني؟!"

بالبحث لمْ أجد أيَّ واحد من السلاطين الثلاثة الآخرين دفن في غير إسطنبول.. إذًا لم يكن المقصود هو مكان دفنه، ووجدت أنَّ هناك قرى على طول ساحل البحر الأسود من إسطنبول إلى الحدود الإيرانية تحمل اسم "سلطان مراد" وبعضها أصبح أحياءً في مدن.. كذلك الذي في مدينة سامسون، وفي قصر طوبقابي.. هناك المقصورة البغدادية التي بناها السلطان مراد.. ولم يصل أيٌّ من السلاطين مراد إلى هذه النواحي إلاَّ السلطان مراد الرابع (١٠١٨- ١٠٣٢- ١٠٥٠هـ)[٢٨]، وهو صاحبي.. فقد كان كلما نزل في منطقة على طريق حملته لتأديب الدولة الصفوية

بنى مسجدًا، فسمي المسجد باسمه، ثم سميت المنطقة باسمه، حتى وصل تبريز، فلما ضمَّها نزل منها إلى بغداد.. وعاد آفلا ظافرًا بعدها إلى إسطنبول ليودِّع العالم بعدها بأشهر قليلة.

لم يكن غريبًا أنْ تكون القرى والأحياء التي تحمل اسم السلطان مراد خلال حملته على الطريق.. في المدن.. وفي السهول.. وفي الأماكن المأهولة، ولكن مكان هذه القرية على جبل مراد غريب نوعًا ما، فالمكان شبه مقطوع.. فكيف وصل هو إلى هنا؟! وكيف أسس المسجد؟! وكيف تغلَّب على وعورة المسالك إلى هنا؟! وما سبب انعطافه عن الطريق السهل إلى هذه الجبال؟! هذا ما لم أجد له جوابًا!!

حول جبال أوزنجول

قال لي السائق الذي حملني إلى قمة أوزنجول أنَّ هذه القرى والبيوت تُهْجَرُ طوال فترة الشتاء.. فالناس ينزلون خلال الشتاء إلى بيوتهم في طرابزون، إذ أنَّ الثلج والعواصف في الشتاء تكون شديدة جدًا.. وهذا يفسر سبب كون معظم البيوت من الخشب.. ومن المواد الرخيصة غير المكلفة.

زورلو جراند

نزلنا من الجبل.. وكأنَّ الأمر كان حُلْما!! تحوَّل جمال الطبيعة الساحر وأخضر أرضها إلى جمال البحر الساحر وأزرق مائه، من الأكواخ الريفية الخشبية.. إلى المباني الحديثة والحجرية، من الطرق الترابية المعبَّدة.. إلى الطرق الإسفلتية الواسعة، بَوْنٌ شاسع بين الجمالين.. إلاَّ أنَّ كليهما يسمَّى جمالاً.. وهو ساحر بطبيعة حاله.

اتجهنا إلى المدينة.. إلى فندق "زورلو جراند" الواقع بمنطقة "كمركايا"، وفي شارع "ماراش قادسي".. وهو شارع تجاري يقع في منطقة وسط المدينة.. وينتهي طرفه إلى حديقة أتاتورك هيكل.. ومن المضحك أنَّني كنت أزور هذه الحديقة وأنا نزيل فندق زورلو جراند يوميًا.. وأجلس في طرفها القصي.. وأستمع إلى أذان المسجد الذي صليت فيه الجمعة دون أنْ أعرف أنه هو، ودون أنْ أعرف أنَّ شارعًا هو ما يفصلني عن فندق أسطا بارك.

وصلنا لفندق زورلو جراند.. كان فندقًا حديث الطراز.. زجاجي الواجهات.. راقي الأثاث.. به صالة استقبال في الدور الأول (فوق الأرضي) رائعة الجمال.. تستحق أنْ تجلس فيها لاحتساء قهوتك التركية، ذلك عدا أنَّ الخدمة فيه ممتازة، وبدوره الأرضي سوق تجاري، وهو يقابل محلات وأسواق تجارية.. بل يقع في منطقة تجارية ضخمة.

وبعد الإراحة نزلنا إلى الشارع لاستكشاف المنطقة، وبعد سياحة في حدودها توقفت أمام أحد المطاعم المنتشرة في الطريق.. واشترينا غداءنا وعدنا إلى الفندق لتناوله.. كان الوقت مشارفًا على الغروب.. الشمس الأصيلية تغادر السماء.. نورها يعكس ظلال المباني على الشوارع التي كدَّها تكرار ضغط الأرجل المارة عليها، الأنوار تتنادى.. ينادي بعضها بعضًا لتسفر على وجه الشارع فتحيل ليله نهارًا، فيستحيل حياةً أخرى تنتبه لها الطرقات من جديد.

كلُّ ذلك كان مدعاةً لنا - أنا وأسرتي- أنْ نغادر الفندق من جديد، لنتذوَّق الليل في منطقة "كيمركايا"، كان لليل طعم آخر.. نزلنا من شارع "ماراش قادسي" باتجاه حديقة أتاتورك، ومنها أكملنا نزولنا بشارع "قازلباش".. ولاحظنا أنَّ كثيرًا من المحلات بدأت تغلق أبوابها، فعدنا صعودًا إلى الحديقة.. لنتجه إلى المنطقة المواجهة لتمثال أتاتورك، والتي تقام فيها طاولات يخدمها أصحاب بعض الأكشاك، جلسنا على طاولة بعد أنْ أخذنا جولة في الحديقة، عَرَفَتْ منها ابنتي شريفة أنَّ هناك نافورة ماء بالحديقة.. فأصبح دوري أنْ ألحق بها عند النافورة، فأحملها وهي تبكي لتعود إليها فألحق بها، حتى أتممنا قهوتنا أنا وزوجتي، وأذَّن العشاء حينها، فحملنا أنفسنا لنتمشى قليلاً ثمَّ نعود إلى فندقنا لنرتاح، فغدًا هو اليوم الوحيد الذي سنعيشه في طرابزون.

في اليوم التالي، وبعد الإفطار في مطعم الفندق أخذت فتاتي الصغيرة شريفة لتمارس (رياضة السباحة) في مسبح الفندق، بدأَت السماء حينها تروي حديثها مطرًا.. بعد ذلك بفترة قررنا أنا وزوجتي زيارة متحف "أيا صوفيا"، وهو برغم تشابه الأسماء مختلف عن ذلك الذي في إسطنبول.. إلاَّ أنَّه كان في الأصل كنيسة مقدَّسة في مدينة مقدَّسة تقع على طريق الحج المسيحي للقادمين من شمال العالم باتجاه بيت المقدس.

كان المبنى يظهر للعيان من أماكن كثيرة من المدينة، فقد شيِّد على ساحل البحر أعلى تلَّة مرتفعة، على مساحة تقدر بحوالي (٥٠×٣٠م)، ومكونة من مبنيين، أحدهما كان الكنيسة التي تم تحويلها إلى مسجد، ثمَّ أصبحت متحفًا، والآخر كما يبدو كان مسكنًا للرهبان، وظل كذلك حتى تحول إلى متحف، كان - ولسوء حظنا- قد أغلق أبوابه مبكرًا، فقررنا أنَّه لا أقل من الخروج من حيِّه الشعبي إلى الشارع الرئيس سيرًا على الأقدام، وفعلاً سرنا باتجاه الشارع العام، ثم بدأنا بالسير باتجاه فندقنا، فلمَّا توسطنا الطريق أخذنا سيارة أجرة إلى منطقة "كيمركايا" التي نزلنا في أوَّلها وبدأنا بالتمشية فيها، كلُّ هذا والمطر يداعب برذاذه البحري وجوهنا.. كان الهواء باردًا، والجو الغائم - رغم غيمه- صافيًا، المطر عذب الملمس على الوجنات.. مثله مثل مخمليِّة الهواء البارد إذا انْسَام

على الوجه فأنسى حرارة الشمس، مثله مثل هواء البحر الأسود الموصوف دائمًا (رغم عواصفه) للهدوء.

حينما دخلنا الفندق بعد الرحلة بدأت السماء تعلن شدَّة أمطارها.. حتى المغرب لم يكن هناك منظر أجمل من الجلوس على الشرفة لمتابعة حوار الأرض والسماء.. مناجاة العطاء تلك، بُعيد المغرب.. توقَّف كلُّ شيء.. وكأنَّ ما كان ذكرى بعيدة لا ترى منها إلاَّ أثرها في بلل الشوارع.. عندها قررنا النزول.. هذه المرَّة باتجاه الحديقة.. ولكنا أخذنا الاتجاه المعاكس لشارع القازلباش، فدخلنا إلى سكة يوزون، وهي شارع تجاري خلف فندق زورلو جراند.. هنا.. قرر الحوار أنْ يحتدم بين السماء والأرض.. بدأت الأمطار.. وبسرعة بدأت تقوى.. وتقوى.. حتَّى أصبحت من الشدَّة بمكان أنْ اضطررنا إلى الرجوع إلى فندقنا.. محتمين بمظلات المحلات.. والمباني.. إلاَّ أنَّ البلل من المطر كان قد أصابنا فأخذ منا حاجته، لم يكن الهرب من المطر هو هدفنا.. فالمتعة في وجود الشتاء في الصيف لا توصف.. كنَّا نتعمَّد التعرض للمطر.. كنَّا كمن يستقي من هجير الشوق، بلقاء الشتاء.. كنَّا كمن وجد ضالَّته.. ذلك التردد بين الهرب والتعرض كان في حد ذاته أحدوثة من أحاديث الأرض والسماء، فلا تعلم أكان الناس يهربون من المطر أمْ يقصدون التعرض له.

برغم قرب المسافة من الفندق إلاَّ أنَّنا لم ندخل في حمى مبناه حتَّى توقَّف المطر.. أو كاد، هناك جلسنا أمام الباب في مقهى.. لنحتسي القهوة

التي كانت لها نكهة الشتاء، ثمَّ عدنا أدراجنا إلى غرفتنا.. فغدًا هو يوم مغادرتنا إلى إسطنبول.

ودَاع طرابزون

الصباح شتائيٌّ كالليلة الماضية.. ها أنتِ يا طرابزون.. يا عروس الأسود.. وها نحن.. خمس ليالٍ مرَّت كالطيف المسافر لم تبقَ منها إلاَّ ذكريات، تمامًا كماء المطر الذي يبلل أرض شوارعك بعد ليلة أمس، إنَّ ذكرياتنا عنكِ يا أوروبية التقدُّم لا تقلُّ روعة عن جمال المطر المتبقي على الأرصفة.

ها نحن نغادر الآن من الفندق صباحًا.. والغيم يحجب الشمس.. والمطر حوار السماء والأرض.. ساعة يرذُّ.. وساعة يهطل.. وساعة ينهمر.. وساعة يتوقَّف.. أنا الآن أركب السيارة التي ستقلني للمطار.. لا أعلم أأعود فأراكِ أخرى.. أمْ أنَّ هذا آخر العهد بِكِ، في كلا الحالتين.. كانت أيَّامك جميلة... هاهي السماء تودِّع الراحلين برذاذٍ صباحي جميل.. تهديهم عطر الماء الذي ينساب على الذاكرة فيبقي أثره.

ها نحن - يا عروس الأسود- نفترق رغم الألفة.. الألفة التي نفتقدها حين نفارق الأوطان، مهما كانت منازلنا الجديدة عريقة.. أو عظيمة.. إلاَّ أنَّ المسافر يحن إلى ما ألِفَ، إلاَّ أنَّ طرابزون.. برغم مدنيتها..

حدائقها.. أحجارها.. شوارعها.. عمائرها.. تحس فيها بحميمية تسري مع الدم في عروقك.. تجلس على شرفتك الساهرة قُبَيْلَ الفجر في انتظار الأذان.. ويشجيك نغم الأذان الرخيم وقت العشاء.. وتُنصت له وهو يُعلن مغيب الشمس وقت الغروب.. إنَّها أشبه ما تكون بمدن أوروبة.. لولا حميميتها وحنان أصوات مآذنها.. إنَّها أنتِ يا طرابزون.. يا عروس الأسود.

إنَّه وداعك إذًا.. لملمت حقائبي.. وجبت شوارعك.. عينٌ على جاركِ الأسود البهي.. وأخرى على مبانيك التي تتغيَّر بتغيُّر الشوارع.. أهلك.. ذاكرتك.. وهانحن ندخل حيز المطار.. نحمل أمتعتنا.. وندخل طائرتنا التي تعود بنا إلى مقاصدنا.. تمامًا كالعمر.. مفقودٌ أوَّله.. ومجهول قادمه.. لكنَّ حاضره وماضيه ذكرياتٌ تسكن أفق الخيال.. وتنبه العقل.. وتجلي سحر الأيَّام الخوالي.. كان ما مضى من رحلتي مفعمًا بالجمال.. ولكنَّ الآتي أكثر جمالاً.. هذا ما سأجده اليوم عند وصولي إلى إسطنبول.

٢٥) مصطلحات "إسطنبول الوسطى"، و"إسطنبول القديمة"، و"إسطنبول الحديثة"، أطلقتها لأميِّز أقسام المدينة الكبيرة، فالوسطى هي منطقة باشكطاش وما وراءها كأورطاكوي ويلدز، والتي كانت العاصمة قبيل سقوط الخلافة العثمانية، أمَّا القديمة فهي الجزء المحيط بسلطان أحمد وفاتح و"إيْمِيْنونو"، والذي كانت تقوم فيه القسطنطينية، وقامت فيه عاصمة الخلافة حتى انتقال السلطان عبد المجيد الأوَّل إلى باشكطاش، والحديثة هي الجزء الواقع خارج أسوار المدينة القديمة من أوروبة، والذي يمتاز بحداثته وعمائره، والذي تعود تواريخ معظم أجزائه إلى فترة ما بعد الجمهورية.

٢٦) أتاتورك هيكل، وتعني نصب أتاتورك التذكاري.

٢٧) السلطان سليم الأول "ياوز" (٨٧٠- ٩١٨- ٩٢٦هـ) الموافق (١٤٦٦- ١٥١٢- ١٥٢٠م)، هو السلطان التاسع من سلاطين آل عثمان، والخليفة الأول من الأسرة العثمانية، وهو ابن السلطان بايزيد الثاني، وحفيد الفاتح العظيم، ولاَّه والده ولاية "طرابزون"، وحين توقَّف والده عن حركة الفتوحات في أوروبة، واتجه إلى التصوُّف، كان لسليم رأي مخالف لوالده، فطلب منه أنْ يوليه اللواء الغربي في أوروبة، ولكن والده رفض، فكان يكثر من زيارة ابنه سليمان والي شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود، ويعدُّ العدة لغزو أوروبة من هناك، وحدث أنْ اقتحم الشاه الصفوي إسماعيل الأول في هذه الأثناء الولايات الشرقية من السلطنة العثمانية، فاتجه إليه سليم وأدَّبه واستعادها واحتل بعض الولايات التركمانية التي كان الشاه الصفوي أسقط دولها، واحتلها، وشرد حكامها، وبدأ بمواجهة التشييع التي كان يقوم به الصفويون في تلك المناطق، فشكا الشاه للسلطان بايزيد، فأمر سليمًا بإعادة ما استعاده من مناطق للشاه الصفوي، فامتثل سليم لذلك، ورحل إلى القرم

فأمره والده بالعودة إلى طرابزون فأبى وأعاد على والده طلب توليته الثغور الغربية، فوافق والده، وتحوَّل سليم إلى الثغور، وبدأ بحركة الفتوحات هناك، فما كان من والده إلاَّ أنْ استدعاه وقلَّده السلطنة ليتفرَّغ للعبادة، وفي هذه الأثناء جهز الشاه الصفوي حملة انقضَّت على شرق السلطنة، فاضطر سليم لفك حصاره عن فيينا وقد كادت تسقط، وعاد بحملة كبيرة، فتواجه مع الشاه إسماعيل في معركة "جلديران" وانتصر عليه ثم آب راجعًا، فلما وصل إلى منطقة شمال سوريا أرسل إليه علماء دمشق بفتوى توجب عليه احتلال الشام إنقاذًا لها من غفلة المماليك، فاتجه إلى دمشق ودخلها سلمًا، فجرد له قانصواه الغوري سلطان المماليك حملة والتقى به في "الريدانية"، فانتصر سليم عليه، فأرسل له حينها الشريف بركات شريف مكة مفاتيح الكعبة والغرفة الشريفة إيذانًا بتبعية مكة له، وجاءته الأنباء عن أنَّ السلطان المملوكي الجديد طومانباي يستعد لحربه، فتحرك للقاهرة وضمها، وكان الخليفة العباسي فيها هو محمد المتوكل على الله، فأرسل له بعمامة الخلافة ورايتها وخاتمها والبيعة، فاستصحبه سليم معه إلى إسطنبول، فأصبح سليم الخليفة العثماني الأول، وهو أوَّل من تلقَّب بخادم الحرمين، وكان شاعرًا رقيق الحس جميل الكلمات، ينظم بالتركية والفارسية، وهو القائل في إحدى قصائده: "إنَّ سجادة الصلاة تسع صوفيَّيْن، إلاَّ أنَّ الدنيا لا تتسع لملكين".

٢٨) السلطان مراد الرابع بن أحمد الأول (١٠١٨- ١٠٣٢- ١٠٥٠هـ) الموافق (١٦٠٩- ١٦٢٣- ١٦٤٠م)، هو السلطان العثماني السابع عشر، والخليفة الإسلامي العاشر، وقد خلف عمَّه مصطفى الأول ابن محمد الثالث، تولى السلطنة وهو ابن (١٤) عامًا، وكان أوَّل ما قام به تجريد حملة تأديبية للدولة الصفوية، وإمبراطورها عباس الكبير، فدخل عاصمته تبريز، واستعاد بغداد،

زرع الهيبة في نفوس أعدائه بذلك، وزرعها في جنده بعد أنْ قام بوضع خطة نجحت في قتل قادة الينيشارية، قضى على ثورة فخر الدين المعنى الثاني وقتله، كانت له إنجازات عسكرية إذ استطاع استعادة هيبة الدولة التي فُقدت في عهود من سبقوه، وقد قاد حملة تحرير بغداد وتأديب الصفويين بنفسه، فلما نزل بغداد أعجب بقصورها، فأمر ببناء المقصورة البغدادية والتي بنيت على طراز القصور الشرقية، ولكنه مات بعد عودته من هذه الحملة بقرابة السنة، عن(٣١) عامًا.

العودة إلى إسطنبول

حطَّت الطائرة رحالها.. ها قد وصلنا يا مدينة الفاتح.. لقد عدنا يا حبيبة قسطنطين.. يا مرقد السلاطين.. يا حاضرة الخلافة الأخيرة.. إنَّ للعودة مذاقًا يشبه إلى حد ما الوصول الأول.. الشوارع هي الشوارع لم تتغيَّر.. وكأنَّ غيابنا طال أكثر من سنين!! بعد وصولنا بيوم جاءتنا اتصالات تتأكد من سلامتنا، فقد اجتاحت طرابزون أمطار غزيرة تسببت بفيضانات أدَّت إلى وفيات.. كنَّا ونحن نطمئنهم نتمتَّع بشمس إسطنبول الدَّافئة.

جبنا شوارعنا التي نعرفها.. أطلَّت علينا قباب طوبقابي سراي من خلف السور الحجري للمدينة.. مآذن أيا صوفيا.. فمآذن سلطان أحمد وكأنها تلوِّح للقادمين، طفنا أسفل ظلِّ ييني جامع.. قطعنا جسر "غَلَطَة".. لقد عدت يا إسطنبول.. عدت يا طُوْلْمَا بَاغْجَة.. هذه المرَّة سأصعد جسر "يلدز".. أنا نزيل فندق كونراد هذه المرَّة.. اليوم قررت أنْ أستمتع باستراحة المحارب بعد لجاجة رحلة طرابزون.. لن أخرج من الفندق إلاَّ لحاجة المسافر.

ما ألذَّ العودة يا إسطنبول.. أغمضت عيني واقفًا أمام الشرفة المطلَّة على كامل إسطنبول من فندق الكونراد، هززت رأسي كمن يحاول أنْ يستوعب كون ما رآه حقيقةً لا حُلْما.. وفتحتها مرَّةً أخرى.. كان المنظر أشبه بالسحر.. إنَّها إسطنبول بشقيها الأوروبي القديم والجديد.. وبشقها الآسيوي، ببسفورها، وقصورها، ومآذنها التي تشير للسماء.. ما أجمل أنْ تكتشف البحر من أعلى تلَّة "يلدز".. لم أكن أعلم أنَّ خلفي مباشرةً قصر صاحبي السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٥٨- ١٢٩٣- ١٣٧٢- ١٣٣٦هـ)[٢٩] الذي كنت أبحث عنه حتى وصلت إليه مصادفةً.. لأكتشف أنَّني صليت جمعتي الثانية في مسجده الواقع أعلى شارع الفندق.

سأعود للخلف قليلاً، بعد أنْ صعدنا الجسر.. ظهر في الأفق الفندق الذي لم يكن يقع على الشارع العام مباشرةً.. بل كان يقع على شارع خلفي.. ولكن مبناه يكشف المدينة كلَّها، دخلنا إلى بهوه الذهبي.. كان من الفخامة والرقي أنْ يشعرك بالزهو لكونك ستسكن في حيزه، فالبهو الذهبي ملتف على نافورة ماء كأنَّها معلَّقة بالسلَّم الحلزوني القائم حولها، والمؤدِّي إلى الطابق الأول، الاستقبال يقع خلف النافورة تقريبًا.

حينما وقفت بقرب الاستقبال.. تعرَّفت على السيد/ حسن البواب، مسؤول شركة المرجان السياحية، والذي خدمني، والسيدة/ أم حسين، في بعض رحلاتي خدمات جليلة، فعن طريقهم نسقت زيارات

اليوم الأول، وعن طريقهم نسَّقت لرحلة بورصة، وقد كانت خدماتهم التي يقدمونها ممتازة تستحق الثناء.

أنهيت إجراءات نزولي إلى الغرفة، وصعدت إليها، دخلتها.. كان المنظر رائعًا، لوحة فنية تلك التي أغمضت عيني لأتأكَّد من وجودها، اتجهت إلى الشباك الذي كان على كامل الواجهة، وقفت.. طال بي الوقوف.. لا أعلم كم لحظة مرَّت لأستطيع بعدها أنْ أنزع نفسي انتزاعًا من الشرفة إلى داخل الغرفة.. وكم لحظة مرَّت وأنا مستلقٍ على السرير أحاول النوم فينازعني المنظر.. وكم دقيقة مرت حتى صحوت من نومي مرة أخرى لأعود للمنظر، ولأنزل بعدها لاكتشاف المنطقة المحيطة.

يتفرَّع من شارع طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي جسر صاعد يفصل بينه وبين شارع تْشِيران، اسم الجسر "إسكي يلدز" ويؤدِّي إلى طريق كبير.. اسمه على اسم الحديقة المقابلة له: "بربروس بلف" والمسمَّاة على القائد البحري خير الدين بربروسا(٣٠) تتفرَّع منه سكَّة "محمد علي باي" المؤدية إلى شارع "يلدز" الذي يقع في وسطه الفندق، وفي آخره القصر والمسجد.

طريق "بربروسا" تجاري وسريع، يفصل بينه وبين شارع "يلدز" مبانٍ، أوَّلها المسجد الوحيد في إسطنبول الذي ليس له قبَّة، وهو الواقع على المفترق بين الطريق وسكة محمد علي، ثمَّ قصران مهجوران.. كانا من أملاك أفراد من الأسرة العثمانية وما يزالان مهجورين منذ أنْ طرد

أصحابهما.. منظرهما يجرح العين بين منظومة الجمال، وحديقة عامة بها ألعاب للأطفال، وألعاب للتمارين الرياضية وألعاب القوى، يستخدمها كبار السن كما رأيت.

حينما حلَّ المساء نزلت مع أسرتي إلى طريق بربروسا، واتجهت فيه نزولاً إلى سوبر ماركت قريب، ثمَّ نزلت أكثر إلى المطاعم الواقعة أسفل الشارع لأشتري عشاءنا وأعود إلى الفندق مرَّة أخرى.. فأنظِّم رحلتي ليوم الغد.. إلى منطقة سلطان أحمد وما حولها.. وأستعدَّ لهذا اليوم الذي سيكون يومي الأوَّل فِعليًّا في إسطنبول.. ما ألذَّ العودة يا إسطنبول.

---

٢٩) السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد (١٢٥٨- ١٢٩٣- ١٣٧٢- ١٣٣٦هـ) الموافق (١٨٤٢- ١٨٧٦- ١٩٠٩- ١٩١٨م)، هو السلطان العثماني الرابع والثلاثون، والخليفة السادس والعشرون،جلس على تخت الحكم بعد عزل أخيه مراد الخامس الذي أصيب بالخرف المبكر، واجه الكثير من التحدِّيات السياسية، واستمال المناوئين السياسيين له، واستقدمهم، هو صاحب فكرة الجامعة الإسلامية، والتي سعى فيها الإمام جمال الدين الأفغاني بين الملوك الإسلاميين، إلاَّ أنَّ الأوروبيين لَّما اكتشفوا ذلك عملوا على عزله، ونجح مخططهم، كان قد بدأ بتسديد الكثير من ديون الدولة التي حمَّلها إيَّاها والده، وفي عهده عرض هرتزل بيع فلسطين لليهود مقابل تسديد ديون الدولة.. ودعم اقتصادها، إلاَّ أنَّه رفض، وقال مقولته: "فتحها عمر.. وحرَّرها صلاح.. فلن يبيعها عبد الحميد، يا هرتزل.. لِمَ تشتريها بكل هذه الأموال وأنْت غدا تستطيع أنْ تأخذها مجانًا"، كان عبد الحميد الثاني هو الصحوة التي كادت أنْ تعيد للدولة مجدها وازدهارها، لذا سُمِّي عهده عند الأوروبيين بصحوة الرجل المريض، إلاَّ أنَّ الزمن لم يسعفه في ذلك.

٣٠) حديقة خير الدين.. والقائد خير الدين بربروسا: سيأتي الحديث عنهما لاحقا في اليوم السادس، تحت عنوان: "حديقة خير الدين".

اليوم الأول: هنا كانوا.. ولا يزالون

أقف الآن في الساحة جنوب مسجد سلطان أحمد.. (أو سلطان أحميت)[٣١] كما يسمونه هنا، أقف على أوَّل نقطة حملت أوَّل صخرة في بناء المدينة البيزنطية القديمة.. القسطنطينية، وفي نفس الوقت هي آخر نقطة حُمِلَ عَنْهَا آخِرُ حَجَرٍ مِنْ بيزنطا القديمة إلى المبنى الشمالي المقابل لها، إنَّها ساحة الهيبودروم الروماني[٣٢].. المعبد.. المضمار.. ساحة اقتتال العبيد (الجلادييتر)، وساحة الإعدام بالأسود، والمتحف الذي يروي الانتصارات.

وقفت مع مرشدي علي شاهين.. أو (علي يا إلهي)[٣٣] كما يحب أنْ يُسمِّي نفسه، هو رجل تركي.. يتكلم العربية.. تعلمها في سوريا، اختار نداء "يا إلهي" ليلم شتات الفريق السياحي المرافق له في جولاته، وهو يُعرِّف نفسه بهذا اللقب، وقف هو على هذا المكان.. وبدأ بشرحه.. كان يشرح وكانت تمر خلال كلامه الأسماء.. والأشخاص أمام عيني.. قمة النصر.. وقمة الانكسار.. حُرقة الهزيمة تختلط مع نشوة الفتح.. عظمة التفكير.. ومرارة التكفير عن الذنوب.. لقد كان جميلاً كلامُهُ.. أمْ أنَّ

المكان يعبق بالجمال ذاتيًا؟! لست أدري! ولكن كانت لكلامه نكهة خاصة وهو يسقي جمهوره مداد الكلمات.. لقد سجَّل.. بل حفر في ذاكرتي صورته.. صوته.. وتعابيره.

كان الهيبودروم هنا المبنى الأضخم على مستوى العالم، فهو يحمل (٩٨٠٠٠) متفرج، وقد ألحق به متحف ضخم للتحف الثمينة التي تُحمل من كل بلد انتصر عليه الرومان دليلاً على التبعية، ذلك عدا أنَّه يحوي تماثيل لآلهة الرومان الوثنية، لقد قرر قسطنطين الأول (٢٧٢-٣٠٧- ٣٣٧م)[٣٤]، حين خطط هذه المدينة أنْ يجمع فيها الديانات والمذاهب الرومانية جميعًا بتناغم، وكانت الديانة المسيحية (بمذاهبها المختلفة) ديانة شعبية لم تصبح بعد ديانة الحكم، إلا أنَّ أغلب الشعب يدين بها، وحين أُسِّسَت المدينة، بُعَيْدَ مجمع نيقيا المسكوني كان هذا الهيبودروم أحد معالمها، وكان قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية - التي كانت ملاحقة قبل ذلك- وأنَّها ديانة رسمية في الإمبراطورية، ومات هو على وثنيته، وعُمِّدَ مسيحيًا بعد وفاته.

وبعد مضي السنين ولكون هذا المعبد مبنىً وَثَنِيًّا والدوْلة التي تقوم حوله مسيحية، تأكَّدت مسيحيتها تم تفكيك أحجار هذا البناء الضخم لاستخدامها في بناء الكنائس في مدينة القسطنطينية، وبدأ تدمير ما له علاقة بالوثنية في هذا المكان، إذ بدأت الحرب من الدين الجديد (المسيحية) على الدين القديم (الوثنية الرومانية) تمامًا كما كانت الحرب

من الدين القديم على الدين الجديد خلال أكثر من ثلاثمائة سنة، ويستطيع الواقف في ساحة الهيبودروم اليوم تلمُّس آثار هذه الحرب في الأجزاء الباقية منه، وأعني المسلة الرومانية.

المسلتان وذو الأفاعي

لم يبق من الهيبودروم - ذلك البناء الضخم.. بتماثيله.. وآثاره.. وتحفه.. وأحجاره إلاَّ نصب تذكاري ومسلتان، تقفان في وسط ساحته: الأولى مصرية.. والثانية صنعها المحليون وأعني بالمحليين الرومان (وهي الأثر المدلِّل على الحرب الدينية الذي أعنيه).

أمَّا فيما يخص المسلة الأولى.. المصرية "الأوبيليسك"، فقد جُلبَت من مصر القديمة، قرابة (٣٩٠ م) من أمام معبد آمون[٣٥]، أو من أمام أحد المعابد في هيروبوليس بمصر السفلى، لتخليد ذكرى الفرعون تُحتْمس الثالث، أمَّا بناؤها فيعود إلى (١٥٠٠ق.م.)[٣٦].

وفيما بين عامي (٣٣٧- ٣٦١م)، أرسل قسطنطين الثاني، ثاني أباطرة الروم في القسطنطينية إلى أهل الإسكندرية كتابًا يطلب فيه أنْ يرسلوا له المسلَّة، ولكن تأخر ذلك إلى قرابة (٣٩٠م) إذ وصلت في عهد ثيودوسيوس الأوَّل (٣٧٩- ٣٩٥)[٣٧]، وظلت مطروحة على الأرض خارج المدينة حتى أعاد الإمبراطور بناء المدينة[٣٨] فحملها إلى ميناء

بورتوسنوفوس ونُقلت إلى مضمار الهيبودروم "أط ميدان" بعد أنْ شُقَّ لها طريق خاص لذلك، واستمر نقلها ثلاثة أيام، كما استمر رفعها على الأرجل البرونزية والقاعدة قرابة الشهر، حيث وضعت على قاعدة مكعبة مساحتها (٢,٢٠م) وقد كان ارتفاعها إذ ذاك أكثر من (٢٠م).

يتكون عامود المسلَّة من الجرانيت، ويبلغ وزنه (٣٠٠ طن) واحتاج نصبه إلى قرابة (١٠٠٠) رجل، وقد نقشت عليها بالهيروغليفية قصص عن انتصارات رمسيس الثاني، وتحتمس الثالث، وآمون راع، والذي تذكر المسلة أنَّه هو من بناها لأجل أبيه المقدَّس راع.

في العام (٩١٦م) أي في عهد قسطنطين السابع (٩١١-٩٥٩م)[٣٩] تم بناء المسلة الأخرى المحلية، (ولو أنَّ بعض المصادر ترجعه لأقدم من ذلك، وتنسب إلى قسطنطين السابع ترميمَها فقط، إذ تروي الكتابات التي على قاعدتها الرخامية أنَّها تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وأنَّها تعرَّضت للتخريب، وأنَّ قسطنطين وابنه رومانوس الثاني (٩٥٩- ٩٦٣)[٤٠] جمَّلاها ورمماها لتحاكي تلك التحف بجزيرة رودوس)، وكان قسطنطين السابع قد جمَّلها ورممها وزيَّنها بسبائك ومنحوتات من الذهب تروي قصص انتصارات والده باسيليوس الأوَّل (٨٦٧- ٨٨٦م)[٤١].

يبلغ ارتفاع هذا العامود (٣٢م) وهو مبني من الطوب، وكان مغطى بأيقونات ومنحوتات تمثل انتصارات باسيليوس الأول، وكان مغطى بصفائح البلاتين، التي انتزعها الصليبيون والبنادقة في عام (٦٠١هـ)، (١٢٠٤م) خلال الحملة الصليبية الرابعة[٤٢]، التي كانت بقيادة الدوق "إنريكوس دندالو البندقي"[٤٣] المدفون حاليا في الطابق الثاني من أيا صوفيا، الذي قرر أنَّ الوصول إلى القدس يجب أنْ يكون باستعادته لميناء زارا من الإمبراطورية البيزنطية، ثمَّ قرر احتلال القسطنطينية، فلما دخلها أعجب بها، فأعلن تبعيتها للبندقية، وأطلق يد من معه من الصليبيين فيها، فسرق ذهبها، وانتزع الصفائح من على المسلة، وسرق كذلك الذهب من كنيسة أيا صوفيا.

وأثناء بناء جامع السلطان أحمد طُمِرَ الجزء السفلي من المسلة والقاعدة ذات الدرجات الثلاث نتيجةً لارتفاع منسوب الأرض بسبب الدفن، حتى جاء تْشِارليز نيوتن[٤٤] في (١٢٧٢هـ)، (١٨٥٦م) وأعاد حفر المساحة حولها وسيِّجت بسور حديدي حتى لا تُطْمَر مرة أخرى.

بين المسلتين يقف عامود "ذو الأفاعي"، وهو عبارة عن عمود لولبي الشكل، ملفوف على نفسه كلفة الحبل، ويقال إنَّه في القديم كان له ثلاث رؤوس لأفاعٍ تنظر كل منها إلى جهة عكس الأخرى، وعلى رأسهن قدر ذهبية بثلاث أرجل، ولكن كل هذا لم يعد موجودًا، وقد كان ارتفاع هذا العمود قرابة التسعة أمتار، ومكون من ٢٩ جَدْلَةٍ،

ويعود تاريخ صناعته إلى بُعَيْدَ (٤٨٠ ق.م.)، على يد ملوك الممالك اليونانية في ذلك الوقت إثر انتصارهم في "سلسلة الحروب المدية".

تبدأ قصة هذا العمود حينما قرر كسرى الفرس دارا الأول (٥٢١- ٤٨٦ ق.م.) [٤٥] معاقبة الإغريق والأثينيين والأسبارطيين، الذين ألَّبوا عليه الإِثنيين في أوروبة الشرقية، فتحرك بجيش ضخم، واجتاز به الأرض حتى نزل شمالي أثينا، وكانت ممالك أثينا المتحاربة فيما بينها إذا نزل بها عدو خارجي تتحد لدحره، إلاَّ أنَّها هذه المرة لم تفعل، وواجهه الأثينيون لوحدهم، إذ خذلهم الإسبارطيون، وانتصر الأثينيون بالحيلة، وقُتِلَ من الجيش الفارسي (٦٤٠٠) عدا (٧) سفن، وخسر الأثينيون (١٩٢) جنديًا من بينهم "ألبوليمارخوس كاليماخوس" قائدهم الذي دخل المعركة بـ(١١٠٠٠) مقاتل، إلاَّ أنَّ قائد المتطوعين "ملتيادس" استطاع أنْ يتم خطة "كاليماخوس"، وبعد مناورات قبالة أثينا انسحب الفرس إلى الأناضول، وسجِّل ذلك خسارة عليهم.

ثم وبعد موت دارا الكبير، ووصول ابنه خَشَايَارْشَاه الأول (٤٨٥- ٤٦٥ق.م.)[٤٦] إلى السلطة وقراره الانتقام لوالده، وتحركه لذلك بأكثر من (١٥٠٠٠٠) جندي، وانتصاراته ثمَّ خسائره، وانسحابه وانتصار "تمستوكلس الثالث"(٥٢٥- ٤٦٠ق.م.)[٤٧] قام الملوك اليونانيون المشاركون في المعركة بصهر كل غنائم الجيش الفارسي، وتكوين هذا التمثال، وجعلوا له ثلاث رؤوس لأفاعٍ كناية عن كون هذا

التمثال طاردًا للدساسين، والخونة، والأعداء، والقدر الذهبية كناية عن نصرة "أبولو" لهم، وأهدوه إلى معبد الآلهة "أبولو" لأَنَّ رهبان دلفي (سدنة أبولو) هم من أشار عليهم بجملة رباعية فسرها أهل أثينا بالفرار، وفسرها تمستوكلس بالقتال البحري، وكان "بوسنياس" ملك أسبارطة قد قرر كتابة أمجاد الإسبرطيين الثلاثمائة على العامود، إلاَّ أنَّ ملوك اليونان الباقين قرروا أنْ تكتب أسماء من شارك منهم في المعركة، ولا أدري إنْ كانت هي بقايا الكتابات المنحوتة على العامود.. أم لا؟.

وبعد قرابة (٦٠٠) سنة من المعركة، ولما بنى الإمبراطور قسطنطين الأول (٢٢٧- ٣٢٤) المدينة، وبدأ بجلب التحف الأثرية إليها، كان من بين التحف هذا العمود، الذي حُمل من أمام معبد أبولو في دلفي إلى هنا، وفي الطريق سُرِقَتِ القدْرُ الذَّهبية، وحتى عام (٨٧٦م) كانت رؤوس الأفاعي موجودة، إلاَّ أَنَّها سُرِقَتْ، وكان آخرها في القرن السادس عشر، أثناء حكم السلطان سليمان القانوني (٩٠٠- ٩٢٦- ٩٧٤هـ)[٤٨]، وقد كسره أحد الينيشارية[٤٩]، ويذكر المؤرخون أنَّ رؤوس الأفاعي هذه كانت هدفًا للرُّماة، قبل نزعها، وفي الترميمات الأخيرة أيام العثمانيين لآيا صوفيا وجد رأس إحدى الأفاعي، وهو الموجود اليوم في متحف إسطنبول للآثار، أمَّا عن الرأس الثالث فقد اكتشف وجوده (صدفة!!) عام (١٤٠٢هـ)، (١٩٨٢م) في المتحف البريطاني، ولا يعلم عن كيفية وصوله.

لقد رأيت كلَّ أولئك يمرون أمامي.. صراعاتهم، وأحلافهم، قواتهم.. وجنودهم، وانكساراتهم، كان كلام "المرشد/ علي" عذبًا.. ولكنه كان قصيرًا بالنسبة لاختزال قرابة الثلاث آلاف عام، توقف هو عن الكلام.. إلاَّ أَنَّ جَلَبَةَ أولئك القادمين من عمق التاريخ لم تتوقف.. بدأت أتحرك في بقايا المضمار.. أتابع هذا.. وأرى ذلك.. ألمس أغاممنون الثالث وهو يحاول نقش تاريخه على العامود واصطراعه مع البقية لذلك.. وأرى الجندي الذي رَكَضَ قرابة (٤٢) كم، ليقول للناس: "لقد انتصرنا"، ثم يموت، فيخلِّد التاريخ عمله بالماراثون، إلاَّ أنَّه لا يُعْرَفُ أكان اسمه.. أم اسم السهل الذي حدثت فيه المعركة، وأقف أمام قسطنطين الكبير لأسأله.. ماذا كان يعتقد في عقيدته حينما حمل "ذو الأفاعي" إلى هنا.. هل كان يجمِّل الساحة فعلاً؟ أم كان يحملُ جُزءًا من أبولو إلى مدينته المسيحية/الوثنية الجديدة.. لم تكن مدينته الجديدة تلك مدينة مسيحية بحتة.. بل كانت تحمل في كلِّ ثناياها وَثَنِيَّةَ مُؤسسها وشعبه.. والدليل على ذلك - إذا سُئلتُ- أنَّ مَنْ خَلَفَه.. وإلى عهود متأخِّرَة بَقِيَ يُزِيْلُ بَقَايَا الآثار الوثنية التي جلبها هو.. حتى حينِ بناء مسجد السلطان أحمد.. الذي أراه من هنا شامخًا.. يدعوني كما يدعو الجميع مرحبًا لدخول ساحته.. تلك التي تسكب في عينك تاريخًا من الرهبة.. والحب.. والإجلال.. لهذا السلطان الشاب الذي صيغت عليه الحكايا.. ها أنا أسمع نداء مرشدي: "يا إلهي"، أصبح من واجبي أنْ أتجه إليه

ليدخلني هو إلى "سَلْتَانْ إِهْمِيْت" كَما كان يُدخل الصدرُ الأعظمُ[٥٠] الضيوف على فخامته.

في حضرة السلطان أحمد

تحت تلك البوابة العالية.. وبعد أنْ قطعت الشارع الصغير الفاصل بين الهيبودروم وبينه.. وقفت متململاً.. هل أدخل؟ وأنا تحدوني إلى هذا الجامع العظيم حالة المشتاق؟ أم أقف ولا أجسر.. وأظلُّ أحمل في صدري حُلْم سنينَ أنَا على بعد خطوات من تحققه؟

تبدو بوابة صحن الجامع - الدَّاعية لي منذ قليل بالترحيب لأدخلَ- مَهِيْبَةً الآن.. تبدو.. ببابها الخشبي المعشَّق المزخرف أناشيد حضرة ما تفتأ تتغنَّى بماضٍ مجيد، وبشخص شابٍّ يحمل في قلبه إيمانًا.. وحبًّا للإسلام تلمسه على كلِّ جدار في هذه التحفة.

يُسمى هذا المسجد في الأدبيات الأجنبية بالمسجد الأزرق، وقد خُلع عليه هذا الاسم - كما أخبرني مرشدي- من قبل كاتب إيطالي، زاره.. وشاهد قطع البورسلان الصيني الزرقاء التي تزينه من الداخل، فسماه بذلك في مقال يعد في المراجع الأجنبية مصدر معلوماتهم عن هذا المسجد.

لَّما قرر السلطان بناء المسجد.. اقترح الوزراء عليه أنْ يكمل مسجد جدَّته السلطانة صفية الواقع في منطقة "إيْمِيْنونو"(٥١)، والذي مات عنه معمار داود آغا فتوقف البناء فيه، ثم استكمله معمار فكري.. وتوقف لموت السلطانة.. إلاَّ أنَّه رفض.. فهو يريد أنْ يبني مسجدًا باسمه، ووقع اختياره على منطقة في وسط الأحياء.. تسمى قصر رستم باشا.. إلاَّ أنَّ عملية الاستملاك في تلك المنطقة من العامة ستكون كبيرة.. وستتسبب في إزالة الكثير من المنازل، ولكنَّه كما يبدو وقع اختياره على منطقة مضمار الخيل من الهيبودروم "آط ميدان" إذ أنَّ معظم البيوت فيها مملوكة للدولة.. وبنيت بشكل غير رسمي، وفعلا.. وضع المعمار محمد صدفكرا المخطط.. وبدأ بتخطيط الأرض.. واشتهر ذلك في أنحاء العالم كلِّه، وزاد من شهرته بناء المئذنة السابعة في مكَّة.

هذا هو المسجد.. وأقف مشدوهًا.. تدور بي الأرض وأنا في الساحة وكأنَّني أرى السلطان أحمد في الحفل الذي أقامه هنا قبل (٤٠٠ سنة) يمسك بمعوله الفضي الخالص.. ويقف.. ليضرب ضربته الأولى في هذا المكان.. بعد أنْ خطَّ محمد آغا صدفكرا "محمد آغا الصدَّاف" تلميذ معمار سنان آغا، مكان المسجد.. إنَّني أراه هو.. ووزراؤه.. وقادته.. وأشهر معماريي الدولة من تلامذة معمار سنان يعملون مع العمال في وضع أساسات المسجد.. لقد عمل السلطان يومه كلَّه تقريبًا..

لقد استغرق بناء المسجد قرابة السبع سنوات.. ذلك أنَّه لَّما بدأت قواعد المآذن الست تبين للناظرين زار السلطان أحمد المكان.. وسأل معمار محمد صدفكرا عن القواعد، فقال له أنَّه يريد أنْ يكون مسجد السلطان أحمد هو الأعظم على وجه الأرض.. فأوقف السلطان أعمال البناء.. وأمره أنْ يحمل من معه من البنَّائين.. ويذهبوا إلى مكَّة.. ويبنوا مئذنة هي السابعة للحرم المكي.. ثم يعودوا ليكملوا البناء.. وهذا أخَّر البناء عامين كاملين، وكما نُقش على أحد أبواب المسجد، فإنَّ البناء حصل بين العامين (١٠١٧هـ- ١٠٢٤هـ)(١٦٠٩- ١٦١٦م).. وتسببت المئذنة التي زيدت في الحرم المكي في بناء الحرم المعروف اليوم بالمبنى العثماني هدية من السلطان أحمد.. الذي أهدى الكعبة أيضًا الميزاب الذهبي الأول.. ووضع لكسوة الكعبة الحلقات المذهبة، ورمم المبنى القائم المكون من (٢٦٠) قبة.. ليعود صدفكرا لاستكمال المسجد العظيم، الذي لم يعش السلطان أحمد بعد افتتاحه إلاَّ مدة بسيطة يحددها البعض بثلاثة أسابيع.. وآخرون بعام، حسب اختلاف المصادر.

يعتبر هذا المسجد أوَّل مسجد بعد الحرمين يحمل ست مآذن، وترمز هذه المآذن كما يروي مرشدي إلى عثمان المؤسس[٥٢] بالمئذنتين اللتين في بداية المسجد.. حيث الساحة.. إذ أنَّ عثمان هو الذي أسس الساحة الأولى للدولة، ثم ترمز الأخريان للسلطان محمد الفاتح.. وهو

الذي فتح القسطنطينية.. وأسس الجسد القائم للدولة.. ثم ترمز الأخيرتين إلى السلطان أحمد.. الذي عمَّر الدَّولة لتبقى ما بقي المسجد.

حجم ساحة المسجد (٣٨×٦٤م)، يحيط بها السور من ثلاث جهات، ويقوم مبنى المسجد في جهة القبلة من الساحة، وفي كل جهة باب، ولقاعة الصلاة ثلاثة أبواب أيضًا، واحد من الساحة.. وبابان من خارج المسجد، وتحمل الأبواب بديع الصنعة الذي يبهر الناظر.. إذ صممها ونفذها المعمار زكي شلبي، وقد جيء برخام أرضية المسجد والساحة من الهيبودروم "أط ميدان" المقابل للمسجد، وهو أصلا من جزيرة مرمرة، والأعمدة التي تحمل رواق الساحة يلاحظ اختلافها.. إذ أنَّها أيضًا حُملت من بقايا الهيبودروم.. وهي في الأصل من معابد ومناطق مختلفة ويرى الواقف في الساحة أنَّ في الأروقة أبوابًا صغيرة.. خلف كلِّ باب غرفة صغيرة.. كانت في السابق مقارَّ إقامة المجاورين والدراويش.. وخلوات للصوفية في المسجد للتأمُّل والتفكُّر، ويوجد في قلب الساحة.. كما هو الحال في المساجد كلِّها ميضأة وهي مبنى سداسي الشكل، مظلل في قلبه بركة أو خزان ماء أو نافورة، وعلى أطرافه مقاعد يجلس عليها المتوضِّئون.

للمسجد أربعون قبَّة تقريبًا، من الرصاص والنحاس.. منها ثلاثون قبة نحاسية على الرواق المحيط بالساحة، القبة الرئيسة من الرصاص، وزنها (١٠٠٠) طن، وارتفاعها (٤٤) مترًا، وقطرها (٢٣,٥م)، مرفوعة

على (٤) أعمدة، قطر الواحد من هذه الأعمدة (٦,٥) أمتار وتسمَّى بأرجل الفيل، وتحيط بالقبة الرئيسة أربع أنصاف قباب، وقد جُمِّل المسجد بـ(٢١٠٤٣) قطعة من البورسلان الصيني مزيَّنة باللون التركـواز[٥٣].. والأخضر.. والأزرق.. والمرجاني، على أكثر من (٥٠) شكل مكرر، قام بصبها وصناعتها ورصفها المعلم الكبير حسين الخزاف، الذي قام بصب البلاطات المزينة لطوبقابي سراي، ولا تزال هذه البلاطات هِيَ هي في أماكنها وبنضارتها وبهائها رغم مرور الزمن، وقد زُيِّن المسجد بآيات قرآنية بخطوط الثلث والنسخ والتعليق خطَّها الخطاط العثماني أحمد كيباري، ونقوش إسلامية تعكس ما امتاز به العثمانيون من إتقان.

يستوعب المسجد بساحاته قرابة الـ(٥٠٠٠٠) مُصَلٍّ، إذ تبلغ مساحته بالساحة (١١٠×٦٤م)، تشكلَّ قاعة الصلاة منها (٧٢×٦٤م) تضاء في النهار من خلال (٢٦٠) شرفة موزعة على قباب السقف وجدران المسجد بطريقة هندسية دقيقة حتى تضيء المسجد كله، للمسجد - كما للجوامع العثمانية الأخرى- رواق داخلي.. وله محراب ضخم لا يحتاج إلى جهد ليحكي عن ضخامة وفخامة المسجد، نُقشت على رأسه جزء الآية المنقوش على كلِّ محراب في تركيَة تقريبًا: ﴿...كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ...﴾[آل عمران: ٣٧]، كما ينتصب بقربه المنبر الذهبي المزخرف، والمزيَّن بالآيات الكريمة، وقد علِّقت في السقف

المشدودات الكبرى التي تحمل اسم الجلالة الله، واسم النبي، ثم الخلفاء الأربعة، فالحسن والحسين، بخط الثلث الجميل، وعلى يمين مستقبل المحراب ترتفع المُكبِّرية، أو دكَّة المؤذنين، والتي يجلس عليها المؤذنون والمنشدون، لرفع الأذان، وقراءة القرآن والقصائد الدينية في المناسبات، وحين تصبح في حضن المحراب ترى على يدك اليسرى الطابق الثاني المرتفع وهو مقصورة السلطان للصلاة، وقد أقيم بهذه الطريقة كما هي الحال في كل المساجد السلجوقية والعثمانية لحماية السلطان من محاولات الاغتيال، وله مدخل خاص من خارج المسجد.

من الجهة الشمالية للمسجد تقريبًا (في الجهة المواجهة لأيا صوفيا) ولصيقًا بمبنى المسجد يقوم مبنى المختصر السلطاني، أو السراي الصغير، وهو مبنى متصل بالمقصورة السلطانية لإراحة السلطان وأسرته، يتكون في العادة من قاعة جلوس وغرفتين وبعض المرافق الأخرى، وقد كان يخص السلطان أحمد وأسرته.

تذكر المصادر أنَّ المسجد بني على طراز الحي التركي[٥٤]، ولكن معظم مرافقه إمَّا أزيلت بعد حريق إسحاق باشا[٥٥] كالمنازل الموقوفة، أو ضمَّت إلى مبانٍ إدارية كالمدرسة والمكتبة ودار الشفاء التي ضمت إلى جامعة مرمرة.

لا يزال السلطان أحمد الأول متمثِّلا مرتين في هذا المسجد رغم مرور الزمن واضمحلال الرجل، فهو واقف في اسم المسجد ببديع صنعته، وجودة بنائه، وراقد في المبنى المجاور للمسجد من جهة الحديقة الفاصلة بينه وبين مسجد أيا صوفيا.

إنَّ منظر المسجد آسر في الليل.. وعند المغيب تكون منطقة فاتح كلِّها عبارة عن مآذن تشير إلى السماء.. فمآذن سلطان أحمد الست.. وأربع أيا صوفيا.. وأربع سليمانية.. ومئذنتي ييني جامع، تخلق منظرًا آسرًا لدى المغيب من عرض بحر البوسفور، هذا المنظر المميز لإسطنبول هو ما لا يراه الكثيرون.. وهو الذي يشعرك بالحسرة إذا رأيته لكونك لم تره سابقًا.. ولن تراه لاحقًا إلا إذا حالفك الحظ مرة أخرى.

قصص حول المسجد

روى لي مرشدي أنَّ نادر شاه الأفشاري[٥٦] شاه الدولة الصفوية والوصي على عرش عباس الثالث الصغير لَّما علم ببناء المسجد أرسل بصندوق مليء بالمجوهرات إلى السلطان أحمد ليساهم في بناء المسجد.. فقال له السلطان بدلا من إرسال الصندوق قم ببناء مسجد في بلدك بهذا الحجم، وقام بطحن المجوهرات وأمر محمد صدفكرا بعجنها في تربة المآذن، وهذا غير صحيح، إذ أنَّ نادر شاه تولَّى الوصاية على العرش الصفوي ثم السلطنة فيما بعد (١١٥١هـ)، (١٧٣٩م) أي بعد وفاة

السلطان أحمد بقرابة المائة عام أو يزيد.. ولكن من المعروف أنَّ لنادر شاه علاقات طيبة جدًا مع العثمانيين، وقد اشترك معهم في عدة حروب ضد دول أوروبة وقد يكون أرسل هذا الصندوق لخليفة آخر غير السلطان أحمد، فهو قد عاصر السلطان محمود الأوَّل (١١٤٣- ١١٠٧- ١١٦٧- ١١٦٨هـ)[٥٧].

وقصَّة أخرى.. إذ تقول بعض الأساطير أنَّ السلطان أحمد طلب من معمار محمد أنْ يبني مسجدًا بمئذنة من ذهب، وكلمة ذهبي بالتركية هي (آلتن)، ولصعوبة ذلك احتال عليها المعمار وحوَّرها إلى (آلتيه) وتعني الرقم ستَّة وبنا ست منائر، وهذه المعلومة التي ينقلها كثير من المرشدين السياحيين الذين يحبون التهويل.. والاختلاق غير صحيحة، ونفاها لي أيضًا مرشدي علي، ذلك لصعوبة توفر كمية الذهب أولاً.. ولصعوبة بناء مئذنة من الذهب ثانيًا، ولتقوى وورع السلطان أحمد ثالثًا وتقديره لما سيفعله ذلك بخزينة الدولة، ثم لو كان ذلك صحيحًا لاستخدم الذهب في تزيين وتطعيم المسجد.. وهذا لم يحدث، إنَّما التصقت هذه الخرافة بالمسجد لكون المسجد له ست مآذن.. ويسمى بمسجد المآذن الست.. ومع الترجمة اعتقد البعض أنَّ اسمه مسجد المآذن الذهبية.

ومما يروونه أنَّ السلطان لما جاء موعد الافتتاح الرئيس للمسجد، وكان يوم جمعة، دخل فوجد المعمار محمد صدفكرا يجلس مع مجموعة

من البنائين في وسط المسجد يشعلون "نرجيلاتهم" وينفثون أدخنتها، مما أغضب السلطان، فاستمهله المعمار ليريه نظام تصريف الهواء الذي ابْتُكِرَ في المسجد!! وهذه القصَّة غير صحيحة، فالنظام غير مستحدث.. وإذا كان.. فهناك ألف طريقة وطريقة تحفظ للمسجد هيبته دون هذه.. ثمَّ إنَّ السلاطين كانوا يدخنون النرجيلة.. وفي طوبقابي نرجيلات للسلاطين تعود إحداها للسلطان أحمد، وهي موضع خلاف في تلك الأيام بين الإباحة والحرمة.

حسرة

إنَّ الحسرة التي انتابتني وأنا أغادر المسجد من البوابة الشرقية لقاعة الصلاة، بعد أنْ دخلت من البوابة الغربية.. . تبددت.. أو ذُهلت عنها حينما خلبني منظر جامع أيا صوفيا الشامخ بين زهر وأشجار الحديقة الفاصلة بين المسجدين.. لقد كنت أمشي منجذبًا إليها دون وعي مني أو حس.. وكأنَّها تدعوني باسمي، وكأنَّني المشوق الغائب عن داره.. وجدها بعد طول غياب.. وبعد صعوبةِ البحث وضناه جرَّاء تغيُّر معالم المدينة.. وهي هي.. لم تتغيَّر ولم تتبدَّل.. وكأنِّي كنت رأيتها من قبل.. لمستها بقلبي قبل يدي.. تلكم الكنيسة.. المسجد.. المتحف، سمِّها ما شئت، فهي لا تزال كنيسة.. ومسجدًا.. ومُتحفًا.

مسجد الحكمة المقدَّسة

حملتني قَدَمِي إلى حيث تتجه عَيْنِيْ.. خطوةً خطوتين أو ثلاثًا.. أو ربما عشر.. لا أدري لقد ضاعت مني الخطوة.. المكان آسر.. تتداعى الجماليات الآسرة فيه حتى تكاد تلجمك إلجامًا، توقفت قليلاً تخلبني الحديقة الغنَّاء القائمة بين المسجدين.. ورائي السلطان أحمد بهيلمانه وعظمته، وأمامي الفاتح العظيم برمزه وسطوته.. أو أيا صوفيا.. ذلك المبنى الذي يقف هاهنا منذ قرابة (١٤٧٠) عامًا، إنَّ عمره قريب من عمق عمر المدينة.

منذ (١٦٨٠) عاما تقريبًا، أي في العام (٣٣٠م) حينما أسس قسطنطين الأول المدينة، بَدَأ ببناء كنيسة انتهت عام (٣٦٠) أي في عهد خلفه "قسطنطينوس"، ولا تزال آثار أحافيرها موجودة أمام أيا صوفيا، وأسماها ميغالي أكليسيا "الكنيسة الكبيرة" وخلق قسطنطين الكبير شخصية مريم العذراء في الكنيسة تماشيًا مع دور الآلهة أرتميس كبرى الآلهات في ديانة الباكانيزم "الديانة الوثنية القديمة للرومان" ليستميل قلوب الوثنين إلى الديانة الجديدة، ووضع صورتها مع المسيح والروح القدس كما هو الوضع اليوم، ولكن ثورةً قام بها الوثنيون بتحريض من زوجة الإمبراطور أركاديوس (٣٧٧- ٤٠٨م)[٥٨]، على المعالم المسيحية والديانة الجديدة، أدَّت إلى تدمير كلِّ الكنائس.. وحرق معظمها، ولكون

الكنيسة القائمة مسقوفة بالخشب كان إزالتها سهلاً عليهم، ويقال إنَّ سبب الثورة كان تفشِّي أخبار عن إرغام الشعب على اعتناق المسيحية التي أصبحت الدين الوحيد الرسمي للإمبراطورية في عهد والد أركاديوس ثيودوسيوس الأول، وفي عهد ابنه وخلفه ثيودوسيوس الثاني (٤٠١- ٤٥٠)[٥٩]، أعاد بناء الكنيسة المتهدِّمة، والتي أُتِمَّ بناؤها عام (٤٤٠م)، وأسماها هايغيا صوفيا "كنيسة الحكمة المقدَّسة"، وهذه الكنيسة احترقت في شغب كان على جستنيان الأوَّل (٤٨٣-٥٦٥م)[٦٠]، ويعرف بتمرد "نيقيا" عام (٥٣٢م)[٦١]، عندها قرَّر جستنيان أنْ يبني كنيسة يُقْسِمُ العالم بعظمتها.. كنيسةً تجعل الرهبة في صدر الناظر إليها تلجمه عن إشعال عود ثقابٍ أمامها.. فضلاً عن تدميرها، فكانت أيا صوفيا.

وقفت أمام الباب المؤدِّي إلى الكنيسة العظيمة.. ملأتني رهبة لا أعلم كنهها أو سببها، علمت حينها سبب قول الإمبراطور جستنيان حينما رآها: "لقد تفوقت عليك يا سليمان الحكيم"، لقد ظنَّ أنَّه بنى هيكلا أعظم من هيكل سليمان عليه السلام الذي تتحدث عنه الكتب المقدسة، والذي أخفته الجن.. وأخفت سليمان عليه السلام فيه.

استغرق بناء هذا المبنى يومها خمس سنوات.. وتم افتتاحه رسميًا للعبادة عام (٥٣٧م)، دون أيِّ زخرفة تذكر، وقد أشرف على بنائه المهندسين القادمين من آسية الصغرى: ميليتوس الأثيدوروسي، و

أثيميوس التراسيوسي، وهما أوَّل مهندسين يعملان على تأسيس نصب في المدينة لم يكن أصلهما من روما.

بني المبنى٣٣٠م/ وظل كنيسة حتى ١٤٥٣م/ ثم مسجدًا حتى ١٩٣٥م/ فمتحفًا حتى الآن، وحتى العام ١٥٢٠م لم يُبنَ في العالم المسيحي أكبر من هذه الكاتدرائية، والتي أصبحت بعد الفتح الإسلامي أحد أكبر المساجد في العالم، ويروي المؤرخون أنَّ السلطان محمد الفاتح جعل هذه الكنيسة مسجدًا ردًّا على تحويل جامع قرطبة الكبير إلى كنيسة في العام (٦٣٨هـ)، (١٢٤٠م)، وترك الأيقونات والرسوم قائمة فيها أملاً في إعادتها إلى أصلها الكنسي عندما يعاد مسجد قرطبة إلى أصله، ولكن ذلك لم يتم، ويذكر آخرون أنَّ السلطان محمد الفاتح اشترى أيا صوفيا من المسيحيين وحولها إلى مسجد، واختلفت عليَّ الروايات في تحويل الكنائس إلى مساجد.. حيث كنت أعرف فيما أعرف أنَّ الفاتح حوَّل الكنيسة الكبرى ونصف كنائس المدينة إلى مساجد، وأشار لكلِّ كنيسة تحوَّلت إلى مسجد حوِّل إلى كنيسة في الأندلس، وقال لي صديق تركي أنَّ الفاتح حوَّل الكنائس الكبرى باستثناء "سَانْتَا إِيْرِيْن" إلى مساجد.. أمَّا مرشدي علي فقد قال إنَّ الفاتح حوَّل جميع الكنائس إلى مساجد باستثناء "سَانْتَا إِيْرِيْن"، ولما سئل عن ذلك قال: "لكي لا يقال إنِّي لم أترك للمسيحيين معبدًا، وأنِّي حوَّلت المدينة بالحديد والنار إلى الإسلام".

ومن المهم أنْ أذكر هنا أنَّ أيا صوفيا ظلَّت في نفوس المسيحيين الأوروبيين الكنيسة الكبرى.. وأنَّهم حاولوا أكثر من آنٍ أنْ يعيدوها، ففي العام (١٣٣٦هـ)، (١٩١٨م) لما انتهت الحرب العالمية الأولى ودخل المنتصرون إسطنبول استحوذ البريطانيون على منطقة المسجد، كما احتل الفرنسيون المناطق المجاورة، وكان مقرُّ الحكومة البريطانية أمام باب المسجد مباشرة في المكان القائم كَمُصَلَّى اليوم في ساحته، وكان من يريد الصلاة في المسجد يضطر إلى ختم خروج من الحكومة المسيطرة على الجزء الذي يسكن فيه، فدخول وخروج من حكومات الأجزاء الواقعة في الطريق، ثم ختم دخول إلى بريطانية ثم دخول إلى المسجد، فأصبح الناس لا يأتون إلاَّ لصلاة الجمعة.. ثمَّ بدأوا يتناقصون، وفي هذه الفترة جرت عملية ترحيل المسلمين من اليونان وسيلانيك إلى إسطنبول، وترحيل المسيحيين من إسطنبول إلى اليونان وسيلانيك، لتغيير التركيبة الدينية للسكان.. إذ كانت نسبة المسلمين في اليونان وسيلانيك (٦٥٪) والمسيحيون في إسطنبول يقاربون (٣٠٪)، فتغيَّرت بذلك على يد الحلفاء المنتصرين التركيبة السكانية في البلدين.

وفي العام (١٣٥٣هـ)، (١٩٣٥م) وفي نقاش محموم في البرلمان التركي حول أحقِّية إعادة المسجد إلى أصله الكنسي، والذي تبناه العلمانيون، ووجوب بقاء المسجد على وضعه وحرمة إعادته لأصله الكنسي، طُرح الحل القائم اليوم، فحوِّل المسجد إلى متحف، إلاَّ أنَّ

ذلك لم يلغِ حُلْم الأوروبيين في عودته إلى أصله الكنسي، ففي العام (١٤٠٤هـ)، (١٩٨٤م) حينما حاول الرئيس المرحوم تورجوت أوزال (١٣٤٥- ١٤١٣هـ)[٦٢] الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وبدأت الدول تفرض الشروط عليه قال له الرئيس الفرنسي والمستشار الألماني إنَّهم مستعدُّون إلى ضمِّ تركيَة إلى الاتحاد غدًا إنْ وافق على إعادة أيا صوفيا إلى أصلها الكنسي، إلاَّ أنَّ المرحوم أوزال قال لهم إنَّ القرار الذي اتخذ قرار شعب، ولا يستطيع أنْ يقوم بإلغاء ذلك بشكل فردي، إلاَّ أنَّه مستعدٌّ لإرجاع المكان إلى كنيسة إنْ أعيد مسجد قرطبة إلى أصله الديني كمسجد.

على مساحة تقارب (٧٣,٥×٦٩,٥م) قام المبنى الذي تنتصب على رأسه قبَّة قطرها (٣٠م)، وارتفاعها (٥٥م)، إذ كان من المفترض أنْ يكون الارتفاع (٥٠م) إلاَّ أنَّ المبنى احتاج إلى زيادة (٥) أمتار لتعديل قطر الفتحة التي ستوضع عليها القبة.. إذ كانت (٣٢م)، وكان خطأ الرومان أنْ وضعوا القبة على الجدران مباشرة، إذ وقعت هذه القبة وتصدَّع البناء لأربع مرات.. كان أوَّلها بعد عشر سنوات من افتتاحها، وكان آخرها في عهد السلطان القانوني (٩٩٤هـ)، (١٥٣٧م) إذ هُدِّدَت بالسقوط، فقام المعمار سنان آغا بتشييد الدواعم الست للقبة من الخارج، وعلَّق في أصلها آية النور التي قام على عملها بخطِّه، وقال عبارته المشهورة: "علَّقت القبَّة بآية النور لتظلَّ مرفوعة ما دامت هذه

الآية في قلبها إلى يوم القيامة"، وقد قام العثمانيون في ذلك الترميم بطمس الصور الأيقونية بالطين والجبس لكي لا يتلفوها، ووضعت عليها لوحات خطية وزخرفية بخط مصطفى عزت أفندي، نابت مناب لوحات تكنجي زادة إبراهيم أفندي التي كانت وضعت بعد الفتح مباشرة، وعلَّقوا حول السرافين الأربعة[٦٣] المشدودات الجلدية[٦٤] والموجودة اليوم في سقف المسجد، وتقوم حاليًا أعمال صيانة في المبنى لإخراج صورة الأيقونات المخفية، والمبنى في العموم مستطيل الشكل، تحيط به من جوانبه الثلاثة مختصرات ومقصورات، يلاحظ الداخل إلى القاعة الكبرى أنَّ صفوف الأعمدة الأولى تختلف عن تلك التي في الوسط، فالأولى جيء بها من بعلبك، والوسطى جيء بها من برجمون، وتحاط قبته الرئيسة بنصفي قبة إحداها على مقدمة المبنى والأخرى على مؤخِّرته، وترى في وسط الساحة المكان الذي كان يتوج فيه الإمبراطور البيزنطي، كما قام العثمانيون بجلب جرار الماء الكبيرة الموجودة على يمين ويسار البوابة من "برجمون" لتستخدم كمواضئ، وذلك في عهد السلطان مراد الثالث (٩٥٣- ٩٨٢- ١٠٠٣هـ)[٦٥]، وتعود أصلاً للفترة الهلنستية (٣٢٣- ١٤٦ق.م.)[٦٦]، وقد صنعت كل واحدة من هذه الجرار من قطعة واحدة من الرخام.. شُكِّلت ثمَّ حُفرت.

كما قام العثمانيون بإنشاء رَفعة القرآن، والمحراب، والمنبر، ومجلس الخطيب[٦٧]، ومقصورة السلطان، ومسطبة المؤذن، وبعض

المباني الملحقة، والتي تحوي غرف الدراسة، والمكتبة الداخلية الموجودة في الرواق الشرقي، والمآذن التي بَدَأ ببنائها الفاتح، وأتمَّها ابنه السلطان بايزيد الثاني، والتي زادها سليم الثاني (٩٣٠- ٩٧٤- ٩٨٢هـ)[٦٨]، ومحفل السلطان، وقبور كل من السلاطين سليم الثاني، ومراد الثالث، ومحمد الثالث، ومصطفى الأول، وإبراهيم، ودعامات المآذن، والنافورة، ومدرسة الفتيان، ووقف الإطعام، والإدارة، والمكتبة الخارجية.

وكان الفاتح العظيم قد بنى مدرسة شمال المبنى على شكل الحرف يو اللاتيني، ومساحتها (٥٠×٤٧×٣٥م) يوجد بها (٤٦) غرفة، وقد خرجت من الخدمة بعد بناء كلية[٦٩] السلطان محمد الفاتح في المنطقة المسماة اليوم "فاتح"، إلاَّ أنَّ أساساتها ظاهرة اليوم للعيان.

أمَّا المآذن، فبعد الفتح الإسلامي بنيت مئذنة خشبية صغيرة فوق القبة الغربية، حتى بنى الفاتح المئذنة المرمرية الأولى الواقعة على يمين المبنى، ثم قام ابنه بايزيد الثاني (٨٥٦- ٨٨٦- ٩١٨هـ)[٧٠] ببناء المئذنة الحجرية الوحيدة المختلفة على يسار المبنى، وفي عهد السلطان سليم الثاني قام معمار سنان ببناء المئذنتين الأخيرتين، وجعلها ضمن دعائم القبة الرئيسة التي أقامها، وهدم المئذنة الخشبية.

بعد أنْ أنهى مرشدي علي شرحه بدأت أتحرَّك في ساحة المسجد/ الكنيسة، هذه الأعمدة التي تقف صفًّا متراصًّا وكأنَّهم الحرس والجند في حضرة الإمبراطور أو الخليفة.. الساحة ذات الأرضية الفسيفسائية التي كان يتوَّج عليها الإمبراطور.. والمقصورة التي كان يصلي بها السلطان العثماني.. المذبح الذي كان يترنَّم عليه الأساقفة والكرادلة.. والمحراب الذي يقف في قلبه الأئمة والعلماء.. مكتبات تعليم الأولاد وتخريج العلماء.. وغرف الاعتراف في جوانب الكنيسة.. الساحات التي وقف فيها المصلون مسلمون ومسيحيون، كان كل ذلك يخلبني.. كلُّ تلك الترانيم والتراتيل تتردد في أذني.. أصوات الكرادلة والأئمة.. الأجراس وأذان المؤذنين.. حتَّى أنَّني سمعت نداء مرشدي علي حين صرخ: "يا إلهي" ضائعًا بين تلك الحشود.. فلمْ أكد أميزه حتى صرخ الثالثة.. فاتجهت إليه مسرعًا كي لا أُفَوِّتَ باقي الرحلة.

قصص حول أيا صوفيا

في الركن الأيسر على يد الداخل هناك توجد فتحة الحظ، وهي فتحة صغيرة في عامود يقع في أقصى الزاوية اليسرى للقاعة، يَعْتَقِدُ فيها المسيحيون أنَّ من أدخل إبهامه فيها ولف يده دورة كاملة وتمنى تحققت أمنيته، وقد حيكت حول هذه الفتحة أسطورة مفادها أنَّ الفاتح العظيم حينما فتح الكنيسة وضع إصبعه فيها وأدار يده حتى توازت الكنيسة على

القبلة، ولم ينتبه المختلقون إلى ما انتبه له صديقي المسيحي الأمريكي اللبناني الأصل، الذي تعرَّفت عليه في هذه الرحلة الدكتور/ إلياس سيكالي من أنَّ المذبح المسيحي.. والمحراب الإسلامي يقومان في نفس المكان بالضبط.. ويشيران إلى نفس الجهة، فالقدس التي هي قبلة المسيحيين تقع في منتصف الخط بين إسطنبول ومكة المكرمة.. قبلة المسلمين، وأنَّ المحراب مُزْوَرٌّ قليلاً إلى اليمين عن قلب المذبح، وكان أنْ قال تلك الملاحظة لمرشدنا "علي يا إلهي" الذي قال إنَّه كان يقول هذه المعلومة، ولكنها أحدثت له بعض المشاكل إذ كان هناك امتعاض من بعض الزائرين المسيحيين والمسلمين.

ومن القصص التي تروى حول ذلك ولا أعلم مدى صحتها أنَّ أحد الأباطرة البيزنطيين.. وأظنه "مانويل الثاني" وفي فترة هدنة مع سلاطين الإمارة العثمانية طلب منهم إرسال أحد المعماريين المشهورين لترميم الكنيسة الشهيرة، وفعلاً أرسل السلطان محمد الأول (٧٨٩-٨٠٥- ٨٢٤هـ)[٧١]، المعماري الذي صان الكنيسة، ثم لما عاد سأله السلطان عن أحوال القسطنطينية، فقال له: "يا مولاي السلطان قد قمت بصيانة الكنيسة.. ولقد بنيت قواعد المآذن، فما عليك إلاَّ فتحها لإكمال بناء المآذن".

×××

إنَّ هذا المبنى الشامخ منذ آلاف السنين.. المتدين بطبيعته السماوية.. الحامل محرابه على مذبحه، الكنيسة المسجد، الواضح فيه رسوم عيسى وأسماء محمد صلى الله عليهما وسلم، الحامل سرافين النصارى وعشرة المسلمين المبشرين بالجنة.. هذا المبنى قد يكون أصلح مبنى يحمل في طيَّاته الطريق إلى التسامح الديني والمذهبي.. ففي نفس الوقت الذي تقرأ فيه ترانيم المسيحية.. تسمع فيه تراتيل القرآن، وفي نفس الوقت الذي ترى فيه صور المسيح القائمة هنا وهناك.. والعذراء.. والأباطرة، ترى فيه أسماء الخلفاء المتقابله.. متجاورة مع أسماء آل البيت والمبشرين بالجنة.. فعُمر بجنب علي.. والحسن بجنب عثمان، وكأنَّ من وضعها كان يتعمَّد أنْ يقول: هؤلاء القوم.. يحب بعضهم بعضًا، هم من الإسلام والإسلام منهم، وهو.. أي الإسلام.. حامي حمى الأديان.. جاء بعد المسيحية فنسخها.. إلاَّ أنَّه لم يسحق مؤمنيها.. أزال المرممون الطين والجبس.. فظهرت صور الفسيفساء القديمة على الأسقف والجدران.. إنَّ أيا صوفيا فعلاً رمز للتسامح المذهبي والديني.... التسامح.. وليس التداخل.

تملَّكتني الدهشة التي تملكتني وأنا أغادر سلطان أحمد إلى أيا صوفيا حين غادرت أيا صوفيا فواجهني سلطان أحمد، تملكتني الحيرة.. أيُّ المنظرين أجمل.. سلطان أحمد من أيا صوفيا.. أم أيا صوفيا من سلطان أحمد.. كلا المنظرين لوحة أسطورية تحمل بهاءها ورونقها الخاص.. خرجت من المسجد تُفعمني الفرحة.. بعكس الحسرة التي كانت

تلوِّعني وأنا أغادر سلطان أحمد.. لا أعرف السبب.. قد يكون لأنَّني بعد المسجد على موعد مع السلاطين والخلفاء في الباب العالي.. على موعد معهم في باب المدفع.. أو إنْ شئت فقل: في طوبقابي.

الطريق إلى طوبقابي

حينما تخرج على الطريق الذي يمثِّل امتداد شارع الـ(ياريباتان)، وتمشي بمحاذاة جدار مسجد أيا صوفيا من ناحية السلطان أحمد.. ثم تنعطف مع جدار المسجد في شارع كاباكال، ستُفاجأ حتمًا بمنظر بوابة همايوني.. و/أو سبيل السلطان أحمد "قسطل أحمد الثالث"(١٠٨٤-١١١٥- ١١٤٣- ١١٤٩هـ)[٧٢].

تقف في وجهك مباشرة البوابة الخارجية لقصر طوبقابي الشهير.. أو "طوبقابي سراي"، والتي تعرف ببوابة همايوني، وقد أنشئ هذا القصر ما بين العامين (٨٧٠- ٨٧٦هـ)، (١٤٦٥- ١٤٧٠م)، فحينما فتح الفاتح القسطنطينية نزل في قصر استصلحه أسفل المدينة.. باتجاه الغرب (في المنطقة المعروفة الآن ببايزيد، والتي يقع فيها جامع بايزيد)، ولكن ذلك القصر ضاق عليه فأمر ببناء قصر جديد في المنطقة التي تعرف اليوم بسلطان أحمد.. وكانت قبل بناء قصر طوبقابي غابات ذات أشجار مثمرة، فأصبح القصر الجديد يسمى "ييني سراي"، والقديم يسمى "إسكي سراي" وتعني (القصر القديم)، وكان يستخدم لسكنى عموم

أمراء آل عثمان وحريم الأمراء من غير السلطان، حتى أوقف السلطان أحمد الأول عادة قتل الإخوة[٧٣] التي كان يقوم بها السلاطين حال توليهم العرش، فأصبح "إسكي سراي" منزل إخوة السلطان الحالي، وتقوم فيه حاليًا جامعة إسطنبول.

كنت أمشي مشدوهًا باتجاه الباب..ففي تقديري كان ارتفاعه يقترب من (١٢م)، مدخله تحت القوس يرتفع إلى قرابة الثلاثة أمتار تقريبًا، أمَّا الحلية بين المدخل وقوس الباب فارتفاعها أربعة أمتار تقريبًا، وهي تحفة معمارية، نُقش عليها بالخط الثلث الجلي المركب المتناظر قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾(الحجر) بطريقة متداخلة مركَّبة أشدَّ التركيب توحي بالفخامة والرهبة، وتحتها أُرِّخ لبناء القصر بخط ثلث جلي بأربعة أسطر جاء فيها: "هذه القلعة المباركة أسس بنيانها على تأييد من الله ورضوان ورصص أركانها بتشييد منه بالأمن والأمان (السطر ١) بأمر سلطان البرَّين وخاقان البحْرَين ظل الله في الثقلَيْن عون الله بين الخافِقين قهرمان الماء والطِيْن فاتح قلعة (السطر ٢) قسطنطين أبو الفتح سلطان محمد خان بن سلطان مراد خان بن سلطان محمد خان خلَّد الله تعالى (السطر ٣) سلطانه وأعلى على فرق الفرقدين مكانه في تاريخ شهر رمضان المبارك سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة (السطر ٤)"، ونُحت تحتها بخطٍّ طغرائي بديع ختم

السلطان محمود الثاني (١١٩٩- ١٢٢٣- ١٢٥٥هـ)[٧٤] ونصه: "عدلي محمود عبد الحميد مظفر" وتحته التاريخ (١٢٣٠)، وعن يمين البوابة ويسارها نُحت قوسان على شكل بوابتين أصغر من الكبرى.. ارتفاع كل واحد منهما (٤) أمتار تقريبًا.. نُقِشَ على الأيمن بخط ثلث مركب "السلطان ظل الله في الأرض"، وعلى الثاني بنفس الخط: "يأوي إليه كل مظلوم" "صدق حبيب الله"[٧٥]، وقد صنعها خطاط وقَّع باسمه عبد الفتاح، وقد صنعت حسب التاريخ المعلق في (١٢٨٥هـ)أي في عهد السلطان عبد العزيز.. وبعد إنشاء القصر بقرابة أربعمائة عام.

لم أزل مشدوهًا بهمايوني... البوابة.. حتى تبدَّى لي سبيل أحمد الثالث من خلف الأبنية التي كانت تحجبه على يمين المُقبِل على بوابة همايوني.. فوجدتني ودون شعور أقف.. أُجيل النظر في باب القصر البديع.. ثم أقلب نظري إلى ذلك المبنى المربَّع ذي الخمس قُبب، المنمَّق بالزخارف.. والخطوط العربية.. والبورسلان الراقي.. كان كلاهما يشدُّني إليه.. وكلاهما يحكي قصَّته التي تخفى على كثيرين من أهل المكان، فلمدَّة تتجاوز (٣٨٠) عامًا.. وعلى مدى (٢٥) سلطانًا كان هذا الباب هو الباب العالي.. ومقرَّ خليفة المسلمين.. وسلطان آل عثمان.. أمَّا السبيل أمام الباب فعمره يزيد علي (٢٨٠) سنة، إذ أنشئ حسب المصادر في العام (١١٤٠هـ)، (١٧٢٨م).

كان اسم القصر.. حين بناه الفاتح العظيم الباب العالي.. ولكونه وَضَعَ عن يمين الباب ويساره مدفعين أصبح الناس يسمونه باب المدفع.. وسميت المنطقة المحيطة به بمنطقة باب المدفع.. أو بالتركية "طوبقابي"، إلاَّ أنَّ الاسم الحقيقي لبوابة قصر الباب العالي والتي تسمى تجاوزًا بطوبقابي هو بوابة همايوني، أو بوابة الفرمانات، إذ كانت تخرج الفرمانات.. وهي القوانين التي تصدر من الباب العالي فتُعلَّق على باب همايوني.. والهمايوني هو الخط العربي الذي كانت تكتب به الفرمانات.. وكانت تسمى الفرمانات بهمايوني مجاوزةً.

يا للحيرة التي تحرِّك روح الواقف المتملِّئ إذ يدعى للدخول فيفضِّل الوقوف!! قديمًا، كان الواصل يقف على هذا الباب.. وزيرًا كان، أم سفيرًا، أم أميرا.. لا يهم، كان يقف على هذا الباب.. فينزل من عربته.. ويشرب من القسطل.. ويجيل نظره في المنطقة المحيطة.. فإذا أُذن له بالدخول همَّ سريعًا إلى عربته التي ستجري به (٣٥٠م) باتجاه باب السَّلام الذي بناه السلطان سليمان القانوني، وأنا اليوم أدعى للدخول.. فأفضِّل الوقوف هنا.. أتملى من السحر حولي.. وكأنَّني كنت هنا.. وكأنَّني لن أكون هنا بعدها، أنظر بعين المشتاق المودِّع.. ولكنَّ التزامي مع مجموعتي يلزمني بالدخول.. إنَّ هيبة الدخول لا تقلُّ عن هيبة الوقوف في الخارج.. وها أنا أدخل.

آلاي ميدان:

بين البابين تقع حديقة كبيرة، تسمَّى بالتركية "آلاي ميدان" أي ساحة المواكب، إذ كانت تقام فيها احتفالات المواكب الخاصة بالعيد.. والحرب.. والجنائز.. كما كانت تجرى فيها السباقات والمصارعات، عدا كونها مكانًا لتدريب الجند.. الذين كانوا يعيشون في القصر المقام على يسار الساحة، ولذا فهي تسمى أيضًا بساحة الينيشارية.. لأن سكناهم وتدريباتهم وعروضهم كانت فيها، عدا أنَّ بها المستشفى الخاص بالقصر.

طول هذه الساحة كما أسلفت (٣٥٠م) تقريبًا.. وعرضها الظاهر لعينيك (١٤٥م) تقريبًا.. إذ تُحَدُّ عن يمينها وشمالها بأبنية تسمَّى القصور القديمة، معظمها كان يقوم عن يمين الساحة وحتَّى البحر، ولا تجد منها اليوم إلاَّ ثلاثة.. هي جينيلي كشك سراي (أو قصر القاشاني وكان مصنعًا للبورسلان)، وآلاي سراي (وهو المكان الذي يتم فيه الإعداد للمواكب والاحتفالات وتخزن فيه لوازمها)، وسبتجيلر سراي، أمَّا عرضها الحقيقي فيتجاوز (٣٨٠م)، وعلى يسار الداخل أوَّل ما يرى مبنى على هيئة مسجد.. قبَّة عظيمة على مبنى مستطيل الشكل.. تلك كانت كنيسة "سَانْتَا إِيْرِيْن"، والتي كانت حتى بعد بناء القصر كنيسةً يرتادها المتعبِّدون من نصارى إسطنبول، ولكن.. ومع مرور الزمن بدأ عدد المصلين فيها يقل.. ويقل.. حتى أصبحت من غير روَّاد، فحوِّلت إلى مخزن للأسلحة

والذخائر العسكرية، ثمَّ إلى مسجد، ويبلغ حجم "سَانْتَا إِيْرِيْن" (١٠٠×٣٢م)، وقطر القبة (١٥م) وارتفاعها (٣٥م) ولها (٢٠) شبَّاكًا منها (١٤) مطمومة، وقد أقامها "قسطنطينوس" على أنقاض معبد وثني، إلاَّ أنها تدمَّرت في زلزال حدث قبيل العام (٧٣٨م) أي في عهد الإمبراطور ليو الثالث إيساوروس(٧١٧- ٧٤١م)[٧٦]، وتمتاز الكنيسة في تصميمها بسرٍّ معيَّن يجعل تردد الصوت فيها أخَّاذًا، مما جعلها اليوم الأفضل لتكون صالة للحفلات الموسيقية والمعارض الفنية.

خلف الكنيسة القديمة أقيمت أبنية خاصة بسكِّ العملة العثمانية، وكانت حيَّة في الفترة (١٠٧٥- ١٣٩٣هـ)، (١٦٦٥- ١٩٧٤م)، أي بعد سقوط الخلافة، ثمَّ سقوط سلطنة آل عثمان التركية بخمسين سنة[٧٧]، وكان يعمل في المبنى قرابة (٤٠٠) عامل، ويقدِّم ناظرها للخزينة العثمانية (١٠٠٠٠) نيرة ذهبية، و(١٠٠٠٠) نيرة فضِّية شهريًّا.

إنَّ المنظر الخلاَّب الذي سيواجهك بمجرد عبور بوابة همايوني هو منظر بحر مرمرة.. الذي يقطع استرسال اللون الأخضر على الأرض بالزرقة التي تختلط بتركوازية السماء.. ذلك المنظر الذي يحبسك أمامه لوقت يقف فيه الزمن.. يحبسك في شعور متناقض بين الغبطة.. والفرح.. والحزن.. حتى أنَّك لتكاد تبكي.. وليس من رأى كمن سمع.

تقطع الساحة.. وعلى يسارك ما وصفت سابقًا.. وعلى يمينك مباني القصور القديمة التي أصبحت اليوم محلات لبيع التحف التذكارية.. عدا نوافير السبُل التي نُقلت من مكانها إلى هنا بشكلها ومرمرها لتزين ساحة القصر بعد أنْ أزيلت لأسباب متعددة، وهي بوابتي سبيل كانتا تزينان سبيلين مختلفين في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ونافورتي مياه.. إحداهما كاملة ويبدو أنَّها كانت تزيِّن أحد القصور.. والأخرى عُرِض منها قلب النافورة المثلث المتدرِّج.

باب السلام:

قد لا تلاحظ هذه الأجزاء الأخَّاذة الصُّنع، إذ أنَّك ستكون بلا ريب مأخوذًا بما هو أعظم.. فأمام عينيك باب السَّلام الذي بناه السلطان سليمان القانوني في العام (٩٣٢هـ)، ذلك الذي يحمل عظمة ورقي الشرق، مزينة بفخامة العمارة الباروخية الغربية، فبرجاه المشيدان على طراز القلاع الأوروبية يجعلانه متعة تملأ العينين، عدا بوابته الشرقية الطراز.. المجملة بكلمة التوحيد: "لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله"، وأختام السلطانين: مصطفى الثالث، ومحمود الثاني، وأبيات شعرية باللغة التركية، كتبت بخط تعليق أخَّاذ.

هذه البوابة كانت الفاصل بين الساحات وحرم القصر، ولم يكن يسمح لأحد بأنْ يدخل بعدها راكبًا إلاَّ السلطان، وخلفها كان الفناء

الذي يجلس فيه السلطان للاستقبالات، وقد سميت البوابة بباب السلام لأنَّ الجند.. والقادة والوزراء كانوا يقفون على جانبي الطريق بعدها يسلِّم كل واحد منهم على الصدر الأعظم حين يدخل من هذه البوابة.

سعادة ميدان:

تتخطَّى البوابة بعظمتها كعابر.. بعد أنْ كان يقف تحت ظلالها كبار المسؤولين منتظرين الإذن بالدخول، تتخطَّاها لتقف في ميدان الديوان أو ساحة السعادة.. أو الفناء الثاني، مساحة هذه الساحة (١٦٠×١٣٠م) بها ثلاثة طرق.. الأوَّل وطوله (٩٠م) ويؤدِّي إلى المطابخ، والثاني وطوله (١٦٠م) ويؤدي إلى باب السعادة، والثالث وطوله (٨٠م)، ويؤدِّي إلى مبنى العلماء والمدرسة الخاصة ومصنع البارود، ومدخل الحرملك، وخلفك ملاصقًا للسور سترى الرواق ذي العشرة أعمدة الذي بناه السلطان مصطفى الثالث (١١٩٢- ١١٧١- ١١٨٧هـ)[٧٨] والذي وضع فيه اليوم مبنى مجسَّم لكامل القصر، وتستطيع أنْ ترى أيْضًا، غرف الآغاوات[٧٩] البيض الخارجيين، والبوابين، وغرفة الجلاد، وسجن المحبوسين والمحكومين بالإعدام، وتستطيع أنْ ترى أيْضًا منصَّة الإعدام.. والتي تسمى منصَّة العبرة، والتي كان يعدم عليها المعاقَبون من خدم وموظفي القصر، وخاصة أولئك الطباخين والأطباء الذين يحاولون اغتيال السلطان أو نجحوا في ذلك، وسترى أيضًا مباني المطابخ التي كانت تتكفل بإطعام (٢٠٠٠٠) شخص في الوجبة الواحدة، عدا

السلطان وآله. كما تستطيع أنْ ترى منارة الحساب الخاصة بعلوم الفلك والرصد، وهي التي يقال أنَّها بنيت في عهد السلطان محمد الرابع (١٠٥٢- ١٠٥٨- ١٠٩٩- ١١٠٤هـ)[٨٠] لمراقبة آلاي ميدان، وحماية القصر من أي اقتحام أثناء تدبيره للقضاء على الينيشارية، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقًا[٨١].. والأغلب أنَّها كانت مبنية من أساس القصر، فهي التي يستخدمها الحريم السلطاني في الأعياد والمناسبات للفرجة على استقبالات السلطان في الساحة، وهي التي تستخدم أيضا في أمور الحساب والفلك، ثم ترى بعد ذلك دار العلماء، ومدارس الأمراء، وديوان الصدر الأعظم (قبه آلتي)[٨٢]، حيث كانت تعقد اجتماعات مجلس الوزراء، وغرفة السماع السرِّية المتصلة بها[٨٣]، ومكاتب الوزراء، وغرف الاجتماعات، عدا "مهتر خانة" وهو مبنى الجوقة الموسيقية السلطانية والتي كانت تؤدِّي دور شيفرات الأوامر في الحروب[٨٤]، والصهريج البيزنطي والخاص بسقيا القصر.. والذي تبلغ أبعاده (١٦٠×٦٠×٨م)، وغرفة الداية، وغرف أولاد الجواري والأمراء، كلُّ هذا في الطريق إلى باب السعادة والذي كان يجلس تحته السلطان في المناسبات على عرش السعادة تحت راية الدولة، والتي لا تزال حفرة ارتكازها موجودة إلى اليوم[٨٥]، ويصطف عن يمينه ويساره العلماء والقُوَّاد والوزراء، عدا كتائب الينيشارية الذين يقفون في صفوف منتظمة من تحت شجرة الدِّلْبِ التي تقع على يسار السلطان، والتي تسمى بشجرة الينيشارية، ممتدين إلى آخر الساحة، لك أنْ تتخيَّل المنظر

المهيب ساعة حدوثه عندما يجلس السلطان.. ما بين (٥٠٠٠) إلى (١٠٠٠٠) شخص على حسب أهمية الاجتماع، بكامل زينتهم وملابسهم التي ترمز لوظائفهم.. يصطفون في مواقعهم بحسب درجاتهم من العرش، والسلطان أو من ينوب عنه يجلس على عرشه.. أو دون العرش بقليل.. لك أنْ تستنشق الرهبة.. تتلقَّى الهيبة والجلال، واليوم!! لا يتردد في المكان إلاَّ مجاميع السواح.

باب السعادة:

باب السعادة أو باب الآغاوات السود[٨٦].. أو باب العرش[٨٧].. أو باب العرض[٨٨]، ويؤدِّي إلى قاعة العرش، أو غرفة العرض "الديوان السلطاني".. وهي المدخل إلى قصر العدالة.. أو القصر السلطاني، أمامك حين تجتاز البوابة باب صغير كتب عليه بخط الثلث البسملة كتبها السلطان أحمد الثالث بخط يده في العام (١١٣٦هـ)، (١٧٢٤م)، وعن يمينه باب آخر كتب عليه "حسبنا الله ونعم الوكيل" ذلك باب السلطان، قال لي مرشدي إنَّ السلطان الذي خط هذه الكلمة كان يقصد من ذلك أنْ يطمئن نفسه ومن يدخل من تحت هذا الباب بأنَّ حسبه هو الله الذي لن يضيِّعه، وعلى الباب الآخر وضع البسملة إشارة إلى أنَّ كل من يدخل يجب أنْ يبدأ دخوله بالبسملة فكل أمر لم يبدأ بالبسملة فهو أبتر[٨٩]، هنا وقفت قليلاً.. لقد زرت الكثير من القصور.. دست على جلالة سجاد الكثير من الأساطين والملوك.. في أوروبة.. مصر.. الهند..

أندونيسيا.. إلاَّ أنَّني لم أرَ مكانًا بهذه البساطة.. كيف كان السلاطين العثمانيون الأوائل يزرعون الهيبة في صدور السفراء والملوك.. هنا في هذه المساحة التي لا تتعدَّى الثلاثة أمتار كان يجتاز الضيوف ليقابلوا السلطان.. من المؤكَّد أنَّ ما خلف هذا الباب يبعث الدهشة والرهبة.

ستفاجأ حينما تدخل إلى غرفة مساحتها (٦×٧م) تقريبًا.. الغرفة ليس فيها إلاَّ العرش الخشبي الذي ينصب عليه كرسي أو سرير السلطان وموقد بالقرب من ذلك، في هذه الغرفة كانت تدخل الوفود على السلاطين.. في هذه الغرفة كانت تحمل السفارات إلى الدولة.. في هذه الغرفة كان يبت السلطان في علاقاته بالدول الأخرى.. ما أبسط المكان.. وما أهيَبَهُ، كيف كان يفكر الفاتح حين بنى هذه القاعة في الطريقة التي سيزرع فيها الهيبة في سفراء غرمائه؟.. هل كان يستحضر طريقة عمر بن الخطاب عليه السلام؟! أمْ أنَّ الهيبة التي بنتها له سمعة فتح القسطنطينية كفته.. وكفت خلفاءه عن أي مظهر من مظاهر البهرجة الأخرى؟ لقد عاش أكثر من عشرين خليفة في ظل الرهبة التي زرعها الفاتح.. ضعافًا وأقوياءً.. كان ظلهم المنعكس على الأرض ظلا طويلا خطَّه الفاتح.. مهما كان السلطان الواقف في اِلْتِقَاءِ الظل بالشخص قصيرًا.. لم يشعر أحد منهم حتى عهد عبد المجيد الأول بحاجة إلى قاعة مبهرجة يزرع من خلالها العجب والرهبة.. وانظر بنفسك.. لقد استعاض عبد المجيد هذه القاعة بقاعات كثيرة في "طُوْلْمَا بَاغْجَة" أصغرها أكبر من هذه بمرة أو

مرتين.. واستعاض عن ساحة السعادة بقاعة "معايدة".. انْظُر الفرق بين الأحجام والمساحات لتعرف المهابة التي زرعها الفاتح له ولخلفائه في عيون غرمائه.. انْظُر لتعرف كيف أنَّ سلطانًا قبل محمود عدلي الثاني والد عبد المجيد لم يحتج لبناءٍ يثير عجب غرمائه أو أعدائه.. لأنه كان واقفًا في ظل الفاتح.. سلامٌ عليك أيُّها الفاتح.. سلامٌ عليك يا "نعم الأمير".

الغرفة فارغة إلاَّ من مسطبة عرش مساحتها (٤×٢,٥م) تقريبًا بناها السلطان محمد الثالث في العام (١٠٠٤هـ)، (١٥٩٦م).. ترتفع عن الأرض بمقدار عَتَبَةٍ.. وُضِعت في الجهة المقابلة لباب السلطان (الذي كتب عليه من الخارج حسبنا الله ونعم الوكيل، كان يُنصب عليها كرسي العرش أو سريره.. على الجهة اليمنى منها تقف المدفأة أو الموقد لتدفئة الغرفة في الشتاء.

وقفت هناك.. إنَّني أرى السلطان على عرشه.. يجلس مواجهًا المشرق (القِبلة تقريبًا).. وموليًا أوروبة كلِّها ظهره.. أراه.. وأرى الوزراء حوله.. والصدر الأعظم ينتصب أمام المدفئة عن يمين السلطان وخلفه الوزراء.. بعد أنْ قبَّلوا ذيل عباءته.. إنَّهم هنا لن يهم أحدهم بالخروج حتى يأذن مولانا السلطان، والسفراء يقفون هنا أمامه.. بملابسهم الفاخرة التي لا تغني ولا تسمن من جوع.. فهم يقفون بعد أنْ أحنوا رؤوسهم ثلاثًا تحيَّةً لمولانا السلطان.. يلقون رسائلهم.. والمترجمون يترجمونها إلى التركيَّة.. ثمَّ يحنون رؤوسهم في انتظار الرد.. وحال أخذهم الرد.. يحنون

رؤوسهم ثلاثًا.. وهم يعودون القهقرى للخروج من القاعة.. فالرهبة في صدورهم حاصلة من السلطان.. والاستصغار في عيونه حاصل لهم.. إنَّه السلطان الذي يجلس بكل هيلمانه الروحي في قاعة صغيرة والذي يدنون من طرف عباءته مقبِّلين بكل ما لدولهم من إرث.

تلكم الغرفة التي يبلغ ارتفاعها قرابة (٥م) محمية بنظام تشويش دقيق، يمنع الواقف على الباب من الحراس من سماع أيِّ كلمة تقال في الداخل، فعند المداخل من الخارج نُصبت نوافير تصب الماء في أحواض مليئة بالماء.. وفي الداخل نصبت نافورة تؤدي نفس الغرض، مما يجعل من المستحيل أنْ تخرج كلمة تقال في الداخل إلى مسمع أيٍّ من الحرس.. أو المتسمعين، عدا أنَّ الخدم الذين يخدمون في الغرفة كانوا يختارون صمًّا

الفناء الثالث "أندرون ميدان":

أمام الباب الآخر (الذي كُتبت عليه البسملة) باب يؤدي إلى رواق يلتف حول الغرفة، يحمله قرابة (٢٠) عمودًا رخاميًا، بعده سُلَّم يفضي إلى مباني قصر العدالة.. من ذلك دخلت.. ومن هذا خرجت.. سبحان الله كم لكلمة الجمال من معنى.. هنا.. تخرج في وجهك مقصورة[٩٠] المكتبة التي بناها السلطان أحمد الثالث، وحواليك المباني التي كانت تمثل الأبنية الإدارية للدولة، المالية.. الخزينة.. ومقصورات (الوالدة سلطان)[٩١].. الخزنة المقدسة.. مدخل الحرملك، فمخادع الآغاوات

البيض أو المكتبة، ذلك كلُّه موزَّع في حديقة بديعة.. مساحتها (١٠٤×١٠٤م) تسمَّى أندرون ميدان لأن مدرسة أندرون[٩٢] التي اهتم بها الخلفاء على مر العصور كانت تقع هنا تحت رعايتهم وأعينهم وإشرافهم.. خلف الميدان من الجهة الشمالية بقايا مباني الوالدة سلطان.. المسجد.. غرفة الجلوس.. والغرف الملحقة.. والحديقة ومساحة هذا الجزء (١٣×٧٧م)، ومن الجهة الغربية الحرملك بكامل بهائه وبهرجته والذي يرسخ على مساحة (١٤٠×٦٠م).. وما بينهما تقع مقصورات السلاطين.. كالمقصورة البغدادية التي ابتناها السلطان مراد الرابع.. ومقصورة السلطان أحمد الخاصة.. ومقصورة التختين.. والردهة المطلة على كامل إسطنبول. ويقع هذا الجزء من القصر على مرتفع.. تفصله عن البحر وعن منطقة السلطان أحمد حديقة طبيعية تسمى (جولهانه ميدان).. أو "جولهانه بارك" أو جولهانه باغجة.. تقوم فيها مبانٍ إدارية للدولة يشغلها الآن متحف العلوم الإسلامية التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

دعك من ذلك كله.. كان منظر الحديقة الربيعي أخَّاذًا.. جرني مرشدي ناحية الخزينة الواقعة على الجهة الشرقية من الحديقة.. وهي المباني التي كانت (ولا تزال) تخزَّن فيها النفائس المملوكة للدولة، والمكان الذي تحفظ فيه العروش بمختلفها.. والذي تعرض فيه اليوم مقتنيات السلاطين.. والهدايا التي كانت تبعث لهم، غرفها مؤمَّنة بدقة.. وإضاءتها منخفضة.. والتصوير فيها ممنوع.

الخزنة:

عن يمين الواقف تحت الرواق الغربي لغرفة العرض المستقبل لمكتبة أحمد الثالث تقع قاعات جوسق فاتح.. أو ما يُسمى اليوم قاعات متحف الخزينة، وهي أربع قاعات كانت تستخدم لحفظ ثروات الدولة، ومقتنيات السلاطين، وكانت في العهود السابقة عبارة عن غرف المالية الخاصة بالدولة، ومكاتب كبار موظفي الدولة، عدا استراحة السلطان المطلَّة على قصر والدته من جهة، والبوسفور الأخَّاذ والقرن الذهبي من جهة أخرى.

تحوي الخزينة اليوم ملابسًا وأثوابًا وأوسمةً وسيوفًا وخناجر وعروشًا تعود للسلاطين، تحمل كلُّ قطعة منها قصَّة.. أو أحدوثة.. أو حكاية.. بل تروي تاريخًا، ويبدو أنَّ السلاطين المتأخرين لمسوا هذه القصص.. وتشرَّبوها، حتَّى أنَّهم ومع إفلاس خزينة الدولة، واضطرارهم إلى الاستدانة من صيارفة "غَلَطَة"، والدول الغربية، لم يمسُّوا قطعة من نفائس الكنوز هنا، بل إنَّ محمدًا وحيدَ الدينِ السادس (١٢٧٧- ١٣٣٦- ١٣٤١- ١٣٤٤هـ)[٩٣] آخر سلاطين آل عثمان حينما قرر مغادرة البلاد أشار عليه بعض رجاله بأنْ يحمل معه ثروات الخزينة فرفض لكي لا يخرج الإرث العظيم من المدينة العظيمة.

حينما فتح الفاتح المدينة جعل الخزينة في "سور يدي قوله" (وهي دار بإسكي سراي على ما يبدو)، وفي العام (٨٨٣هـ)، (١٤٧٨م) نقل الخزينة إلى دار بسعادة ميدان "فناء الثاني" بطوبقابي، وفي عهد السلطان سليم الأول تمَّ نقلها إلى جوسق فاتح الحالي أو إلى "الخزينة الأندرونية".. أو "الخزينة الهاميونية"، وخَتَمَ الباب، فكان لا يُفتح إلاَّ باحتفالية كبيرة، وبحضور أعيان ووزراء الدولة.

وكانت تغذَّى الخزينة بالنفائس إمَّا عن طريق ما يُجلب من فتوحات إلى الدولة، أو ما يُهدى من سفارات للسلطان، أوْ ما يصنعهُ صاغة القصر من مذهبات وفضيات ليهدى إلى الحرمين في موكب السترة الشريفة، وبعد قيام الدولة السعودية حمل والي الحرمين كل تلك النفائس إلى إسطنبول فسجلت في دفتر نفائس المدينة وحفظت في الخزينة، وكذلك ما يُصادر من أموال رجالات الدولة في حال خيانتهم أو إبعادهم عن الوظيفة.

إنَّ محتويات هذه الخزينة كثيرة.. ولكل منها قصَّة كما أسلفت.. فمنها مثلاً عروش السلاطين، كعرش مراد الثالث المصنوع من الأبانوس المطعَّم بالعاج، وعرش أحمد الأول المصنوع من الصدف وقشر السلحفاة، وعرش اللؤلؤ الذي أهداه نادر شاه الحاكم الصفوي إلى السلطان محمود الأول، والمطعَّم بـ(٦٦٦٦) حبَّة لؤلؤ، والذي ارتبط به خنجر نادر شاه الذي سآتي على ذكره لاحقًا، وعرش باب السعادة

المصنوع من الذهب، والذي ينصب تحت قبَّة باب السعادة في المناسبات والأعياد.. والملحق به شمعدانان من الذهب صنعا يدويًا ارتفاع الواحد منهما (١,٥م) ووزنه (٥٠كيلوجراما) وقد صنعهما السلطان عبد المجيد ليتم إهداؤهما إلى الحضرة الشريفة بالمدينة المنورة كما نُقِشَ عليهما وقد أرِّخا بسنة (١٢٧٣هـ)، ويطابق كلٌّ منهما الآخر بشكل عجيب، وفي الغرف أيضًا صندوق الموسيقى الذهبي الذي أهداه إمبراطور اليابان إلى السلطان عبد الحميد، والذي يقف عليه فيل مذهب، ومجموعة سيوف السلطان سليمان القانوني وأسهمه وأقواسه وخناجره، وبعض ما يخص السلطان سليم الأول، والفاتح، ودروعهم وتروسهم، والثياب والعباءات التي كانوا يرتدونها كبدلة السلطان عبد المجيد الأول العسكرية المذهبة وسيفه ونياشينه، وقفطان وعباءة السلطان عبد العزيز التي يتعدَّى طولها (٢,٢٠م)، والبطانات القطنية والحريرية التي كانوا يلبسونها تحت ثياب الحرب، ذلك عدا مقتنيات الشاه إسماعيل الصفوي الأول[٩٤]، والتي حُملت بعد الحملة الأولى للسلطان سليم الأول على إيران، ومنها بطانته المطلسَمة بالآيات والطلاسم، والتي كان يرتديها حتى لا يصاب في الحرب، والتي بالمناسبة لم تُغْنِهِ ولم تَحْمِهِ من الهزيمة، عدا لوح الشطرنج الخاص به، وكؤوسه، وأساوره.

وتعرض أيضًا الأسلحة المذهبة، والمسدسات المزينة، والتي أهداها القيصر غليوم الثاني[٩٥] قيصر ألمانية للسلطان عبد الحميد، وكذلك

العصا الأبنوسية الخاصة بالسلطان عبد الحميد، ذلك عدا الأنواط والنياشين التي كانت تخص السلاطين، والتعليقات السلطانية التي كان يرتديها السلاطين على عمائمهم أو على ملابسهم كالتعليقة المذهبة الخاصة بالسلطان أحمد، والياقوتية، والزمردية.

ولعل من أهم ما يفخر به متحف طوبقابي خنجر نادر شاه الذي يعتبر رمزًا للمتحف، وتبدأ قصته حين أمر بصناعته السلطان محمود الأول ليهدى إلى السلطان نادر شاه، في تبادل السفارات الذي كان بينهم، وحينما خرج من إسطنبول.. وعلى مشارف بغداد أُغتيل نادر شاه، فحمل الحمام الزاجل الخبر إلى إسطنبول، فأرسل السلطان يأمر السفارة بالرجوع إلى إسطنبول لكون صديق العثمانيين قد قتل في انقلاب، وبقي الخنجر فيها إلى اليوم، هذا الخنجر صنع على الشكل العثماني، نصله يحوي ثلاث زمردات بيضاوية، قطر الواحدة منها (٤سم) تقريبًا، وفي أعلى النصل ساعة غطاؤها من الذهب، قاعدتها زمردة قطرها (٣سم)، غمد الخنجر من الذهب المرصَّع بالألماس، ورسمت على جانبه رسوم طبيعية دقيقة.

كذلك أَلماسة "قاشوقجي"، والتي يروى أنَّ والي المورة اشتراها من أمِّ نابليون بونابارت حين كان في المنفى، وحين عُزِلَ "قاشوقجي باشا" وأُعدم في عهد السلطان محمود الثاني صودرت أملاكه حُملت إلى الخزينة، وهناك بزَّة مراد الرابع العسكرية، عدا تلبيسات المصاحف

السلطانية، ومصاحف حُمِلَتْ مِنَ الولايات المختلفة هدية للسلاطين، عدا حاملة البخور التي أهدتها ابنة السلطان محمود الأول للغرفة النبوية الشريفة.. كلُّ هذا وأكثر من المعروضات في هذه الغرف الأربع، ذلك عدا المعروضات المخزَّنة في مستودعات القصر.. والتي تعرض دوريًا في هذه القاعات.. ألم أقل إنَّ لكل قطعة قصَّة، تحمل في ثناياها تاريخًا أو سلطانًا.

خرجت من هذه الغرف الأربع والأرض تدور بي.. كاد نفسي أنْ ينقطع وأنا أوغل في التاريخ.. ألمس يد سلطان.. وأحسُّ بحمأة سيف آخر في الحرب.. وأرى النفائس بين عيني الزائرين بعد أنْ كانت أسرارًا في الدولة.. اتجهت إلى باب انبعث منه الضوء.. تنفست الصعداء كمن خرج من مغارة تأريخ إلى ضوء الشمس.. بدأت أرمش بعيني.. المنظر لا يصدَّق.. إنَّه "البلكون" استراحة السلطان.. حيث يلتحم البوسفور بالقرن.. حيث ترى إسطنبول بفروعها الثلاثة تلتحم أمامك وطنًا واحدًا.. حيث تستنشق عبيرها الأخَّاذ الآسر.. منظر لا يتكرر إلاَّ في الخرافات.. منظر لم يجذبني من أحضانه إلاَّ صرخة مرشدي: "يا إلهي".

الأمانات المقدسة:

عدت من باب البلكون إلى إحدى الغرف.. ومنها إلى "أندرون ميدان"، وقفت أقلِّب نظري في هذا الميدان بانتظار أنْ يجتمع معنا بقية الفريق.. كنت أسمع في أذني حسيس الرائحين والغادين من الآغاوات..

وموظفي القصر.. كنت أسأل نفسي: ترى.. أين خطا الفاتح؟ كيف كان يمشي القانوني من القصر إلى غرفة العرض؟ كيف كان صباح العيد في هذه الأنحاء؟ كيف استطاع عبد المجيد الأول الانتقال من هذا القصر بطرازه الشرقي الهادئ إلى "طُوْلْمَا بَاغْجَة" بفخامته المزعجة وقاعاته المغلقة؟! كان عددنا قد اكتمل.. فاتَّجهنا إلى "خرقائي سعادت" أو خزنة الأمانات المقدَّسة، كانت الخطوات تثقل بنا.. إنَّنا نتجه إلى القاعة التي من المفترض أنْ تحوي آثارًا من الرسول الأعظم ﷺ، والأنبياء الكرام.. والصحابة المرضيين.. وآل البيت الشريف[٩٦].

بنيت هذه الغرف.. الواصلة بين الفناء الثالث والرابع، والتي كان مدخلها من جهة الفناء الرابع في عهد الفاتح، وظلَّت تستخدم كغرف للسلطان حتَّى أحضر السلطان سليم الأوَّل "الآثار الشريفة" من مصر إلى هنا، والتي كانت تُلحق بخليفة المسلمين العباسي المستقر في مصر، وما أضيف إليها من آثارٍ جمعها الفاطميون في المشهد الحسيني بمصر، فبدأت تُخزن بالخزينة التابعة للدولة، ثمَّ قام السلاطين بفصلها في مشهد مستقل.. حتَّى جاء السلطان أحمد الثالث، ففتح الباب المطل على "أندرون ميدان" وخطَّ البسملة المعلقة على باب غرفة الأمانات المقدسة بخط يده، وأمهرها بتوقيعه على جانبي البسملة، وقد فتح الباب بقرب المسطبة الرخامية التي كانَ يُغسَّل عليها السلاطين العثمانيون حين وفاتهم، وكأنَّ السلطان يلتمس "البركة" مما في هذه الغرفة!

وفي (٩٢٣هـ)،(١٥١٧م) أي خلال عهد السلطان أحمد الثالث قام بتعيين (٢٤) قارئًا مهمتهم أنْ يتلوا القرآن الكريم على مدار الساعة، في كلِّ ساعة قارئ.. واستمرت هذه العادة قرابة (٥٠٠) سنة حتى سقوط الدولة العثمانية في (١٣٤٣هـ)،(١٩٢٤م)، وحاليًا.. بإمكانك أنْ تسمع القراء يتلون القرآن في هذه القاعات خلال أوقات عمل المتحف، ولا أدري إنْ كان يُتلى خارج أوقات العمل أم لا.

حتَّى العام (١٣٨١هـ)،(١٩٦٢م) كان هذا الجزء من القصر مقفلاً، وفتح خلال ذلك العام، ليعرض نفائسه لجمهور الزوار الذين يأتون من مشارق الأرض ومغاربها لزيارة هذه الآثار العظيمة التي (برغم كون معظمها مزيفًا) إلاَّ أنَّها تحوي قيمة حقيقية تجعلها الأقرب إلى الحقيقة.

أوَّل ما تجد أمام عينك مفتاح الكعبة المشرَّفة، فمعظم الآثار التي تخص الكعبة والغرفة النبوية حقيقية، فحينما يُهدي السلطان قطعة ما إلى الديار المقدَّسة، تُحمل القطعة القديمة إلى هذا المتحف، فمفتاح الكعبة الموجود هنا أعتقد أنَّه ذلك الذي أرسله شريف مكَّة إلى القدس للسلطان سليم الأول إيذانًا بتبعية الديار المقدَّسة له، والذي أعاده السلطان له عملا بالحديث الشريف الذي ينص على أنَّ مفاتيح الكعبة يجب أنْ تظل عند بني شيبة[٩٧]، ويبدو أنَّه عندما بُدِّلت الأقفال في عهد السلطان أحمد الأول، حُملت المفاتيح القديمة بأقفالها إلى إسطنبول،ثمَّ ترى أيضًا

المفاتيح التي تحمل أسماء كلٍّ من السلاطين أحمد الأول، وعبد المجيد، وعبد العزيز، والتي صبَّت من الذهب، وترى أيضًا أجزاءً من كسوة الكعبة التي كانت تُحمل إلى إسطنبول بعد إهداء الكسوة الجديدة للحرم أيَّام الحج، وكذلك حلية الحجر الأسود المذهبة التي بُدِّلت لأكثر من مرَّة، والحلقات النحاسية التي بدَّلها السلطان أحمد بالذهبية، وميازيب الكعبة التي بُدِّلت على مر العصور العثمانية، ومفاتيح ومصراعي باب التوبة (الباب الداخلي للكعبة المشرفة والمؤدِّي إلى سطحها)، كلُّ ذلك مذهب.. ومنقوش بالآيات الشريفة.

وحينما تتعدَّى ذلك تدخل إلى الغرفة التي تحوي آثارًا (منسوبة) إلى أنبياء، كسيوف داود وسليمان عليهما السلام، فعصى موسى، وعمامة يوسف، وطبق إبراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام، وهذه الآثار في مجملها لا تعدو أنْ تكون ادِّعاءات لا أساس لها من الصحة، جُلبت من أماكن مختلفة.. بعضها كان في مصر في المشهد الفاطمي بمسجد الحسين، وبعضها كان في أديرة وكنس هُجرت وحُملت هذه الآثار إلى إسطنبول.

وحينما تعود باتجاه الغرفة الأولى التي دخلت من بابها.. وتتخطَّاها للغرفة المقابلة تجد أمامك مجموعة من سيوف تُنسب للصحابة الكرام.. وهي على قِدَمِهَا لا تصل إلى عصر الصحابة.. وذو الخبرة يُرجع أقدمها إلى العصر العباسي، وتراها محلاَّة ومرصعة، وبعضها صُنِعَ أصلا من

الذهب كسيف الإمام علي.. أو على مقابضه تماثيل كسيف عثمان ذو النصل المصنوع على هيئة أسد، ومن المعلوم أنَّ هذا محرَّم.. وبالتأكيد لن يفعله الصحابة.

وحينما تدخل إلى الغرفة الشريفة التي تحوي آثارًا من المصطفى ﷺ، حسب الادِّعاءات، تجد نفسك أمام البردة الشريفة أولاً، والتي يُظَنُّ أنَّها التي خَلَعَها الرسول ﷺ، على كعب بن زهير رضي الله عنه، والتي حاول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه شراءها منه بـ(١٠٠٠٠) دينار، ورفض كعب، ويقال إنَّه اشتراها من بنيه بضعف ذلك، ولا أعلم إنْ كانت هي أمْ لا، وترى أيْضًا أثر قدمٍ يُنْسَبُ إلى القدم الشريفة طولها قرابة (٣٠سم)، ويُدَّعى بأنَّها الأثر الذي كان في القدس الشريف ليلة الإسراء والمعراج، وقد قرأت في بعض المصادر أنَّ هذه الصخرة حُمِلت من طرابلس الغرب إلى إسطنبول في (١١٤٧هـ) أي في عهد السلطان محمود الأول، وهذا يؤكِّد على أنَّ الأثر غير صحيح، وترى كذلك الرسالة المكتوبة على الأدم، والتي بعث بها الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط، ولا أعلم إنْ كانت حقيقية أم لا، وترى كذلك تربة من التربة الشريفة، وجزءًا من سنٍّ يعتقد أنَّه من ثنية الرسول ﷺ التي كسرت في أحد، وكذلك شعرات يُظن أنَّها من لحيته الشريفة، ومكحلة تنسب إليه، وخاتمه العقيق المختلف ختمه تمامًا عن الشكل والوصف الوارد عن خاتمه ﷺ، وحجر التيمم الخاص به ﷺ، ونعاله الجلدية،

والقوس المنسوبة إليه، ذلك عدا السيوف التي تعرض في الجهة المقابلة لذلك كله.

فالسيف الذي ينسب للرسول ﷺ والذي لبَّسه السلطان أحمد الأول بالذهب ورصَّعه بالألماس والأحجار الكريمة بيده، ثمَّ كتب قصيدته الشهيرة التي يعتذر فيها لمقام الحضرة بسبب تشويهه للأثر العظيم، وسيف له ﷺ مقبضه على شكل حيَّة، وآخر نقش عليه (لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله بن عبد الله بن عبد المطلب)، ثمَّ ترى سيوف الخلفاء الأربعة، وجعفر الطيار وخالد بن الوليد وأبي عبيدة.

تعرض كذلك في صندوقٍ ضمن المعروضات الشريفة، راية رسول الله ﷺ ، والتي كانت لدى الخلفاء تتعاقب عليهم خليفة إثر خليفة، هذه الراية التي استخدمها السلطان محمود عدلي الثاني في حربه ضدَّ الينيشارية، والتي حققت له النصر، والتي كان يعتز بها بعد ذلك إلى أنْ توفي.

تخرج من هذه الغرفة وأنت تشعر بروحانية إيمانية عالية.. بغض النظر عن كونك تعلم أنَّ معظم ما رأيته للتو مزيَّف.. إلاَّ أنَّ روحك الإيمانية ستكون بلا شك عالية.. حينما خرجت من الباب الآخر وقفت قليلاً لأستوعب ما رأيته.. لو كان هذا حقيقيًّا لكانت هذه الغرفة من أشرف البقع على وجه الأرض.. وقفت أمام مرشدي علي، الذي كان

بانتظارنا أمام الغرفة.. وكأنَّني نسيت شيئًا؟!.. ذكَّرتني زوجتي وهي تسألني عن الآثار بمصحف عثمان، فسألته: "أين مصحف عثمان؟" فقال لي إنَّه رُفِعَ من المتحف منذ زمن ولا يُعلم سبب ذلك، وقال لي إنَّه يُنْصَب في رمضان في مسجد أبي أيوب الأنصاري، يُحمل إلى هناك في حفل.. وينصب في المحراب طيلة الشهر.. ثمَّ يُعاد إلى خزينة الأمانات المقدَّسة[٩٨].

معرض اللوحات:

بامتداد صفِّ "خرقائي سعادت" يوجد معرض اللوحات، وهو عبارة عن غرفة كانت تستخدم كمهجع لـ كيتخدا الخزينة "أمين الخزينة"، وهي حاليا معرض للوحات وصور لسلاطين آل عثمان جميعًا، بعضها رسم في حياته كلوحة السلطان محمد الفاتح، التي رسمها الرسام "بليني" بأمر من الفاتح، والبعض الآخر رُسم بعد وفاة صاحبه اعتمادًا على الأوصاف المذكورة في الوثائق والمخطوطات، معظم اللوحات الموجودة رسمت بأيدي رسَّامين مشهورين، فاللوحة الخاصة بالسلطان سليم الأول هي صورة عن الأصلية الموجودة في متحف لندن، والتي رسمها السلطان عبد المجيد الثاني، وبقيَّة اللوحات رسمت على أيدي رسامين مشهورين.. إيطاليين.. واستراليين.. وروس.. وبولونيين، وتوجد بهذه القاعة أيضًا مجموعة من المخطوطات والوثائق، والمصاحف السلجوقية والعثمانية، وكتب مخطوطة، كالأربعين حديثًا الصفوية، وكتاب

الفروسية المملوكي. وقد ألحق بهذا القسم من القصر محل بيع التحف والهدايا التذكارية.

المقصورات:

بين الخزينة الأندرونية، وخرقائي سعادت، ممر يصل بك إلى الفناء الرابع في القصر.. وإنْ شئت فقل الفناء الرائع في القصر.. هناك حيث كان السلاطين يعيشون حياة العشاق.. حياةً تنقطع عن العالم الخارجي.. ليمارسو ما يريح أعصابهم من وعثاء الحكم، وكآبة السلطنة، هناك ابتنى بعضهم مقصورة أو إفطارية أو بركة ليجلس بقربها فيرتاح من أعبائه، وباستثناء مكتبة السلطان أحمد الثالث، كلّ المقصورات الخاصة بالسلاطين تقع هنا.

مكتبة أحمد الثالث

في وسط "أندرون ميدان" تقريبًا، تقوم مقصورة مستطيلة الشكل، لها قباب أقرب ما تكون إلى المسجد، ترتفع عن الأرض بارتفاع غرفة العرض تقريبًا، تلك هي مكتبة السلطان أحمد الثالث.

كان السلطان أحمد الثالث مولعًا بالقراءة إلى أبعد الحدود، فأمر ببناء هذا البناء بقرب غرفة العرض ليقضي فيه أوقاته، وجعله في وسط أندرون ميدان ليكون مفيدًا لطلبة الأندرون، وغذّاها بقرابة (٣٥٠٠)

عنوان، فُقِدَت معظمها.. وما بقي منها يُعرض الآن في غرفة عرض اللوحات بطوبقابي.

أم السلطان

إذا قطعت الممر المؤدي إلى الفناء الرابع من الفناء الثالث (أندرون) ستجد عن يمينك المبنى الخاص بالوالدة سلطان، أوَّله مسجد يسمى "صفية جامع"، وبقربه المقصورة الخاصة بوالدة السلطان، وهو عبارة عن غرفة استقبال خاصة بها، وغرفتين.. إحداهما للنوم، وأمَام جناحها تقوم حديقة بديعة تفصل بينها وبين السلَّم المؤدِّي إلى مقصورات السلاطين مساحتها (١٠٠×٧٠م).. وخلف مقصورة والدة السلطان من جهة البحر يقف السحر ليسلبك الشعور.. تستطيع أنْ تقف هناك لأيَّام دون أنْ تتحرك.. تستطيع أنْ تظل تتأمَّل.. وتتأمَّل.. وتتأمَّل، حتَّى تملَّ، هناك.. تستطيع أنْ تعرف كم كان السلطان يحبُّ أمَّه.. وكم كان يكرمها.

غرفة الاستقبال في جناح الوالدة كانت لاستقبال بنات وزوجات السلاطين، ولاستقبال السلطان الذي كان يجب أنْ يزور الوالدة مرة في الأسبوع على الأقل، فالوالدة تُؤتَى ولا تأتي، وحين يموت السلطان تخرج الوالدة القديمة إلى "إسكي سراي"، وتنزل مكانها الوالدة سلطان الجديدة.

تقطع الحديقة ذات الـ(١٠٠م) باتجاه المدينة لتصعد سلَّمًا يصل بك إلى مصطبة كبيرة.. المنظر فيها سحر آخر.. الساحة الواقعة على المصطبة هي عبارة عن ثلاث مقصورات.. وغرفة.. وبركة ماء، وممر طويل يحده عن يساره غرفة الأمانات المقدَّسة، وعن يمينه منظر بديع لإسطنبول، وفي نهايته باب يؤدي إلى الحريم.. وهو خاص بالسلطان وآله فقط.

أوَّل المقصورات.. وأكبرها.. وأجملها.. وأسحَرُها هي المقصورة البغدادية، والتي بناها السلطان مراد الرابع وهو في طريق عودته من حملته التي استرجع فيها بغداد من الصفويين، وبعد أنْ وصل بأشهر فارق الحياة، ويقال إنَّه مات فيها.

وكان من عادة السلاطين أنْ يبتنوا مقصورات في قصورهم تسمَّى باسم مدينة مهمة من مدن الدولة فتحها السلطان.. أو حرب انتصر فيها، وهذه المقصورة كانت على اسم مدينة بغداد التي أكِّدت تبعيتها للسيف العثماني في عهد مراد الرابع، ويقال إنَّ هذه المقصورة تحاكي قصرًا في بغداد خلب لبَّ السلطان، فأمر بعمل نسخة من نقوشه وزخرفاته في إسطنبول، وحاكت النقوش والمخطوطات والقاشاني في المقصورة ذلك القصر، بل وحاكت الأخشاب والنوافذ والسرر ذلك القصر.

المبنى مربع من الخارج.. وثماني الأضلاع من الداخل، وله شرفتان.. الأولى تكشف القرن الذهبي وجمال إسطنبول المدينة، والثانية تكشف البوسفور والغابات التي تليه من الناحية الأخرى، وبقيَّة الجدران هي عبارة عن خزائن، وأماكن الجلوس في الشرفتين، وقد كسيت الحجرة بأفخر أنواع القاشاني التركي من أسفلها حتى سقفها المقبب، منها الحزام الذي يحوي آية الكرسي في أعلى الغرفة، والذي خطَّه بالثلث الخطاط محمود جلبي، وتتدلى من القبة ثريا نحاسية مزينة بالأحجار الكريمة.

إفطارية إبراهيم

هي قَمرية.. أو سقف نحاسي بين مقصورة بغداد وغرفة الختان، بناها السلطان إبراهيم (١٠٢٤- ١٠٤٩- ١٠٥٨هـ)[٩٩] ليحوز منظر القرن الذهبي والمدينة كاملا في الصباح وعند الغروب، وكان يتناول تحتها إفطاره، وكانت تكسى بمختلف أنواع السرر والأقمشة، وتشرف هذه الإفطارية على جولهانه ميدان،وتكشف كامل إسطنبول، وقد زيِّنت بأبيات من الشعر.. وكتابات، وأرِّخ بناؤها بالعام (١٠٥٠هـ) أي بعد تولي السلطان إبراهيم بعام واحد.

مقصورة روان

تقع على البركة مباشرة.. شباكها يطل على البركة.. وعلى مقصورة بغداد يقال إنَّ بانيها كان مراد الرابع، بابها من جهة غرفة الأمانات المقدَّسة، مشكل ومخطوط عليه بعض الأدعية، وكان الهدف من بناء هذه المقصورة هو خدمة غرفة الأمانات المقدَّسة، إذ كانت الأمانات تُحمل إلى هنا لتنظيفها بإشراف كبير الآغاوات، وكان يستخدمها السلطان لحفظ الرسائل واللفائف، لذا فهي تسمى غرفة اللفائف أيضًا.

تطل الغرفة على منظر خرافي لمقصورة بغداد والساحة المرمرية الفاصلة بينهما، عدا البركة التي أقيمت المقصورة ناتئة من أحد أضلاعها، والمقصورة مزينة كالمقصورة البغدادية بالقاشاني، وكأنَّها غرفة من غرف المقصورة البغدادية، وبها مدفئة مطلية بالذهب أهداها الملك لويس الخامس ملك فرنسة للسلطان محمود الأول.

غرفة الختان

يقال إنَّ بانيها هو السلطان إبراهيم، وتطل على القرن الذهبي وجولهانه ميدان، وهي غرفة مخدومة جيدًا من ناحية الزينة، فجدرانها مكسيَّة بألوان مختلفة من القاشاني، وعلى بابها نافورة ماء يقال إنَّها كانت تستخدم للتشويش على صوت بكاء أبناء السلاطين في عملية

الختان. وقد كان السلاطين يستخدمونها لأداء صلاة السنَّة بعد أداء الفرض في مسجد القصر، لذا فهي تسمى غرفة الختام.

الحرملك:

تعود إلى الفناء الرابع لتعود إلى الفناء الثالث.. وتقطعه مارًا بقرب الساعة الحجرية قبالة غرفة الأمانات المقدَّسة.. متجها إلى مدخل الحرملك، لتنعطف إلى غرفة العرض.. ومنها إلى باب السعادة.. ستتجه يمينًا باتجاه (قبة آلتي).. وستتخطَّاها لتدفع سعر تذكرة أخرى تدخلك إلى باب الحريم السلطاني.. أو باب الحرملك.

إنَّ أكثر الأماكن سرِّية وحرمة في هذا القصر كان هذا الجزء الذي أقف الآن على بابه.. فإذا كان القصر محمي بالآغاوات البيض.. فإنَّ هذا الجزء المحروس بظلمة الأبواب والأسقف.. محروس كذلك بتلك الأعين البيضاء المرتكزة في رؤوس الآغاوات السود، ستدخل على غرفة صغيرة.. شبه مظلمة.. تفضي إلى مكان مخادع الأغاوات السود.. والساحة الصغرى في الحريم التي تحوي غرف الخدمة التي كانوا يؤدُّون فيها أعمالهم من غسيل للملابس.. وتجهيز للأطباق.. وتنظيم لمتطلبات الحرملك، تفضي بك من باب صغير إلى ممر طويل.. أرضه مرصوفة بحجارة سوداء صغيرة.. كانت تحوي المكاتب الإدارية للآغاوات السود.. المكان من هنا بدأ يتحول من مبنى للعبيد إلى مبنى للسلطان وآله..

ستلاحظ ذلك في الأحجار المزخرفة.. والنقوش.. والبورسلان.. والمخطوطات والمعلَّقات من آياتٍ.. وأحاديث.. وأبيات مختارة من بردة البوصيري، ستمر في الممر المكشوف.. ذي الأبواب التي لا تعلم ماذا كان يُصاغ وراءها.. خلف باب نُقش عليه بالثلث: "يا مُفتِّح الأبواب افتح لنا خير باب.. يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف" سترى خيالاً لعمامة بيضاء.. ترتفع إلى (٣٠سم) فوق رأسٍ أصلع أسود.. تضرب الشمس في تملُّس خدَّيه.. فتنعكس.. تمامًا كما تنعكس على صافي الماء، ستراه.. وترى عمامة أخرى مشابهة.. تلتفُّ على طربوش أخضر.. يقف صاحب الطربوش الأخضر.. بثوبه الأبيض الذي شُدَّ عليه حزامٌ أخضر.. وفي يده مجموعة من الأوراق.. ليقدِّم تقريره المالي أو الإداري إلى ذلك ذي الطربوش الأسود والعباءة البيضاء ذات التَّكْتِيْفَاتِ السوداء.. ذلك كبير الآغاوات.. بعد قليل سيمرُّ هو بهيلمانه.. سيمر فيطأطئ أصحاب الطرابيش المعمَّمة.. خضرًا كانت أم حُمْرًا.. يُطَأْطِؤُوْنَ بالاحترام لكبيرهم.. الذي سيصل إلى البوابة في آخر الممر التي كُتب عليها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ... ﴿٥٣﴾ ﴾(الأحزاب)، سيتخطَّاها ليقف أمام باب كتبت عليه كلمة التوحيد "لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله"، سيقف أمام الباب.. سيصفِّق مرتين ويصرخ: "دستور.. يا ستَّار"، لن يجرؤ - على الهيلمان الذي هو فيه- أنْ يلتفت يمينًا.. فهذا الباب السرِّي لمولانا السلطان الذي كتب عليه "شفاعت يا رسول الله.. شفاعت يا حبيب الله".. برغم أنَّ الحارسين على الباب من الآغاوات ذوي العمائم

المطربشة بالطرابيش الحمر قد خفضا رأسيهما لتحيَّة الآغا.. إلاَّ أنَّه لن يجرؤ على الالتفات للباب الذي يفضي إلى سُلَّمٍ يؤدِّي إلى غرفة الاستماع، سينتظر وعينه في الأرض.. حتى تأتي إليه "القادين".. كبيرة الجواري.. لتدخله إلى غرفة "الوالدة سلطان".. سيدخل أولا إلى غرفة صغيرة.. أمامه الباب المؤدِّي إلى الطريق الذهبية.. تلك الطريق الخاصة بمولانا السلطان.. المقفَّلة بأبواب لا يملك مفاتيحها إلاَّ هو، والتي نقش على بابها قوله تعالى ﴿... سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الزمر)، سينعطف يسارًا.. سيمر على الباب المؤدِّي إلى ساحة قصر الوالدة سلطان.. سيتخطَّاها إلى غرفة الاستقبال الخاصة بها، والتي تدير منها أمُّ السلطان شؤون الحرملك.. سيقدِّم تقريره لمولاته.. ثمَّ يعود القهقرى.. يخرج من نفس الباب.. سيتجه يسارًا إلى ساحة الخدم الصغرى.. وهي أصغر ساحة في الحرملك، ليتأكد من الأعمال التي يقوم بها الخدم هناك.. سيمرَّ على مغسلة الملابس.. فيتأكَّد أنَّ أداء الآغاوات الغسالين جيدٌ.. ثمَّ يخرج إلى المطبخ الصغير ليتأكد من أنَّ الأكل الذي أُحضر من المطابخ قد تمَّ التأكُّد من سلامته عن طريق تذوُّق أحد الآغاوات له.. وأنَّه لم يسمم.. ثمَّ يشرف بنفسه على تنظيمه ليرفع إلى القاعة التي سيتناول فيها السلطان غداءه.. وليشدِّد الحراسة على الطعام حتَّى يحضر ولي النعم.. ثمَّ سيتَّجه إلى.... إنَّ وراءه الكثير من الأعمال.. أمَّا أنا فقد بقيت بعد خروجه في مكتب "الوالدة سلطان" كانت تجلس على مسطبة وراءها شباك كبير.. يطل على حديقة الحرملك الصغرى..

على يسارها باب قامت عليه مسطبة تغطِّيه.. نقش عليه كلمة التوحيد.. يؤدِّي إلى الحديقة.. أمام الباب مباشرة باب يُفتح أوقات الصلاة ليبدو محرابها الذي تصلي فيه.. نقش عليه قوله تعالى ﴿...فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ (يوسف)، في زاوية الغرفة باب نقشت عليه الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ (الأحزاب)، يفضي إلى ممر يؤدِّي إلى غرفة السلطان عثمان الثالث.. والسلطان عبد الحميد الأول.. وإلى الحمام السلطاني.. والذي كان مخصَّصا لاستخدام السلطان والوالدة سلطان فقط.. ثم إلى دار قضاء الحاجة.. ثمَّ ستخرج من ذلك إلى ممر مزخرف مزيَّن سيؤدِّي بك إلى قاعة المعايدة السلطانية، تلك المذهبة المزيَّنة التي يرتكز فيها العرش الأبيض.. الذي يجلس عليها السلطان وعلى الحائط الأيسر له.. ومستمرة إلى آخر الحائط فوق عرش السلطان نقشت آيات من سورة البقرة.. بدءًا من قوله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ ... ٢٥٨﴾ وحتى قوله ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗىۙ لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾، خمس آيات، ولا أعلم سبب اختيارها هي بالتحديد، تلك القاعة كان يجتمع للسلطان فيها كل نساء الحرملك.. ويستقبل فيها أفراد الأسرة السطانية.. وبناته.. وزوجاته.. في المناسبات قبل خروجه للناس.. أو بعد عودته من الاستقبالات.. ستدور بك الأرض من العظمة التي ستمسُّها هنا.. ستغادرها من باب صغير.. إلى

غرفة توزيع مظلمة.. تدخل منها إلى قاعة مراد الثالث.. فغرفة الفاكهة الخاصة بعثمان الثالث.. فقاعة الطعام السلطانية.. وإذا عدت إلى قاعة مراد.. ستغادرها إلى باب مقابل في غرفة التوزيع يفضي إلى قاعة المصيف، والتي كانت بنات السلطان ونساء القصر يتلقَّون فيها تعليمهم، والتي تطل على الساحة الكبرى في القصر، تلك الساحة التي تُطلُّ عليها غرف السلطان.. وتطل هي بدورها على بركة المياه المتصلة بخزان القصر ثم بحديقة "شيمشيرلك" الخاصة بالقصر.. غرف السلطان تقع في علِّية، ولا يمكن زيارتها.. إلاَّ أنَّك تستطيع أنْ تتخطَّى سلَّمها لتدخل إلى الطريق الذهبي، ذلك الذي لا يدخلة إلاَّ السلطان.. ولا يعلم ما فيه إلا هو.. تستطيع اليوم أنْ تمشي فيه روحة وإيابًا دون أنْ تخاف من أي شيء.. ستصل إلى الباب المؤدِّي إلى غرفة الاستماع.. فبوابة الحرملك.. ومنها إلى ممر قصير، في آخره هناك باب صغير.. كأنَّه طاقة من نور.. من هنا كان يخرج السلطان.. ومن هنا سأخرج الآن إلى النور.

×××

سيفضي بك الباب الصغير إلى طاقة النور.. إلى الفناء الثالث.. لتنعطف يمينًا إلى غرفة العرض.. ومنها إلى باب السعادة.. فتأخذ طريقك باتجاه باب السلام.. ومنه ستغادر القصر إلى باب الهاميوني ليظِلَّك نقش طغراء السلطان عبد العزيز: "عبد العزيز بن محمود مظفَّر" ومن فوقها

بخط الثلث المستقيم قوله تعالى: ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾(الصف) مضافة إليها جملة (يا محمد) وكأنَّها جزء من الآية، وممهورة بتوقيع الخطاط العثماني عبد الفتاح سكرسكه: " نمَّقه عبد الفتاح سكرسكه كتاب"، ومؤرَّخة بالعام (١٢٨٤هـ)، وفوقها كتبت بالثلث المركب المتناظر قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾(الحجر) مسبوقًا بالبسملة.. ستغادر باب هاميوني لتغادر أسوار السراي العالية.. كمن يصحو من حُلْم جميل.. تترك وراءك ما لم تزره.. إنَّك لم تزر الحريم السلطاني كله.. لم تزر المطابخ.. لم تزر دار سك العملة التي أصبحت اليوم أشبه بالبيوت المهجورة منها بأحد أجزاء السراي الجميل.. تخرج من باب هميوني.. وأنت تحدِّث نفسك بأحاديث.. وتسمع في داخلك دويَّ أحاديث أخرى تجعلك مشتَّتًا ما بين جمالية ما رأيت.. وحسرة ما فقدت.. وألم ما ودَّعت.. أبلغ وصف يطلق عليك الآن أنَّك كخارج من مكان فقدت فيه شيئًا عزيزًا.. أبلغ وصف يطلق عليك أنَّك الآن كخارجٍ من طوبقابي سراي.

حينما عدنا إلى فندق الكونراد صعدت إلى الطابق (١٤) لأحتسي فنجان قهوتي هناك.. كانت الساعة تداهم الخامسة والنصف مساءً، كنت أبحث عن فنجان قهوة.. إلاَّ أنَّني حين دخلت المقهى تشرَّبت المنظر الذي

خلب لبي.. فأنْ تجلس على كرسي يشرف على البوسفور أمر غاية في الروعة.. وأنْ تجمع مع ذلك إطلالة على منطقة "باشكطاش" يجعل الأمر أمتع ، ومن ناحية أخرى أنْ تطل على منطقة سلطان أحمد.. في أي زاوية منها أمر يبعث الجمال في نفسك.. وأنْ تستطيع في نفس الوقت أنْ تكشف منطقة "إيْمِيْنونو" وأنْ ترى الفاتح.. والسليمانية.. والقرن الذهبي والمناطق المحيطة به.. سلطان أحمد.. وفاتح.. وسليمانية.. وأسكودار (الجانب الآسيوي من إسطنبول).. تخَيَّل أنْ تكشف هذا كلَّه دفعة واحدة.. على فنجان قهوة.. وقت المغيب.. لن أكمل.. فالمنظر أكثر من أنْ يوصف.

بعد صلاة المغرب اتجهت مع أسرتي إلى المناطق المتاخمة لنا للعشاء.. وعدنا بعدها لترتيب جدول الغد.. فغدا أنا على موعد مع أهم سلطانين جلسا على تخت السلطنة العثمانية.

---

٣١)سلطان أحميت: يُحوِّر الأتراك اسمي النبي ﷺ محمد وأحمد إلى محميت وأحميت.. أو بشكل أوضح مِهِمِّيْتْ، وأَهْمِيْتْ، وذلك لكي لا يكونا مجالا لشتم حاملهما فيُهان اسم النبي ﷺ.

٣٢) الهيبودروم.. أو المدرج الروماني أو "أط ميدان" بالتركية أي مضمار الخيل، وهو في الأصل مبنى ضخم بيضاوي الشكل وهذا هو الاختلاف بينه وبين المسرح الروماني، والمدرجات الرومانية (الكولسيوم) ولكنه من ناحية الاستخدام شبيه بالمدرج الروماني بروما، وكان هذا الهيبودروم الأكبر على مستوى العالم، فهو يحمل (٩٨٠٠٠) متفرج، مما يعني أنَّه يحمل ضعف ذلك الذي في روما، وكان قد ألحق به متحف ضخم تُحمل إليه قطعة من كل بلد انتصر عليه الرومان لتعرض به؛ دليلاً على التبعية.

٣٣) علي يا إلهي: مرشد تركي، لطيف السحنة.. أبيض، ذو شارب تركي، يمتلك كمًا من المعلومات المرتبة المحدثة يجعله من أفضل المرشدين في الأماكن الأثرية، وفرته لنا شركة المرجان للسياحة، واسمه الحقيقي "علي شاهين".

٣٤) قسطنطين الأول.. أو قسطنطين العظيم (٢٧٢- ٣٠٧- ٣٣٧م) واسمه الكامل جايوس فلافيوس فاليريوس أورليوس كونستانتينوس، الإمبراطور الروماني السابع والثلاثون، والأوَّل في مدينة القسطنطينية.. (والتي كان اسمها روما الشرقية في عهده) ووالد السلالة الأولى من الأباطرة، وثني، جاء في الحقبة التي تلت المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة، كان والده جنرالاً في الجيش، وهرب إلى الغرب (بريطانية وأسبانية) ونودي بقسطنطين إمبراطورًا هناك خلفًا لوالده، فدخل في حرب مع الإمبراطور مكسنتيوس وهزمه، فأصبح هو الإمبراطور، وكانت الدولة - الوثنية- تقوم بإعدام كلٍّ من يعتنق المسيحية، بل وصادرت أمْوال الكنيسة، حتى جاء عهده، فأصدر في

(٣١٣م) مرسوم ميلان الذي أنهى فترة الاضطهاد ضد المسيحية، ذلك أنَّه وبرغم الإضطهاد للمسيحية، وبرغم وشاية اليهود بها، إلاَّ أنَّها أصبحت ديانة معظم الشعب، بدأ بعد ذلك ببناء مدينة روما الجديدة لتكون مدينة الديانة المسيحية والتي نزلها في (٣٣٠م)، وكان قد دعا لعقد مجمع نيقيا المسكوني الأوَّل (٣٢٥م) الذي أقرَّ ألوهية المسيح عليه السلام، وثالوثية الإله في المسيحية، مات قسطنطين وثنيًا، وعمِّد بعد وفاته، فأصبح مسيحيًّا بعد وفاته.

٣٥) المصدر: المرشد/ علي شاهين "يا إلهي".

٣٦) ق.م: يرجى ملاحظة أنَّ التواريخ في فترة ما قبل الميلاد تبدأ من التاريخ الأقدم إلى الأحدث، بعكس ما بعد الميلاد.

٣٧) ثيودوسيوس الأول ومن سبقه من الأباطرة: من الجدير بالذكر أنَّ قسطنطين الثاني بن قسطنطين الأول "قسطنطينوس" (٣٣٧- ٣٦١)، لم يكن مسيحيًا، وقد خلفه يوليان الجاحد (٣٦١- ٣٦٣)، الذي أعلن وثنيته، وأقام حربًا ضد المسيحية، وأعدم الكثير من الرهبان، وإليه تنسب خطأً رسالة طلب المسلَّة.. ووصولها إلى القسطنطينية، ثم خلفه ثلاثة أباطرة مسيحيون أعادوا للمسيحية مجدها في الدولة، كان آخرهم ثيودوسيوس الأول الذي أعلن أنَّ المسيحية هي الدين الأوحد للإمبراطورية الرومانية الشرقية.

٣٨) سيأتي ذكر إعادة بناء المدينة في الحديث عن أيا صوفيا.

٣٩) قسطنطين السابع (٩١١- ٩٥٩م)، إمبراطور روماني ولد عام ٩٠٥، ولقبه بروفيروجنتوس، وهي غرفة في القصر الإمبراطوري تحوي الأولاد الشرعيين للإمبراطور، وقد لقب بذلك لكونه دخلها وترعرع فيها مع كونه ولدا غير شرعي للإمبراطور، تولى العرش بعد وفاة عمه الإسكندر البيزنطي، ودونًا

عن إخوته الشرعيين، وذلك بتدبير من والدته، وكان حينها طفلا صغيرا، وأصبح أحد الكهنة وصيًا عليه، ولكن أحد أقاربه (رومانوس الأول) نازعه على العرش، فعزلت أمُّه الكاهن وتولت هي الوصاية، ولما شبَّ وتولى الأمر واستتب له الحكم طرد أبناء رومانوس الأول، كان قسطنطين السابع مهتما بالبحث العلمي واللاهوتي، وله فيه مؤلفات. وهو الذي خسر جزيرة صقلية لصالح المسلمين العباسيين، وخسر الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية لصالح سيف الدولة الحمداني، وكانت بينه وبين سيف الدولة حروب، وهو الذي حرَّك أسطولا من (١٠٠) سفينة لاستعادة كريت من المسلمين، لكنه فشل في ذلك، على ما عرف به من تنظيم للجيش الروماني في عهده، وهو صاحب السفارات المتبادلة مع الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمن الناصر، ويعتقد أنَّه مات مسمومًا على يد ابنه رومانوس الثاني وزوجة ابنه. تعد كتاباته أفضل تأريخ للدولة البيزنطية، وكان يجيد اللغات التركية والسلافية.

٤٠) رومانوس الثاني (٩٥٩- ٩٦٣)، تولى الإمبراطورية بعد مقتل والده، وَفَبْرَكَ مع مجلس الشيوخ محاكمةً لزوجته لتتهم بمقتل والده، وفعلا تم ذلك ورحلت إلى الدير، وكان ذلك ليتزوج من ابنة صاحب خان كان قد أنجب منها ابنًا غير شرعي، كان رومانوس الثاني ماهرًا في اختيار رجالات الدولة، فقد عيَّن نيكوفورس فوكس (نقفور الثاني) قائدًا للجيش، وسيره على رأس أسطول مكون من ثلاثة آلاف سفينة بجنودها، ثم أمده بثلاثمائة وثمانية سفن محملة بـ(٢٧٠٠٠) ملاح ومقاتل بحري، ذلك عدا ٥٠٠٠٠ مقاتل، لاسترداد جزيرة كريت من المسلمين، وقد تم ذلك بصعوبة بالغة وبعد حصار مضنٍ وطويل في (٩٦١م). ومن الصدف أنَّ الإمبراطور مات مسمومًا، واتهم بذلك ابنه وزوجة إبنه، إلاَّ أنَّ الأصابع أشارت أيضًا إلى تواطؤ زوجته السابقة.

٤١) باسيليوس الأوَّل (٨٦٧- ٨٨٦م)، وهو ابن لأسرة فلاحين مقدونية، وقع في أسر البلغار في صغره، وفرَّ بأعجوبة، وعمل عند أحد رجالات البلاط الروماني، وتزوج بامرأة ثريَّة، ثم ساعد مايكل الثالث في تنحية والده تيوفيلوس من العرش، وبذلك دخل مجلس الشيوخ، ثم دبر هو عملية تنحية مايكل الثالث والانقضاض على العرش ليكون الإمبراطور الأول من الأسرة المقدونية، ضمن بعد ذلك أنْ تنتقل السلطة إلى ولديه ليو السادس، ثم الإسكندر البيزنطي، ومنهما إلى ابنه قسطنطين السابع، أدت خلافاته مع الكنيسة في روما إلى نشوء الانشقاق الرسمي بين الكنيستين الشرقية والغربية، ونشوء النظام الكاثوليكي والأرثوذوكسي، إذ وضع له باباه الجديد شجرة نسب ملفقة ترجع نسبه إلى ملوك أرمينيا، مما جعل له الحق الشرعي في المطالبة بعرش أجداده. حقق باسيليوس نجاحات كثيرة في حروبه مع العرب على الحدود الشرقية، ومع البيزنطيين الذين ثاروا عليه، ومع الروم الغربيين، إلاَّ أَنَّ إخفاقه في صقلية جعل معنوياته الحربية تنخفض، ليموت متأثرًا بحمى من جرح أصيب به في رحلة صيد، ولو أنَّ المصادر التاريخية تشير إلى إمكانية انتحاره بسبب هذا الجرح.

٤٢) الحملة الصليبية الرابعة: بَدَأَ التجهيز للحملة الصليبية الرابعة في (١٢٠١م) بدعوة من البابا أينوفينتوس الثالث، وكان الهدف منها احتلال القدس عن طريق الإنزال البحري من البندقية إلى مصر، ثمَّ الزحف إلى القدس، ولكن البندقية كانت على علاقة تجارية طيبة مع مصر، لذا فقد تم إبرام اتفاقية لنقل الفرسان والعتاد مقابل (٨٥٠٠٠) مارك ذهب، تدفع على أقساط قبل التحرك، واشترط البابا شرطه الغريب بأنْ لا يرفع السلاح في وجه مسيحي، ولكن لعبة دندالو العجوز كانت أكثر تحكما بمصير الحملة إذ إنَّه كان على علم

بأنَّ الصليبيين لن يستطيعوا الدفع، وفعلا تقاطر المقاتلون من كافة أنحاء أوروبة، وفي أواسط (١٢٠٢ وصل قائد الحملة الأعلى "بونيفاس دي مونفيرات"، الذي تواطأ مع دندالو وحولوا الحملة إلى القسطنطينية.. تلك المدينة الضعيفة المثقلة بالذهب، وأبحرت الأساطيل إليها، وما كان من إمبراطورها ألكسيوس الثالث إلاَّ أنْ فرَّ تاركا مدينته عرضة للسلب والنهب، وفي أبريل (١٢٠٤م) تم احتلال القسطنطينية، وأعرب البابا عن غضبه لذلك لكن على استحياء، وتقول المصادر إنَّه بارك الحملة سرًّا بهدف توحيد الكنيستين تحت مذهب واحد، وقسِّمت الدولة البيزنطية بين الصليبيين والبنادقة، وفقدت الحملات الصليبية مصداقيتها.. وبدا أنَّها ليست أمرًا دينيًّا إلهيًّا، بل.. مجموعة عصابات جشعة تبحث عن الثروة، وشاع جو من الفوضى في كل أنحاء أوروبة.. واشتغل البابا بحل النزاعات الداخلية، بينما بدأت المذاهب المسيحية المعادية للكنيسة بالظهور.

٤٣) إنريكو فيتال دندالو (١١٠٧- ١١٩٥- ١٢٠٥م) أو هنريكو أو هنري، الدوق الـ(٣٩) للبندقية، أحد المشهورين بكونهم العميان المعمِّرين العنيفين الذين تولوا الحكم، وهو صاحب الموقف المشين في الحملة الصليبية الرابعة، وبرغم ذلك فالإيطاليون يعتبرونه رمزًا خالدًا، ففي القرن ١٩ دشن الأسطول الإيطالي سفينة حربية كبيرة تحت اسمه، من المتوقع أنَّه فقد بصره تدريجيًّا بين عامي (١١٧٤- ١١٧٦م)، ولكن ذلك ظل طيَّ الكتمان حتى كشفه مؤرِّخ الحملة الصليبية الرابعة "جيوفري دي فلهارديوني"، ينتمي دندالو إلى أسرة عريقة سياسيًّا واجتماعيًّا، فهو ابن "فيتال دندالو" أحد القانونيين والمتمتع بعضوية في مجلس الدوقية الحاكم، والمستشار الخاص للدوق فيتال الثاني ميشيل، دوق البندقية، وعمُّه إنريكو دندالو كان بطريارك جرادو (أعلى

منصب في الكنيسة البندقية)، أمَّا هو "إنريكو فيتال" فقد كان سفير الدوقيات الإيطالية في القسطنطينية، وقائدًا عسكريًا لعدة سنوات، إلاَّ أنَّ أسرته اعتادت الحياة في الظِّل، حتَّى خرج إنريكو إلى العمل العلني على الساحة وهو ابن ستين سنة في الأزمة التي وقعت مع البيزنطيين عام (١١٧١م) حيث صادرت الإمبراطورية البيزنطية بضائع آلاف البنادقة وألقت بهم في السجن، فطالب الشعب الدوق بالتحرك السريع للأخذ بالثأر، فكان دندالو القائد لحملة استطلاعية للقسطنطينية حققت هدفها وعادت إلى البندقية، لكن الجماهير الغاضبة قتلت الدوق لتباطئه، وعين دندالو سفيرًا لحل الأزمة، وذهب للمفاوضات التي انتهت إلى اتفاقية عام (١١٨٦م)، إلاَّ أنَّ دندالو ظل يحمل البغض للبيزنطيين، وحينما بلغ (٨٥) أصبح دوق البندقية، وأظهر نبوغًا، وحكمة ميزت الرجل الضرير العجوز الذي جلس على كرسي الحكم، فقد صنع النظام الإقتصادي القوي للدوقيَّة بسَكِّ الجراسو الفضي "وتعني حرفيًّا: الكبير" وقلل نسبة الفضة فيه إلى (٩٨٪) مما فاد في المعاملات الخارجية، وجعله عملة المتوسط المشتركة ورفع من أسهم البندقية تجاريًّا، وقلل من قيمة الديناري الذهبي، الذي أصبح يسمَّى "بيكالو" أي الأصغر. وفيما يخص الحملة الصليبية، فقد أخذ على عاتقه التجهيز للحملة حتَّى أصبح أحد قادتها المهمين، وحينما لم يستطع الصليبيون دفع المبالغ المترتبة على الحملة للبندقية، أصبح له الأمر والنهي تقريبًا على الحملة، ولَمَّا انطلقت الحملة فكَّر في استغلالها لاستعادة ميناء زارا الذي أخذه البيزنطيون بموجب المعاهدة، وفعلا كان له ذلك، وحينما استقر في المدينة وفد عليه "ألكسيوس أنجيلوس" ابن "إسحاق الثاني" إمبراطور بيزنطا المخلوع، يطلب منه العون لإعادته على عرش والده، فوافق بغرض أنْ تدعم القسطنطينية الحملة الرابعة، وفعلا قاد

دندالو الحملة واحتل القسطنطينية في (١٢٠٤م)، مما جعل للصليبيين الكاثوليك سيطرة دائمة على إمبراطورية الأرثذوكس الشرقيين، وذلك ما سجَّلته الإمبراطورية اللاتينية الغربية على أنَّه انتصار للحملة الرابعة، بدأ دندالوا بالتجهز لضم بلغارية إلى دولته الجديدة، إلاَّ أنَّه هلك في (١٢٠٥م) ودفن في القسطنطينية في الجزء الشرقي من الدور الثاني من "كنيسة" أياصوفيا، خلال غيابه هذا حكم ابنه رينيه الذي قتل خلال الحروب مع جنوة للسيطرة على جزيرة كريت، وحفيدته أنّا تزوجت من ملك الصرب ستيفان الأول إلاَّ أنَّها لم تنجب، فانقطع نسل أنريكو نهائيًّا، وقد حكم الدوقيَّة بعده "بيدرو زاييني".

٤٤) تْشَارليز نيوتن: هو مستشرق إنجليزي، وأحد المنصفين إلى حد ما في نقل صورة الشرق إلى العالم الغربي، اهتم بالكتابة عن التاريخ العثماني، وبالتنقيب عن الآثار في إسطنبول ومصر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

٤٥) دارا الأول (بالعربية)، أو داريوس الأول (باللاتينية)، أو داريوش الأول (بالفارسية)، ويلقب كذلك بالكبير، الكسرى الفارسي الحادي عشر، وهو المؤسس الحقيقي للإمبراطورية الفارسية الأخمينية، حيث وحَّد الإمبراطورية تحت حكم أسرته، وقضى على الحكام الآخرين، وهو الذي أسس مدينة (برسيوبولس) عاصمة الإمبراطورية الفارسية (تقع حاليا بقايا قصورها شمال مدينة شيراز)، تولى الحكم وهو ابن عشرين سنة، وأعاد تنظيم الإمبراطورية إداريًا، وأهَّل البنية التحتية، وسهَّل البريد ليتمكن من تلقيه بشكل سريع، وسمح لليهود إتمام بناء الهيكل من جديد، وقد شنَّ حربًا لضمِّ اليونان وأسبارطة إلى الإمبراطورية، وخسرها، وهي الحرب المعروفة بسهل الماراثون..

أو سلاميس (٤٩٠ ق.م.)، مات إثر مرض عام (٤٨٦ ق.م.) ودفن في مكان يعرف بنقش رستم قرب بلدة مرودشت بشيراز.

٤٦) خشايارشاه الأول، أو أحشويرش، أو خرخس، أو سركس، تولى الحكم بعد وفاة والده صغيرًا، ورغم صغر سنه إلاَّ أنَّه استطاع إخماد كل الثورات التي قامت عليه في سنة، وحرَّك حملة لتأديب الإغريق انتقامًا لخسارة والده، ورغم انتصاره في معركة مترموبيل على الإسبرطيين الثلاثمائة الذين قادهم ليونيداس إلاَّ أَنَّهم كبَّدوه خسائر فادحة، ورغم اجتياحه لأثينا بعدها، وإحراقه لها، إلاَّ أنَّه خسر في معركة بلاتيا أمام الأثينيين، قُتل في بابل، ويعتقد أنَّه مدفون في الصليب الفارسي بنقش رستم.

٤٧) تمستوكلس الثالث (٥٢٥- ٤٦٠ق.م.) هو قائد أثيني، صاحب فكرة تحويل القوة الأثينية من برِّية تقاتل بالرمح والدرع، إلى بحرية تقاتل بالمجاديف بعد خسارة دارا الأول أمام اليونان، وهو الذي أنشأ السفن ثلاثية التجديف التي كانت السبب في انتصار الأثينيين على الفرس في عهد خشايارشاه، يذكر أنَّه بعد الانتصار تحوَّل إلى دكتاتور، وتكونت له ثروة ضخمة، فصوَّت مجلس الشيوخ الأثيني بالأغلبية ضده، فنُفي، ومن عجائب الصُّدَف أَنَّه اختار أنْ يكون منفاه عند الفرس، ومات مسمومًا هناك.

٤٨) السلطان سليمان الأول بن السلطان سليم الأوَّل، المعروف بالقانوني أو المشرِّع (٩٠٠- ٩٢٦- ٩٧٤هـ) الموافق (١٤٩٥- ١٥٢٠- ١٥٦٦م)، السلطان العاشر، والخليفة الثاني، وهو أطول السلاطين عمرًا في السلطنة، امتاز عهده بالتشريعات التي ضبطت الحكم.. والبلد.. والجند، والتي لا تزال تدرَّس بين أهم التشريعات العالمية، وامتاز بعلاقة طيبة مع الغرب، الذي أجبر على احترام السلطان الذي لم يخسر أي معركة.. والذي أخضع كبريات الدول

لسلطانه، وهو الذي دخل بغداد.. واستولى على تبريز عاصمة الدولة الصفوية، عدا مواجهته للمد البرتغالي والقضاء عليه في كل من اليمن وعمان والخليج العربي، وزادت مساحة الدولة الضعف في عهده، فقد ضمَّ الشمال الأفريقي وجزر البحر المتوسط، وكان الممول الرئيس لحملات خير الدين بربروسا على أسبانية، والتي كان من نتائجها حمل بقايا المسلمين من الأندلس إلى إسطنبول، ثم حمل اليهود الذين كانوا يعانون من الاضطهاد شأنهم شأن المسلمين إليها كذلك، والذي نشأ منهم يهود الدونمة،ترك السلطان بعد وفاته إرثًا حضاريًا عظيمًا، يكفي ليشهد عليه جامع السليمانية الذي لا يزال قائمًا في قلب إسطنبول، والذي بناه معمار سنان آغا، كان لتعلُّمه مهنة الصاغة وتعيير الذهب أثر في دقَّة أعماله، وقد خلفه على العرش ابنه سليم الثاني.

٤٩) الينيشارية: ومفردها الينيشاري، وتكتب وتنطق خطأً الإنكشارية، ذلك أنَّها تكتب بالعثمانية هكذا، وهذه الكاف في اللغة العثمانية تسمى الكاف النونية وليس لها مثيل في النطق بالعربية، وتنطق كالنون الحلقية المهمسة، فهي لا تظهر واضحة في النطق، ومعنى الكلمة هو (الجيش الجديد) "ييني" وتعني الجديد، "شاري" وتعني الجيش، وهي مجموعة فرق في الجيش العثماني تُدرَّب تدريبًا عاليا على فنون متعددة من فنون القتال كالفروسية والمبارزة والرمي والتهديف والجري.. وهم أشبه بفرق (المارينز) في الجيش الأمريكي، أسس هذا النظام السلطان أورخان الأول، وذلك نتيجة لتَكَوُّنِ طبقة من أيتام أبناء المقاتلين المعادين الذين يقتلون في الحرب، ومن الأطفال الأسرى الذين لا أهل لهم، في المدن والدول المفتوحة، فكانت الدولة تتكفَّل بتعليمهم اللغة والفقه والفروسية تحت إشراف المتصوف "حاج بكداش ولي" مؤسس الطريقة

البكداشية، والمربي الروحي لفرقة الينيشارية.. وبعد أنْ تمَّ إعدادهم الديني والعلمي والعسكري ضُمُّوا إلى الجيش حتى أصبحوا فيما بعد أكبر فرقه وأقواها، لم يكن لهم ولاء لغير السلطان، ولا يعرفون لهم أبًا غيره، وكانوا في أوقات السلم يعيشون في ثكنات تابعة لقصر السلطان، فيما بعد أصبحوا من القوة بمكان أنْ غيَّروا السلاطين، وتولَّوا المناصب العليا في الدولة، وكانت هناك محاولات من بعض السلاطين لحد نفوذهم كان آخرها المواجهة بينهم وبين السلطان محمود الثاني التي انتهت بالقضاء عليهم. كان للينيشارية قوة مميزة.. حتى اشتهر في المثل الإنجليزي: "أصعب من أنْ تقاتل تركيًّا.. أنْ تقاتل تركيَّيْن"، وكان لهم لباسهم الخاص المأخوذ من لباس دراويش البكداشية، فالطَّاقيَّة الطويلة التي تكنِّيْ عن شاهد القبر، واللباس الأبيض الناصع الدَّال على الكفن، إلاَّ أنَّهم يمتازن عن الدراويش بالقطعة المنسدلة من الطاقية، والتي تشير إلى كونهم من مريدي الشيخ بكداش، والقصَّة أنَّ السلطان أورخان لَّما جاء لزيارة (أبنائه) الجدد بعد أنْ انتهى إعدادهم كان الشيخ بكداش يكلمه عنهم وهم جلوس وهو واقف، فتعلَّق كمُّ ثوبه الطويل بقبَّعة أحدهم، فاتَّخذوا هذا الشعار تبركًا بالشيخ، وقد تلونت ملابسهم فيما بعد على حسب الفرق التي ينتمون إليها.

٥٠) الصدر الأعظم: لقب لرئيس الوزارة في العهد العثماني، وهو الذي كان يدير شؤون الدولة الداخلية، وينظم ماليتها وجيوشها، وقد قام كثيرون ممن قُلِّدوا الصدارة في تاريخ الدولة بأعمال جليلة، ولعبوا دور (الشخصيات الورائية) لكثير من السلاطين، ومن أولئك أسرة كوبرللي التي كان لها الفضل في مد عمر الدولة العثمانية، وزرع مكانة عالية لسلاطين لم يكونوا يستطيعون إدارة دولتهم.

٥١) إيْمِيْنونو: وتعني الجبهة البارزة.. "إيمين" وتعني البارزة أو الظاهرة أو الناتئة، و"أونو" وتعني الجبهة أو الواجهة، وذلك لكون المنطقة هي أكثر المناطق بروزًا على الواجهة البحرية للبوسفور وبحر مرمرة، وأصل الكلمة بيزنطي.

٥٢) هو عثمان الأول بن أرطغرل بك (٦٥٧- ٦٩٩- ٧٢٥- ٧٢٦) الموافق (١٢٥٨- ١٣٠٠- ١٣٢٤- ١٣٢٦م)، ولي عهد والده الذي كان أحد أتابك السلطان علاء الدين السلجوقي، وهو قائد جيوش السلاجقة العام، ومؤسس الدولة العثمانية، والمنتخب من أمراء دولة السلاجة لخلافة السلطان علاء الدين، بعد أنْ قتله المغول، أسس سلطنته التي كانت على الحدود مع البيزنطيين أو "الروم" في ذلك العهد، واستطاع إخراجهم من آسيا الصغرى نهائيًا، وأرسل ابنه أورخان على رأس جيش لمحاربة المغول، وهزمهم واستولى على بورصة، تنازل عن السلطنة لابنه أورخان ليتفرغ هو للعبادة، ويموت بعدها بعامين.

٥٣) تركواز: ومعناها اللون التركي، وهو ناتج عن خلط اللونين الأخضر الفاتح (لون العشب)، والأزرق السماوي (لون السماء)، وهو اللون الدارج في كل المشغولات التركية.. وبالأخص العين الزرقاء التي يعتقد البعض أنَّها تعويذة ضد السحر والشعوذة.

٥٤) الحي التركي: وهو الطراز الذي وضع أساسه معمار سنان، وبنيت على أساسه جميع المساجد التركية.. سواءً في تركيَة أو في المناطق التي يفتحها العثمانيون، ولا تزال الأحياء التي تحيط بهذه المساجد تسمى بالأحياء التركية في كلِّ تلك المناطق في آسيا وشرق أوروبة، وتقوم هذه الأحياء على أساس أنْ يبنى قبل المسجد مجموعة مبانٍ سكنية تكون وقفًا يعود ريعه على المسجد، ومن بينها دار الإطعام، والتي تقدِّم الطعام مجانًا للفقراء، ثمَّ يبنى السوق

الذي يؤجَّر ويعود ريعه على المسجد وملحقاته، ثم دار الشفاء.. أو المستشفى، والحمام، والمكتبة، والمدرسة، وسبيل الماء، والمقبرة الموقوفة في كثير من الأحيان.

٥٥) حريق إسحاق باشا: حريق نشب أوَّل ما نشب في أحد الأكواخ الخشبية الواقعة في حي إسحاق باشا وهو المنطقة الواقعة بين جامع السلطان أحمد وجامع أيا صوفيا، والتي تسمى حديقة سلطان أحمد اليوم، وقد كان سببه أنَّ أحد الطبَّاخين قام بوضع الباذنجان في الزيت المغلي فثارت النار وأتت على الكوخ وأجزاء كبيرة من المنطقة، وقد حُظِرَ بعدها قلي الباذنجان في إسطنبول، واستمر ذلك لمدة خمس سنوات تقريبًا.

٥٦) وهو نادر شاه الأفشاري التركماني (١٧٣٦- ١٧٤٧م)، كان جنرالا من جنرالات الصفويين، وهو الذي قاد حرب التحرير ضد الأفغان الغلزويين الذين احتلوا الإمبراطورية الصفوية في عهد الشاه حسين الأول، وحرَّرها.. ونصَّب طهماسب الثاني (١٧٢٢- ١٧٣٢) شاهًا لها، ثم عزله ونصب ابنه عباس الثالث (١٧٣٢- ١٧٣٦م)، ثمَّ لما مات عباس الثالث استأثر هو بالسلطنة، وقد وصل في مطاردته للأفغان إلى أنْ استعاد كل الدولة الصفوية منهم، وضم دولتهم، ثم دخل دلهي، وكان ممن يدعون إلى إيجاد لغة تفاهم مشتركة بين الشيعة والسنة، وخلق مذهب موحد يوحد المسلمين، وهذا كان سبب قتله، ويروى في قصة طويلة أنَّه اغتيل على يد أحد وزرائه لاعتناقه المذهب السني، بعد مقتله لم تدم الدولة طويلا، إذ احتلها الزند.. ثم تأسست دولة القاجاريين من بعدها.

٥٧) السلطان محمود الأول بن مصطفى الثاني (١١٠٧- ١١٤٣- ١١٦٨هـ) الموافق (١٦٩٦- ١٧٣٠- ١٧٥٤م)، السلطان العثماني الرابع والعشرون،

والخليفة الإسلامي السابع عشر، تولى الحكم بعد عمه أحمد الثالث، وكان عمره خمسًا وثلاثين سنة. في عهده جرى قتال مع الصفويين، وانتصر على الشاه طهماسب الثاني، وعقد صلحًا مع نادر شاه الذي عزل طهماسب وولى عباس الثالث بن طهماسب، تخلى العثمانيون بموجب الصلح عن تبريز، وهمذان، وإقليم لورستان، وصفت العلاقات العثمانية الصفوية من بعدها. وفي عهده نشبت حروب مع روسية إثر احتلال روسية لبعض مناطق الدولة العثمانية، وانتصرت الدولة العثمانية على الصرب والنمسة، واستردت بلجراد والأفلاق، وتعهدت روسية بعدم بناء السفن في البحر الأسود، بعد وفاته خلفه أخوه عثمان الثالث.

٥٨) أركاديوس بن ثيودوسيوس الأول (٣٧٧- ٤٨٠م) هو الإمبراطور السادس بعد قسطنطين الأول أي بعد إنشاء القسطنطينية، وأوَّل إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الشرقية بعد الانفصال بين الإمبراطوريتين، إذ استقلَّ أخوه هونوريوس عنه بحكم روما في (٣٩٥م)، كان ضعيف الشخصية، فتحكَّمت في الحكم زوجته "إيودوكسيا"، "الأودوكسية" الديانة (وهي إحدى الديانات الوثنية القديمة)، وكان أمر الديانة في يد البطريارك إيوانوس خريستومس أو (يوحنَّا فم الذهب)، فنشب صراع بينهما انتهى بالثورة التي أحرقت المدينة كانتقام من الديانة المسيحية على يد الأودكسيين.

٥٩) ثيودوسيوس الثاني بن أركاديوس (٤٠١- ٤٥٠)، أصبح الإمبراطور بعد عزل والده وهو ابن (٧) سنوات، وأثَّرت عليه أخته الكبرى بولكياريا، والتي تولت العناية به، فجعلت منه مسيحيًّا أرثذوكسيًّا، وهو الذي أمر بعقد المجمع المسكوني الثالث المسمَّى بمجمع أفسيس الثاني

٦٠) جستنيان الأول (٤٨٣- ٥٦٥) أو يوستانيانوس أو فلافبوس بتروس ساباتيوس يوستيانوس، ويعرف كذلك بالإمبراطور الروماني الأخير، وهو أحد قديسي الكنيسة الأرثوذوكسية (عيده في ١١/١٤)، تولى العرش بعد وفاة عمه جستن الأول، وكانت فترته الأولى فترة اضطرابات وحروب مع الفرس، ولكنه قام بإصلاحات في القانون واتسم عهده بالاتساع العسكري إذ كان يدفع للقبائل الموجودة على حدود بلده لتعلن تبعيتها للدولة، وأنهى حربه مع الفرس بدفع ضريبة معينة لهم، وتزوَّج بالإمبراطورة ثيودورا التي أنقذت عرشه من ثورة نيكيا، وقد غزا شمال إفريقية.. وإيطالية.. وشبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانية الحالية).

٦١) تمرُّد نيقيا: بدأ التمرد بصراع بين حزبي الزرق والخضر اللذان كانا فرقًا رياضيَّةً وتحولا إلى حزبين سياسيين اتحدا ضدَّ الإمبراطور وحكومته، وبدآ في التغلب حتى على القوات الحكومية، ووصلا إلى قصر جستنيان وحاصروه، فأرسلت زوجته تيودورا قائدها أريوس الذي أنهى الصراع بقتل (٣٠٠٠٠) نسمة من الحزبين، وبسيطرة الحكومة على الحياة السياسية للدولة.

٦٢) تورجوت أوزال (١٣٤٥- ١٤١٣هـ) الموافق (١٩٢٧- ١٩٩٣م)، الرئيس التركي الثامن للجمهورية التركية (١٩٨٩- ١٩٩٣)، وكان قبلها قد شغل منصب رئاسة الوزراء (١٩٨٣- ١٩٨٩)، سياسي ليبرالي، كان له دور في دفع عجلة التقدم الاقتصادي التركي، ومحاولات لضم تركيَة إلى الاتحاد الأوروبي.

٦٣) السرافين أو السرافيم الأربعة: هي صور توضع في سقوف الكنائس للملائكة الأربعة الكبار الذين يحرسون العرش.. كائن له ستة أجنحة.. إثنان يغطي بها وجهه.. واثنان رجليه.. واثنان يطير بهما لتنفيذ أوامر الرب.. ويقال إنَّه كائن

(خرافي) في بعض الكتب المسيحية لم يرد ذكره إلاَّ في نبوءات أشيعا، وأنَّه وجدت له صور في لبنان، وتماثيل في مصر.. رأسه رأس أسد.. وجسمه جسم نسر وهو (سرافي).

٦٤) المشدودات الجلدية: هي لوحات من الخشب.. مدورة.. مشدود عليها جلد جمل.. ومطلية في العادة بالأخضر.. وتكتب عليها في العادة اسم الله ثم النبي محمد ﷺ، فالخلفاء الراشدون، فآل البيت، فالعشرة المبشرون بالجنة، رضي الله عنهم أجمعين.

٦٥) السلطان مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني (٩٥٣- ٩٨٢- ١٠٠٣هـ) الموافق (١٥٤٦- ١٥٧٤- ١٥٩٥م)، الخليفة العثماني الرابع، والسلطان العثماني الثاني عشر، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه، وأصدر قرارًا بمنع شرب الخمر، وتحريم السجائر، فثارت عليه الينيشارية، فتخلَّى عن قرار تحريم السجائر، جدد امتيازات فرنسة والبندقية، وأدخل بولونية تحت الحماية العثمانية، وفي عهده حدثت معركة الخزَّان (الملوك الثلاثة) في المغرب بين المنصور السعدي، والمتوكل السعدي، واستعان المتوكل بالبرتغاليين، فدعم السلطان المنصور الذي انتصر جيشه في هذه المعركة بعد استشهاده وتولية ابنه، بعد توليه بثلاثة أعوام ضمَّ "الكرج" إلى الدولة العثمانية، و"تفليس" ثم ضمَّ "شروان" الواقعة اليوم في أذربيجان، وأرسلت حملة تأديبية لخان القرم، إلاَّ أنَّ أخاه قام بقتله، فقام عثمان باشا (قائد الحملة) بتوليته مكان أخيه، ووقع الصفويون معاهدة مع العثمانيين تنازلوا بموجبها عن كثير من الأقاليم للعثمانيين، وفي أواخر حكم السلطان قام حكام الدول في شرق أوروبة بالثورة على الدولة، والانضمام إلى النمسة، فحرَّك جيشًا لتأديبهم بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا، ودخل "بوخارست"، وحاصر الأفلاق إلاَّ أنَّه لم

يدخلها، ثمَّ انسحب الجيش العثماني إلى منطقة شرق نهر الدانوب، وفي هذه الأثناء توفي مراد الثالث، فخلفه على العرش ابنه محمد الثالث.

٦٦) الفترة الهلنستية: وهي الدولة التي أسسها الإسكندر المقدوني، وامتدت من بحر الصين شرقًا، إلى المحيط الأطلسي غربا، وشملت كل بلاد اليونان.. والفرس.. والسند.. والفراعنة في دولة واحدة.

٦٧) مجلس الخطيب: وهو مكان يجلس عليه خطيب أو شيخ ليعلم الناس تعاليم الدين، قبيل صلاة الظهر من كل يوم، ولا تزال هذه العادة موجودة في تركيَة إلى يومنا هذا.

٦٨) السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول (٩٣٠- ٩٧٤- ٩٨٢هـ) الموافق(١٥٢٤- ١٥٦٦- ١٥٧٤م) الشهير في المصادر الغربية بالسكران، الخليفة العثماني الثالث، والسلطان العثماني الحادي عشر، تقلد السلطنة بعد وفاة والده، ومقتل أخيه الأكبر، كان صادفًا عن أمور السياسة، إلاَّ أنَّ الدولة كانت تعيش العهد الذهبي الذي صنعه والده، عدا وجود الصدر الأعظم محمد الصقلي والوالي القائد سنان باشا الألباني، كانت الانتصارات التي تحققت في عهده على يد هذين الرجلين كبيرة، فقد طلبت النمسة عقد صلح دفعت بموجبه الجزية للدولة، وجددت فرنسة وبولونيا معاهدات السلام مع الدولة، وفتحت في عهده قبرص، وقام والي مصر سنان باشا بطرد الأسبان من تونس. وفي اليمن، ثار المطهر بن شرف الدين على الدولة، فقضى والي مصر سنان باشا على الثورة، كما تم القضاء في عهد السلطان سليم على الثورة في أوروبة الشرقية، وهزيمة التحالف النصراني الذي عقده البابا مع الأسبان والبنادقة والمالطيين، والذي كان له الحظ في الانتصار على العثمانيين في معركة بحرية سابقة في عهده، توفي السلطان سليم الثاني متأثرًا

بإصابة سببها الانزلاق في الحمام، إلاَّ أنَّ المصادر الغربية تشير إلى كون سبب وفاته هو إفراطه الشديد في شرب الخمر.

٦٩) كلمة كلية.. أو جامعة.. أو جامع، تطلق على المجمعات العثمانية التي كانت تبنى حول المساجد، وهو نظام نقله العثمانيون من السلاجقة، وانتقل إليهم من العباسيين.. وتضم عادة المدارس الابتدائية.. والعليا.. والمتخصصة، ومكاتب العلماء.. والمكتبات، وبعد تطوير المعمار سنان لنظام الحي التركي أصبحت كلمة كلية تطلق على هذا النظام.

٧٠) السلطان بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني (٨٥٦- ٨٨٦- ٩١٨هـ) الموافق (١٤٥٢- ١٤٨١- ١٥١٢م)، السلطان العثماني الثامن، وأكبر أبناء أبيه، تولى العرش بعد وفاة والده وبعد نزاع مرير مع أخيه "جم"، كان شاعرًا.. فنانا.. متصوفًا.. يميل إلى السلام، فقد عقد معاهدة سلام مع النمسة، وتوقفت في عهده الفتوحات التي كان تحرك فيها والده في أوروبة، وفي عهده أسقط الشاه إسماعيل الصفوي الإمارات التركمانية المتاخمة لحدود العثمانيين، واعتدى على بعض القرى العثمانية، فلمَّا أدَّبه والي طرابزون سليم خان بن بايزيد.. اشتكى الصفوي إلى السلطان، فأعاد له السلطان ما استعاده سليم من أراضٍ، وفي عهده توقف الخلاف بين المماليك والعثمانيين، ذلك أنَّ البرتغاليين وصلوا إلى المحيط الهندي، فاستنجد سكان كيرلا بالخليفة العباسي المقيم في مصر، فأمر السلطان المملوكي بإنجادهم، فقام السلطان بايزيد بإعلان الهدنة، وإرسال سفن من البحرية العثمانية كهدية للمساهمة في الحرب ضد البرتغاليين، كان الأمير سليم خان بن بايزيد يرغب في الاستمرار في الفتوحات، وبعد محاولاته استطاع إقناع والده بأن يوليه اللواء الغربي من الدولة، وبدأ فعلا باستئناف حركة الفتوحات، فلما لمس السلطان ذلك دعاه

إلى إسطنبول وتنازل له عن السلطنة وتفرغ هو للعبادة، وتوفي في نفس العام الذي تنازل فيه.

٧١) محمد الأول بن بايزيد الصاعقة (٧٨٩- ٨٠٥- ٨٢٤هـ) الموافق (١٣٨٧- ١٤٠٣- ١٤٢١م) "محمد جلبي"، أوَّل السلاطين بعد فترة السواد، السلطان الخامس من سلاطين آل عثمان، بعد مقتل أبيه في معركة أنقرة جمع فلول الجيش ولاحق جيوش تيمور لنك وهزمها، ثمَّ عاد فادَّعى كل واحد من إخوته الأربعة السلطنة، فقاتلهم وقتلهم، ثمَّ سنَّ القانون الذي يقضي بأن يقتل السلطان إخوته حال اعتلائه العرش، نقل العاصمة من بورصة إلى أدرنة في خطوة نحو فتح القسطنطينية، لم يستطع فتحها لكون الإمبراطور مانويل الثاني قد آوى أخاه مصطفى داخل أسوار المدينة، أصلح البلاد، واستكمل بناء قرة حصار، وجهَّز لحرب الفتح، وقام ببناء أسطول بحري قوي، وأعاد الاستقرار إلى دولته، توفي في أماسيا وحُمِل ودفن في بورصة.

٧٢) السلطان أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم بن أحمد الأول (١٠٨٤- ١١١٥- ١١٤٣- ١١٤٩هـ) الموافق (١٦٧٣- ١٧٠٣- ١٧٣٠- ١٧٣٦م) السلطان العثماني الثالث والعشرون، والخليفة العثماني الخامس عشر، تولى السلطنة بعد أخيه مصطفى الثاني وهو ابن اثنين وثلاثين عاما، أجزل الأعطيات للينيشارية حتى إذا وثقوا به أعدم قادتهم، في عهده بدأ بطرس الأكبر قيصر روسية حركته التوسعية على حساب جيرانه ومنهم الدولة العثمانية، وكان أنْ هزم بطرس الأكبر السويد وفر ملكها إلى مدينة بندر العثمانية، وبدأ بتحريض السلطان على قتال الروس إلاَّ أنَّه لم يستجب، حتى تولى الصدارة بلطه جي باشا الذي حارب الروس وهزمهم واستعاد السيطرة على حوض البحر الأسود، استعاد العثمانيون في عهده السيطرة على شبه

الجزيرة اليونانية، ودخلوا في حرب مع النمسة أدَّت إلى خسارتهم وعقد معاهدة صلح تنازلت بموجبها الدولة للنمسة عن الكثير من الأراضي، ثم تحول الجيش إلى الحدود الشرقية وبدأ بالتوسع، إلاَّ أنَّ السلطان آثر السلم وأوقف الحروب فثارت عليه الينيشارية وعزلته في (١١٤٣هـ) وولت بعده محمود الأول بن مصطفى الثاني، في عهد أحمد دخلت الطباعة إلى الدولة، وأسست دار الطباعة بإسطنبول.

٧٣) فَرَمَان قَتل الإخوة: نشأت هذه العادة في عهد السلطنة، وحينما تمكن تيمورلنك من هزيمة السلطان بايزيد الأول الصاعقة وقتله، وتولى الأمر محمد جلبي بن بايزيد الذي أصبح فيما بعد محمد الأول، فثار عليه إخوته عيسى جلبي (الذي استقل ببورصة) وسليمان جلبي (الذي استقل بأدرنة والمناطق الأوروبية وأعطى البيزنطيين سيلانيك وسواحل البحر الأسود ليساعدوه ضد إخوته)، أمَّا محمد فقد أعاد جمع جيش والده وبدأ بمحاربة التتار حتى أخرجهم من الأناضول، واستعاد أخاه موسى من أسر ملك الكرمان الذي وضعه فيه تيمورلنك، وبدأ بمراسلة إخوته الذين حاربوه، وبدأت الولايات العثمانية بالانفصال.. حتى كادت الدولة أنْ تضمحل، ولكنه حارب إخوته وقضى عليهم، وكان أخوه موسى هو من يقود الحروب ضد سليمان، فأعلن التمرد على محمد الذي قضى عليه في حروب متتالية، ثم ظهر أخوه الرابع مصطفى جلبي الذي أعلن نفسه سلطانًا فقاتله محمد وهزمه ففر إلى سيلانيك، ومنها إلى القسطنطينية، فطلب محمد من الإمبراطور البيزنطي "مانويل الثاني" أنْ يسلِّمه، إلاَّ أنَّ الإمبراطور رفض، واستخدمه كورقة ضغط يحمي بها نفسه من محمد، فَقَبِلَ محمد بأنْ يصرف لمصطفى راتبًا شهريًا بشرط أنْ يبقيه الإمبراطور البيزنطي تحت الإقامة الجبرية، وعلى هذا الأساس وضع محمد في

الدستور العثماني أنَّ على كل فرد يتولى السلطنة أنْ يقتل كلَّ إخوته واستمرت هذه العادة حتى جاء أحمد الأول وألغاها، فمن الفظائع أنَّ والده محمدًا الثالث بن مراد الثالث أمر حين تولى السلطنة بخنق إخوته التسعة عشر، فدفن في صبيحة وفاة والده (٢٠) نفسًا.

٧٤) السلطان محمود الثاني (١١٩٩- ١٢٢٣- ١٢٥٥هـ) الموافق (١٧٨٥- ١٨٠٨- ١٨٣٩م)، هو السلطان الثلاثون من سلاطين آل عثمان، والخليفة الثاني والعشرون، وهو أوَّل من استبدل اللبس الإسلامي بالطربوش والبدلة، وهو الذي أسس الجيش النظامي العثماني، الذي كان منفصلاً عن الينيشارية، ثم أعلن تسريحهم فثاروا عليه وقضى عليهم بحرب رفع فيها راية الرسول ﷺ، وهو الذي بدأ بتغريب الدولة العثمانية، جلس على تخت الخلافة وهو ابن أربع وعشرين سنة، وحاول إصلاح الينيشارية وإلزامهم بقوانين السلطان سليمان القانوني التي تركوها إلاَّ أَنَّهم رفضوا ذلك، وثاروا عليه في العام (١٢٢٣هـ) فخضع لهم مؤقتًا، وفي (١٢٤٠هـ)قام بحربهم، وانتصر عليهم ثم بدأ بإصلاحات واسعة في الجيش، والتعليم، والمواصلات والطرق والبريد والسكة الحديدية، وأدخل خدمة البرق، وكذلك أنشأ الجريدة الرسمية، وقام بأوَّل إحصائية للمزارع في الدولة، كما كانت له إصلاحات في الأوقاف والعمران، وفي عهده دخلت الدولة في حرب مع روسية، وفي حرب مع واليها على مصر محمد علي الذي كاد أنْ يصل إلى العاصمة بجيوشه لولا تدخل الدول الأوروبية، وقد توفي السلطان بداء السل في إسطنبول.

٧٥) "السلطان ظل الله في الأرض..." حديث ضعيف.

٧٦) الإمبراطور ليو الثالث إيساوروس(٧١٧- ٧٤١م)، أو إليون الرومي المرعشي، هو أوَّل الأباطرة الروم الشرقيين من الأسرة السورية التي حكمت

في الفترة (٧١٧- ٨٢٠م)، كان دليلاً للجيش الإسلامي الذي قاده مسلمة بن عبد الملك الأموي في عهد أخيه سليمان لفتح القسطنطينية، فلمَّا حاصرها أرسل إليه أهلها بأنَّهم يريدون أنْ يصالحوا، فأرسل إليهم إليون لمناقشتهم، فعرضوا عليه إنْ خذَّل عنهم المسلمين حتى يتجهزوا ويأتيهم المدد من البلغار أنْ يعينوه ملكًا، فذهب لمسلمة وقال له إنَّهم سيستسلمون فتنحَّ عنهم حتى يتجهزوا وحلف لمسلمة بذلك، وفعلاً تنحَّى مسلمة، فتجهَّز أهل المدينة وحصَّنوها، ودخلها إليون، فأصبح ملكها، ثمَّ أرسل يستنصر ملك البلغار، الذي أرسل لمسلمة ينبئُه برسالة إليون، وأنَّه تحت أمره، فقال له مسلمة نحن لا نريد إلاَّ الزاد، فأرسل إليه ملك البلغار بأنَّه أقام سوقًا في مكان يستطيع المسلمون التميُّز منه، ثمَّ غدر بقرابة (١٢٠٠٠) من المسلمين حسب المصادر اليونانية، فأرسل سليمان من فتح البلغار ومدَّ جيش مسلمة الذي بقي محاصرًا للقسطنطينية حتَّى استرجعه عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، أمَّا ليو الثالث، فقد زاد في تحصين المدينة، وحشد الجنود، وهو صاحب فكرة السلسلة الحديدية على مدخل القرن الذهبي لحماية المدينة من المسلمين، ويقال إنَّه رشا المسيحيين العاملين في الأسطول البحري الإسلامي الذين هربوا من الجيش الإسلامي مما أضعف موقفه في المعركة.

٧٧) ألغيت الخلافة في عهد السلطان محمد وحيد الدين السادس (١٢٧٧- ١٣٣٦- ١٣٤١- ١٣٤٤) الموافق (١٨٦١- ١٩١٨- ١٩٢٢- ١٩٢٦م) في (١٩١٨م)، وسقطت الدولة العثمانية بخلع السلطان عبد المجيد الثاني (١٩٢٢- ١٩٢٤- ١٩٤٤م) في (١٩٢٤م).

٧٨) مصطفى الثالث بن السلطان أحمد الثالث (١١٩٢- ١١٧١- ١١٨٧هـ) الموافق (١٧١٧- ١٧٥٧- ١٧٧٤م)، السلطان العثماني السادس

والعشرون، والخليفة الثامن عشر، تولى بعد ابن عمه عثمان الثالث وهو ابن (٤٢) عاما، قام بحملة تأديبية للروس وحققت الدولة انتصارات في بادئ الأمر، إلاَّ أنَّ روسية انتصرت على العثمانيين بعد ذلك واستولت على شبه جزيرة القرم، والبغدان والأفلاق، فقام السلطان بقتل الصدر الأعظم الذي كان يقود المعركة، وعقدت مفاوضات بين الروس والعثمانيين عن طريق النمسة ولكن المفاوضات فشلت، وفي عهده ثار نصارى اليونان بدعم من روسية، إلاَّ أنَّ العثمانيين قمعوا الثورة وهزموا الأسطول الروسي، وحرَّضت روسية والي مصر علي بك الكبير على الثورة، وثار فعلا، إلاَّ أنَّ نائبه محمد بك أبو الدهب ثار عليه وقتله، وللسلطان أعمال تعميرية كثيرة.. منها إنْشاؤه لنظام الحجر الصحي وتطويره.

٧٩) الآغاوات: كانت القصور منذ العهد العباسي المتأخر.. وفي كل الدول الإسلامية تُخدم بثلاثة أنواع من الخدم: (١) الجواري، وهم من النساء، ويقمن بالخدمة الداخلية للغرف.. ولنساء السلطان، و(٢) الآغاوات الداخليين، ومعنى كلمة "آغا" في التركية والفارسية هي السيِّد، وكانوا في العادة من العبيد السود الأشداء، وهم من يقوم بأمور الحماية.. والحراسة.. وتدبير شؤون القصر الداخلية، وخدمة الحرملك، وهم من يسمح لهم بدخول غرف الحرملك، و(٣) الآغاوات الخارجيين، وهم في العادة من البيض، وكانوا يقومون بالحراسة في المساحات غير الحرملك من القصر، وحماية السلطان، وتدبير شؤون السلاملك (أو منطقة السلام والاستقبال الخاصة بالرجال).. والمسماة أيضًا بالمابين في القصور، وعادة ما يكون الآغاوات الداخليين أعلى رتبة من الآغاوات الخارجيين، ويجب أن يكون الآغاوات من العبيد المخصيين.

٨٠) السلطان محمد الرابع بن إبراهيم (١٠٥٢- ١٠٥٨- ١٠٩٩- ١١٠٤هـ)، الموافق (١٦٤٢- ١٦٤٨- ١٦٨٧- ١٦٩٣م) هو السلطان التاسع عشر للسلطنة، والخليفة العثماني الحادي عشر، تولى الخلافة بعد عزل والده إثر تمرد الينيشارية عليه، تولى الحكم وهو ابن سبع سنين، فأخذت جدَّته "كوسم مهبكير" الوصاية مما زاد الأمور سوءًا.. وزاد من تحكُّم الينيشارية بالبلاد، وبعد (٣) سنوات توفيت، لتتولى الوالدة سلطان "خديجة تاري خان" الوصاية فقامت بالبحث عن شخص مناسب ليتولى زمام الأمور، فكان ذلك الشخص هو الصدر الأعظم محمد باشا كوبريللي الذي تولى الصدارة في (١٠٦١هـ)، فأعاد الاستقرار للداخل العثماني والولايات، وفي (١٠٦٦هـ) تم إعلان رفع الوصاية عن السلطان، وباشر هو عمله، فثبَّت كوبريللي في الصدارة، فضرب حينها الينيشارية بيد من حديد، وقمع ثورتهم، وأجبرهم على احترام النظام، وأعاد توجيههم إلى الأعمال العسكرية، فشنَّ حملة دفاعية على البنادقة الذين سيطروا على مضيق الدردنيل، فهزمهم وطردهم، وبدأت الدولة في العودة إلى مركزها المرموق، وفي (١٠٧٢هـ) توفي كوبريللي، فعيَّن السلطان في الصدارة ابنه أحمد كوبريللي (٢٦ سنة) أصغر صدر أعظم في التاريخ العثماني، الذي التفت إلى الجبهة الخارجية بعد أنْ نظَّم والده الداخل.. وأوكل أمور الداخل إلى زوج أخته قرَّة مصطفى باشا، وأعلن الحرب على النمسة التي اعتدت على الحدود واغتصبت بعض الأراضي، فتحرك بجيش ضخم وحاصر قلعة نوهزل (شمال بودابست) لمدة شهر تقريبا، فصالح حاميتها، وأخرجهم بلا سلاح ولا مؤن، واستسلمت في إثرها (٣٠) قلعة نمساوية، وطلبت النسا إعادة تفعيل الصلح ودفعت تكاليف الحرب، ثمَّ اتجه أحمد إلى جزيرة كريت، فاستكمل فتحها، وفي تلك الأثناء اعتدى البولونيون

على القوقاز، فحاربهم العثمانيون، مما اضطرهم للتسليم وطلب الصلح، وفي (١٠٨٧هـ) توفي أحمد كوبريللي، فتولى زوج أخته قرة مصطفى الصدارة، وفي (١٠٨٩هـ) اعتدت روسية على أوكرانيا، فتحرك السلطان شخصيا مع قرة مصطفى في أوَّل حملة لسلطان عثماني على روسية، فاستعادت قلعة (جيهير) ثمَّ شنَّ السلطان حملة ثانية انتهت بمعاهدة أدرنة بين الدولتين، دفعت بموجبها روسية الجزية للعثمانيين سنويا، عدا دفع تكاليف الحرب والمبالغ المتأخرة من الجزية، وفي (١٠٩٤) وردًا على التدخل النمساوي في شؤون المجر التابع للعثمانيين، ضرب الجيش العثماني بقيادة قرة مصطفى حصارًا على فيينا، إلاَّ أنَّ خيانة من رئيس الفرقة التي كانت تحاصر الجسر بين فينا وأوروبة أوصلت المؤن والإمدادات إلى فيينا، فلما نشبت الحرب انهزم العثمانيون، وبعد هذه الهزيمة أرسل السلطان من قَتَلَ قرة مصطفى قبل عودته إلى إسطنبول، وفي (١٠٩٨هـ) خسر العثمانيون مرة أخرى أمام التحالف المقدَّس في معركة موهاكوس.. فما كان من الجيش إلاَّ أنْ عَزَل السُّلطان، وولَّى مكانه أخاه سليمان الثالث.

٨١) منارة الحساب: هي المنارة القائمة على مبنى الحرملك، ومدخلها منه، وتشرف على "سعادة ميدان"، وفي الأغلب أنَّها بنيت مع بناء القصر إذ أنَّها تستخدم ليشرف منها سيدات القصر على استقبالات السلطان في الاحتفالات والأعياد، ولو أنَّ بعض المصادر تذكر أنَّها بنيت في عهد السلطان محمد الرابع لمراقبة الساحات الخارجية، وردع ثورة الينيشارية، والتي سيأتي ذكرها في لآخر الحديث عن "سبيل غليوم"، في "اليوم الثاني"، تحت عنوان "في محيط سلطان أحمد".

٨٢) قبه آلتي: وتعني القبب الست حسبما تبين لي من الترجمة، إلاَّ أنَّ هناك من ترجمها إلى "أسفل القبة" إذ أنَّ المكان يقع تحت قبَّة كبيرة بقرب باب السعادة.. وبذلك تكون الكلمة المفروضة هي "ألتندا قبه" أو تحت القبة.

٨٣) غرفة السماع السرِّية: لم يكن السلاطين الأوائل يعتمدون في الإبهار على بهرجة القاعات والقصور بقدر ما يعتمدون على زرع المهابة والإجلال لشخص السلطان، فقد كان السلطان يجلس في غرفة استماع سرِّية، مخفية، متصلة بديوان الصدر الأعظم يصل إليها طريق من الحرملك اسمه الطريق الذهبي، لم يكن يملك مفاتيح أبوابه إلا السلطان، فإذا استقبل ضيفًا، أو عقد اجتماعًا بالوزراء استمع السلطان للنقاشات التي تدور بين الضيف والصدر الأعظم، ثم عن طريق الطريق الذهبي يعود إلى ديوانه قبل وصول الضيف، فإذا دخل عليه تفاجأ بمعرفة السلطان الكاملة بالأمر، ولا يستطيع أحد أنْ يعرف إنْ كان السلطان في غرفة الاستماع أم لا.. حتى الصدر الأعظم لم يكن يستطيع معرفة ذلك، وربما جلس السلطان فاستمع إلى كلمة من وزير أو قول من أحد الرجال يسيء إلى السلطان فأمر بقتله.. وقد حدث ذلك كما تذكر بعض المصادر.

٨٤) المهتر خانة.. الجوقة الموسيقية: كانت الفرق الموسيقية تقف بقرب القائد في ساحة المعركة، ومثلها عند قائد كل فصيل من فصائل الجيش، فإذا أصدر توجيهه لفرقة عزفت "المهتر" لحنًا معيَّنًا، فيعلم حينها قائد الفرقة المعنية أوامر القائد فينفذها، فإذا تغيَّرت الأوامر عُزِفَ لحنٌ آخر، أو العكس، حيث ينبئ قائد الفرقة القائد العام بأحوال الحرب في ناحيته.. الهجوم.. الانكسار.. الدفاع، ذلك عدا أنَّها تمثل بعزفها أثناء تحرك الجيش رسالة إلى العدو باقتراب الجيش.. مما يبث الرعب في قلوبهم، والمهتر هم أوَّل من يدخل المدن المفتوحة وهم

يعزفون ألحان النصر العثمانية الشهيرة، ويقال إنَّ الجوقة العثمانية (مهتر باشي) كانت تغطِّي بالصوت مسافة (٨٠) كم، وهذا في نظري أمر مبالغ فيه، وكانت شيفرتها مكونه من (١١) لحن، لكل لحن معنى يعرفه قادة الفرق، يشير بعضها إلى الفرق وبعضها إلى الأوامر، وينقَل أنَّ المهتر باشي كانت أوَّل فرقة موسيقية عسكرية عرفَها التاريخ، وقد أنشأها السلطان أورخان الأول، ووضع بعض ألحانها بنفسه، ويعد قائدها أحد قادة الجيش ويجب أنْ يكون قد شارك في خمس حروب قبل توليه قيادة المهتر.

٨٥) حفرة ارتكاز راية الدولة تحت باب السعادة: قيل لي إنَّ تلك النقطة هي أبعد مكان وصل إليه جندي عثماني يوم الفتح، وركز رايته فيه، فظلت كذلك حتى بنى السلطان القصر، إلاَّ أنَّ ذلك لا يتفق مع الواقع إذ أنَّها بالضبط في مدخل باب السعادة، وهي –كما تظهر الرسوم التاريخية- في المكان الذي كانت تركز فيه راية السلطان حين يجلس للاستقبالات في الأعياد والمناسبات.

٨٦) باب الآغاوات السود: لكون مخادع الأغاوات السود تقع على جانبيه.

٨٧) باب العرش: لكونه يؤدِّي إلى ديوان السلطان.. أو غرفة العرش.

٨٨) باب العرض: لكون الاحتفالات السلطانية.. والعروض العسكرية.. واستعراضات الجند.. والاجتماعات الكبرى تحدث أمامه، ولكون غرفة الديوان المسماة غرفة العرض تقع خلفه.

٨٩) كل أمر لم يبدأ بالبسملة فهو أبتر: روي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "كُلُّ أَمْرٍ ذِيْ بَالٍ لَمْ يُبْدَأْ فِيْهِ بِإْسْمِ اللهِ فَهْوَ أَبْتَرٌ" أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجة في النكاح.

٩٠) المقصورات: يعتمد بناء القصر على المقصورات.. والمقصورات هي عبارة عن غرف مربعة أو مسدسة أو مثمنة.. لا يتصل بها بناء آخر.. لها شبابيك.. وبداخلها خلوات.. يستخدمها السلاطين لجلساتهم.. وتأمُّلهم.. وخلواتهم.. وإراحتهم.. ولقاءاتهم الجانبية غير الرسمية.. ولعل أشهرهم على الإطلاق هي المقصورة البغدادية.. فمكتبة السلطان أحمد.

٩١) الوالدة سلطان: لقب أمِّ السلطان.

٩٢) مدرسة أندرون: هي المدرسة التي يتعلم فيها العاملون في الوظائف المدنية في الدولة دون العسكرية، ويتم استقطابهم من مختلف ولايات الدولة، وتعليمهم ليتخرجوا فيشغلوا المناصب الإدارية، وخلال فترة دراستهم يقسَّمون إلى أربعة أقسام، قسم خاصٌّ بإدارة الخزينة وصيانتها وأمانتها، وقسم يخص خدمة السلطان، وآخر في إدارة المطبخ السلطاني، والأخير في سدانة الأمانات المقدسة، وكان الخريج من هذه المدرسة يسمى: "إيج أوغلنلار" أي الطلبة الداخليون، وبعد تخرجهم يخرجون إلى خارج القصر فيشغلون المناصب الإدارية والوظائف العليا في إسطنبول أو خارجها.

٩٣) السلطان محمد وحيد الدين السادس بن عبد المجيد الأول (١٢٧٧- ١٣٣٦- ١٣٤١- ١٣٤٤هـ) الموافق (١٨٦١- ١٩١٨- ١٩٢٢- ١٩٢٦م) هو السلطان العثماني الأخير، والخليفة الإسلامي التاسع والعشرون، تولى بعد وفاة أخيه محمد رشاد الخامس، وفي عهده تم إلغاء الخلافة الإسلامية، واستسلمت الدولة العثمانية وأعلنت خسارتها في الحرب العالمية، وتم تقسيم معظم أجزائها، ودخل الحلفاء إسطنبول واحتلوها وتقاسموها، فما كان منه إلاَّ أنْ وضع ثقته في مصطفى كمال أتاتورك، الذي بدأ العمل لإلغاء الخلافة، وفعلاً كان ذلك، فما كان من وحيد الدين إلاَّ أنْ

قدَّم استقالته، وغادر على متن بارجة بريطانية إلى الريفيرا بإيطالية، ليتوفى في مدينة سانريمو، وقد خلفه على العرش ابن عمِّه عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز.. آخر سلاطين آل عثمان.

٩٤) الشاه إسماعيل الأول بن صفي الدين الأردبيلي (٨٩٢- ٩٠٦- ٩٣٠هـ) الموافق (١٤٨٧- ١٥٠١- ١٥٢٤م)، هو الشاه الصفوي الأوَّل، وأوَّل من اعتنق المذهب الإثنى عشري من الأسرة الأردبيلية، ولد في أردبيل للشيخ صفي الدين الأردبيلي، أحد أقطاب الصوفية في فارس، وبعدها بفترة قُتل والده على يد حكَّام أسرة آق يونلو، والذين لاحقوا الأسرة للقضاء عليها، فأخفاه أحد مريدي والده عنده بين القبائل الآذربيجانية، وحين شبَّ، ظهر على القبائل الشيعية هناك، وادَّعى أنَّه من آل البيت وأنَّ عليهم له النصرة، وغيَّر مذهبه، ثمَّ ادَّعى أنَّه وكيل الإمام المهدي، فاجتمع له الشيعة، وتحرك بهم إلى تبريز، ودخلها.. وبدأ بملاحقة الآق يونلو، ثمَّ أعلن قيام الدولة، وأعلن المذهب الشيعي مذهبها الرسمي، وبدأ بالتوسع على حساب الدويلات الكردية والطاجيكية والأزبكية والتركمانية من حوله، حتَّى ضمَّ بعض المدن العثمانية أيَّام سلطنة بايزيد الثاني بن الفاتح، وحاربه الأمير سليم بن بايزيد، والذي كان يحكم طرابزون، فهزمه فاشتكى إسماعيل إلى السلطان فأعاد له بعض الأراضي التي أخذها سليم منه، كان سليم متيقظًا لأعمال التشييع التي كان يقوم بها أتباع الشاه في الشرق العثماني، وإلى المجازر التي كانت تقام باسم الشاه في قرى السنَّة هناك والتي نبهه السلطان بايزيد لخطورتها في كتاب يدعوه فيه لتحكيم العقل في التعامل مع شعبه، فلما تولى سليم الأول السلطنة، وكان يحاصر فيينا.. والتي كانت على وشك السقوط.. جاءته الأنباء بأنَّ الشاه إسماعيل بدأ بالتحرك على رأس جيش لمهاجمته، فما كان منه إلاَّ

أنْ فك الحصار واتجه شرقًا، وفي منطقة جالديران عام (٩٢٠هـ) كان اللقاء.. فانهزم الشاه إسماعيل، وفر إلى قزوين متخفِّيًا، وتقدم السلطان سليم ودخل تبريز، ثم خرج منها عائدًا إلى إسطنبول بعد أنْ صادر أملاك الشاه إسماعيل وأمواله، ولم يعد الصفويون أبدًا بعدها إلى تبريز، مع أنَّها ظلت عاصمتهم، وفي (٩٣٠هـ) توفي الشاه إسماعيل متأثرًا بمرض السل وهو ابن سبعة وثلاثين عامًا، بقرب أذربيجان، وحُمل إلى أردبيل ليدفن مع بقية أفراد أسرته.

٩٥) القيصر غليوم الثاني بن فريديش الثالث (١٢٧٥- ١٣٠٥- ١٣٣٦- ١٣٥٩هـ) الموافق (١٨٥٩- ١٨٨٨- ١٩١٨- ١٩٤١م) أو فيلهلم الثاني بالألمانية قيصر الرايخ الألماني الثاني، وملك بْرُوْسِيَة، وآخر حكامهما، ولد في برلين، وتوفى في دورن في هولندا، ينحدر من أسرة هوهنتسولرن، توج قيصرا بعد وفاة والده سنة ١٨٨٨، وأجبر على التنازل عن العرش في سنة ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانية في الحرب العالمية الأولى، ونفي إلى هولندة، وبذلك سقط الرايخ الثاني الألماني، وتأسست جمهورية فايمار في ألمانية. فحينما نشأ اتحاد ألمانية (الرايخ الثاني) في سنة ١٨٧١، على يد بسمارك كان جده غليوم الأول ملكا لبْرُوْسِيَة، فتوج قيصرا للرايخ، وجمع بين اللقبين. وتوارث هذين اللقبين ابنه فريديش، ثم غليوم الثاني الذي سقطت الدولة في أيَّامه، كان غليوم صديقًا وحليفًا حميمًا للسلطان عبد الحميد الثاني وقد زار القدس في ١٨٨٩ بدعوة منه.

٩٦) تنبيه حول غرفة الأمانات المقدسة: يجب أنْ أنبِّه أولاً إلى أنَّ كثيرًا مما يعرض في هذه الغرف.. رغم نفاسته.. وقدمه.. إلاَّ أنَّه مزيَّف.. فلا شعرات من رسول الله ﷺ، ولا عصا موسى.. أو عمامة يوسف.. أو سيف داود عليهم السلام أجمعين، ولا سيف أبي بكر.. أو عمر.. أو عثمان.. أو علي.. أو حمزة.. أو

جعفر.. أو خالد.. ولا غيرهم من الصحابة عليهم رضوان الله أجمعين ثابت الوصول إلى هنا قطعًا، إلاَّ أنَّ الآثار في مجملها قديمة وأثرية.. وباستثناء ما يخص الكعبة المشرفة.. أو الغرفة المطهرة بالمدينة كلُّ ما في هذا المتحف يكاد يكون مزيفًا، بما في ذلك الأثر الأنفس.. مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، والذي أثبتت دراسات شيخنا.. شيخ الخطاطين/ يوسف ذنون، حفظه الله، أنَّ بينه وبين مقتل عثمان بن عفان قرابة (١٠٠) سنة، عدا ما يذكره مؤرِّخو المصاحف، أنَّ الحجاج بن يوسف، حينما أعاد رقم المصحف أحرق كافَّة مصحف موجود على ظهر البسيطة، ودفع لصاحبه ما يشتري به مصحفًا جديدًا من القراء الموكلين بخطِّ المصحف في عهد عبد الملك بن مروان.

٩٧) يُروى أنَّ الرسول حينما دخل مكة يوم الفتح أخذ مفتاح الكعبة من عثمان وشيبة بني طلحة، وفتحها وصلى بها، ثمَّ خرج ودعاهما وردَّ عليهما المفتاح وقال: " خُذُوْهَا - يعني حجابة الكعبة - يَا بَنِيْ طَلْحَةَ خَالِدَةً تَالِدَةً، لا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلاَّ ظَالِمٌ"، روي ذلك عن ابن عباس، وعثمان بن طلحة، وروي عن مجاهد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا... ﴿٥٨﴾ ﴾ سورة النساء، روى ذلك جماعة من المحدثين منهم الطبراني وابن عساكر وابن سعد، وضعفه ابن حبَّان، وفيه كلام كثير.

٩٨) المصحف المنسوب إلى سيدنا عثمان بن عفان: لاحقًا اجتمعت بصديق أخبرني أنَّ سبب رفعه كان للدراسات والبحوث لإثبات مدى صحة قربه في الحقيقة من مصحف عثمان رضي الله عنه، وفي زيارة أخرى تالية كان المصحف معروضًا في المتحف مرة أخرى.

٩٩) السلطان إبراهيم بن أحمد الأول (١٠٢٤- ١٠٤٩- ١٠٥٨هـ) الموافق (١٦١٥- ١٦٤٠- ١٦٤٨م)، هو السلطان الثامن عشر، والخليفة العاشر، تولى العرش بعد وفاة أخيه مراد الرابع، وهو ابن خمسة وعشرين عامًا، حاول تقليد أخويه عثمان الثاني ومراد، إلاَّ أنَّ قلَّة خبرته حالت دون ذلك، كان مصابًا بشيء من الجنون، فلقِّب بالسلطان المجنون، ولعل سبب ذلك يعود إلى كونه شهد اغتيال اثنين من إخوته أمام عينه غدرًا في "إسكي سراي" في عهد عمه مصطفى بن محمد الثالث، وكان ينتظر أنْ يتم قتله في أي لحظة مما جعله أشبه بالمجنون، وكان مزاجيًا لدرجة أنَّه يقتل موظفي الدولة الأكفاء دون تأكُّد، كما حدث مع صدره الأعظم مصطفى باشا الذي كسر شوكة الصفويين، وأميرالاي البحر يوسف باشا فاتح كريت، كان منغمسًا في حياة اللهو والمجون، منشغلا بحريمه عن أمور الدولة، حتى ثارت عليه الينيشارية وعزلته وولت مكانه ابنه محمد الرابع ابن الست سنوات، وقتلته مسمومًا بعدها بأيَّام، ودفن بقرب عمِّه مصطفى في ضريح مسجد أيا صوفيا.

اليوم الثاني: بين الفاتح والقانوني

زيارة الفاتح

هل من الأدب أنْ تزور إسطنبول دون أنْ تُعرِّج على فاتحها؟! إنَّه لا يزال هنا.. لا أعنى بروحه وفعله.. بل أعني بجسده، مع كونه قد استشهد مسمومًا على أسوار فيينا، ففي العام (٨٨٣هـ) اتُّهِم طبيبه المسيحي الأصل إبراهيم أفندي بدس السم للسلطان بعد تحريض رهبان فيينا له، ولم يطل بالسلطان العيش فتوفي عن (٤٩) عامًا تقريبًا، وحينما توفي فُكَّ حصار المدينة، فَأُعْلِنَ ذلك اليوم عيدًا مسيحيًّا يُسمَّى "عيد التَّجلِّي"، إذ يدَّعون أنَّ العذراء تجلَّت لأسوار فيينا التي كانت على وشك السقوط، ورمت الفاتح بسهم مقدَّس في كبده لتحمي المدينة.

حُمِلَ الفاتح إلى إسطنبول، ودفن في منطقة قريبة من "إسكي سراي"، بقرب الكلية التي كان قد بناها قرب كنيسة حواريوم المهجورة، وكان قد بدأ بإنشاء مسجد هناك، في مكان أطلال الكنيسة، إلاَّ أنَّ البناء توقف وأُعدم المعماري المشرف على بنائه، ذلك أنَّ الفاتح اكتشف

اختلاسات في الأموال، وغشًّا في مواد البناء، فأعدم المعماري لأنه حاول السرقة من مال المسجد، ذلك المسجد هو الذي حمل اسم "فاتح جامع"، وقد سقط ذلك المسجد من الداخل، وتصدَّع بنيانه، فجاء السلطان محمود الأوَّل وأعاد إعماره، وأضاف إليه الكتابخانه "المدرسة" والمكتبة، والمرافق الأخرى، ثمَّ خرَّت معظم تصليحاته في زلزال (١١٧٩هـ)، (١٧٦٦م).

خَرَجْتُ صباح اليوم لأزور تلك المنطقة.. ولأرى ذلك الرجل العظيم.. أو أرى كيف يرقد بتعبير أدق.. جزت شوارع إسطنبول.. ونزلت من قرب سلطان أحمد متجها إلى منطقة فاتح، في الطريق تهيأ لي أنِّي أرى جنازته تتحرَّك.. وأتحرَّك وراءها.. يا لعظمة الموتى، ويا لهوان الدنيا على الله، وكأنِّي أمشي وراء جنازته.. مطأطئ الرأس.. هاهو الفاتح.. ذلك الشاب الذي حقق حُلْم من سبقوه منذ (٦٥٠) عامًا.. ذلك الذي دكَّ أسوار أعظم مدينة في الأرض.. القسطنطينية، الذي أعاد طرابزون.. والذي حاصر فيينا ولولا الأَجَلُ لكان فتحها، صاحب الفكرة والتصميم للمدفع السلطاني، الذي حَرَّكَ السفن على اليابسة.. هاهو يُحمل على الأكتاف لا يقوى على حركة.. نَزَلْتُ أمام سبيل قديم مهجور كُتِبَ عليه "صاحب الخيرات الحاج محمد أمين آغا بن الحاج حسين آغا سباهيان"، ويبدو أنَّه أحد إقطاعيي السيباهي (الخيالة في الجيش العثماني)، ولا أدري إنْ كان هذا مدفنه أمْ أنَّه ماء سبيل له فقط، من موازاة قاعدة

السبيل ارْتَفَعَتْ (٢٥) درجة، تنتهي ببوابة.. صعدتُ الدرج وقلبي يخفق.. بعد البوابة دخلنا إلى حديقة أشبه بالطبيعية منها بالصناعية.. لاح لي من ورائها.. ومن فوق أشجارها المنارتان.. يدا الفاتح المشيرتان إلى السماء.. هاهو الجامع يقف هنا.. وهاهي قبَّته الزرقاء تشهق.. تقدَّمت.. وازداد الخفقان.. تخطيت الحديقة لأجدُنِي أقف مباشرة أمام "فاتح جامع".. لا تفصلني عنه إلاَّ ساحة صغيرة.. ذلك المسجد المغطَّى بالسقالات.. القابع تحت نير الترميم.. هو ومكتبته ومدرسته.

تبلغ مساحة بناء المسجد قرابة (١١٠×٦٠م)، أمَّا مساحة الأرض الكلية للمسجد فتبلغ (٢٠٠×١٥٠م) تشمل مبنى المسجد، والمكتبة، والمدرسة، والمقبرة، والساحة المحيطة به، ودكَّة الموتى، ذلك عدا الأوقاف الملحقة به من أسواق ومساكن ودور إطعام، بنيت فيما بعد، وهي تُشكِّل حيَّ فاتح الحالي، وتبلغ مساحتها مع المسجد قرابة (٢٧٠×٣٤٠م)، وقد أتم بناء المسجد ومرافقه حوالي العام (١١٥٥هـ) في عهد السلطان محمود الأول، كما هو مبين على جدار الكتبخانه (المكتبة)، ترتفع القبة حوالي (٤٥م) وقطرها (٢٦م)، وقد كان المسجد مزيَّنًا كمعظم المساجد العثمانية، إلاَّ أنَّه في زلزال بعد قيام الجمهورية تساقط سقفه.. وتكسرت زينته، فأصبح كما هو عليه اليوم، مرفوع سقفه بالسقالات لكي لا يسقط، وحاليا.. تقام فيه أعمال الصيانة، ورغم هذا وذاك.. إلاَّ انَّك حين تجتاز باب المسجد تشعر بروحانية جارفة..

لا تجدها في أي مسجد آخر.. دخلت إليه.. اجتزت زواياه.. محرابه ومنبره.. دكة المؤذنين.. وغرف الدراويش.. يا لله ما أجمله.. اللوحات الخطية كلُّها خطَّها الخطاط حليم آغا.. إنَّ ليونة خطِّه برغم أخطائه تبعث الأمان في الذات، جلست فيه قليلاً أستشعر الأمان الذي يفتقده جميع الناس.. ثمَّ خرجت من نفس الباب.

بين المسجد والمقبرة أقيمت المدرسة والكتبخانه، ونظرًا لتأثُّرها بالزلزال فهي خاضعة الآن لأعمال ترميم كالمسجد، وسيعاد افتتاحها قريبًا.. وبعد باب الكتابخانه تجد بابا كتب عليه بخط الثلث الحديث الشريف: "لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"[١٠٠]، اجتزت باب المقبرة التي أصبحت اليوم تستوعب مجموعة من العلماء.. وشيوخ الإسلام.. والقادة والأمراء.. وقد كانت في يوم ما مقبرة الفاتح وحده، دخلت المقبرة.. واتجهت إلى البناء الواضح فيها.. إنَّه قبر الفاتح.. عن يميني شواهد القبور.. تلك التحف الفنية.. أقرأ وظائف المدفونين.. ورتبهم.. وأسماءهم.. حتَّى وصلت إلى تلك القاعة التي يستريح فيها مولانا السلطان، ارتفع أمام مدخلها رواق ساتر.. دخلت منه لأجتاز بابًا عُلِّق عليه شعار الدولة العثمانية السنية، فأقف بالضبط أمام الضريح المغطَّى بستارة الكعبة، والذي عُلِّق على مقدِّمته نموذج لعمامة الفاتح المشهورة.. وقفت ودعوت له بالرحمة.. لولاه لما كنت هنا الآن، الأرض مفروشة بسجادة حمراء.. الحوائط منقوشة بنقوش

إسلامية يغلب عليها الألوان الأخضر.. والذهبي.. والأحمر، الغرفة لها عشرة أضلع، كلُّ ضلع ينتهي أعلاه بقوس يتَّصل بالقبَّة الحمراء المنقوشة بلوحات الزهور، والتي تتدلى منها ثريا من الكريستال، وعلى التقاء الأضلاع.. بين الأقواس وُضِعَت المَشدودات التي تحمل لفظ الجلالة واسم الرسول ﷺ، وأسماء كبار الصحابة وآل البيت رضي اله عنهم أجمعين، ففي وجه الداخل ارتفع لفظ الجلالة "الله"، وعن يمينه "محمد ﷺ"، وفي الجهة الأخرى للفظ الجلالة "أبو بكر الصديق" رضي الله عنه، وعن يمين الرسول ﷺ "عمر" رضي الله عنه، وبقرب أبي بكر "عثمان" رضي الله عنه، وعن يمين عمر "علي" رضي الله عنه، وبقرب عثمان "الحسن" رضي الله عنه، وعن يمين علي "الحسين" رضي الله عنه، وبقرب الحسن "سعيد" بن زيد رضي الله عنه، وعن يمين الحسين "سعد" ابن أبي وقاص رضي الله عنه.

في أعلى كل قوس شباك رأسه مقوَّس لإدخال الإضاءة.. أسفل منه زخرفة إسلامية باللون الأحمر.. دونها كُتبت الآيات الخمس الأولى من سورة الفتح بشكل متتالٍ تبدأ من يمين الداخل: "بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ (الجدار الأول) ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ﴾ (الجدار الثاني) ﴿عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ (الجدار الثالث) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ (الجدار الرابع) ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ (الجدار "السادس") ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ (الجدار السابع) جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ (الجدار الثامن) عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾ (الجدار التاسع)، في وسط الجدار المقابل للداخل (الجدار الخامس): كتب الحديث الشريف: "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"، تحت الآيات الخمس من سورة الفتح في بقية الجدران فُتحت شبابيك للتهوية، أمَام كلٍّ منها مسطبة، وضع عليها مجموعة من المصاحف. أمَّا الجدار العاشر فهو المدخل.. وقد صُبَّ على شكل محراب، كتب على رأسه بخط التعليق كتبه السلطان عبد الحميد الأول (١١٣٧- ١١٨٧-١٢٠٣هـ)(١٠١) نفسه: "هو الخلاق الباقي" ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ... ﴾(١٠٢)، ثم كتب بيت شعر بالتركية.. من نظم السلطان عبد الحميد الأول أيضًا "يبين فيها أنَّه هو من حرَّر وكتب الآيات والمعلقات في المرقد، وكتب تاريخ ذلك (١١٩٩هـ).

في الزاوية اليمنى للداخل.. وعلى منتصف الجدار عًلِّقت قصيدة باللغة العثمانية: "فاتح سلطان محمدي زيارت"، كُتبت بخط ثلث جميل، والتي نظمها عبد الحق خان في سنة (١٢٩٤هـ) أي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وخطَّها الحاج كامل رئيس الخطاطين وعلِّقت في (١٣٣٤هـ) أي في عهد الجمهورية، وأمهرها بتوقيعه: "كتبها أضعف الكتاب الحاج كامل المعروف برئيس الخطاطين غُفِرَ ذنوبه". . كم كان المكان جميلاً، وكم نطق وتحدَّث بعظمة هذا السلطان.. وبحب آله

له.. إلاَّ أنَّ قبره المرفوع عن الأرض.. والمحاط بجدار زجاجي لمنع التمسُّح به لا يعدو أنْ يكون قبرًا من قبور الناس.. يستحق نزيله الترحم عليه.. والدعاء له من قلب كل محب.

خرجت من القبة بعد السلام عليه والدعاء له.. واتجهت إلى القبة التي تقع على مدخل المقبرة العامة.. والتي دفن فيها السلطان بايزيد، ووالدته كلبهارخاتون، وفردين آخرين من الأسرة العثمانية، يبدو أنَّهما من أبناء السلطان محمد الفاتح، قتلا صغارًا على العادة العثمانية المتبعة.

خلف قبة كلبهار خاتون يشمخ مبنى آخر أبيض مرمري، قبَّته من الرصاص.. هو قبر المارشال عثمان باشا[١٠٣] (١٢٧٤- ١٣١٧هـ)، بطل بلاونه، وهو من القلَّة الذين حصلوا على لقب "غازي" من خارج السلاطين، وهو قائد عسكري، قاد حروب الدولة ضدَّ الروس أيَّام السلطان عبد الحميد (١٢٩٣هـ)،(١٨٧٧م)، وقد شُرِّف بعد وفاته بأن بُنيت له قبَّة خاصة به، كتب عليها اسمه، وهي مُقفلة لا يدخلها أحد.

قصص حول الفاتح

لا يخلو "فاتح جامع" - كغيره من المساجد الكبرى- من قصص هي أقرب للخيال منها من الواقع، من ذلك ما رواه لنا شخص قابَلَنَا في الضريح، وادَّعى أنَّه دكتور في التاريخ العثماني بجامعة إسطنبول، وحشد

كمًّا من المعلومات غير الواقعية عن الفاتح، منها أنَّه في الحقيقة مدفون تحت منبر المسجد لا هُنا، وأنَّ هذا البناء ما هو إلاَّ للتمويه لكي لا ينبش قبره، وأنَّه على عمق (٦م)، وبعد قليل قال إنَّ هناك سردابًا سرِّيًّا من أسفل هذا الضريح إلى قبر الفاتح رحمه الله!! ستة أمتار.. وسرداب سري!! كيف عَلم هو بذلك؟ وكيف يكون سرًّا وهو يرويه هنا على الرائح والغادي.. بعد قليل اتضح أنَّه ممن يتكسَّبون برواية القصص.

ومن القصص التي رواها أنَّ سبب تكريم عثمان باشا الماريشال أنَّه خرج بجيش قوامه (٣٠٠٠٠) مقاتل، وحاصره الروس بـ(٢٥٠٠٠٠) مقاتل، وبدأ المعركة.. وحاول جنوده تهريبه، ورفض.. وصمد.. حتَّى قُتلوا جميعًا، واستطاع الروس أسره، ونظرًا لبسالته وشهامته أطلقوه وأرسلوه إلى إسطنبول، فأكرمه السلطان لكونه استطاع أنْ يَرُدَّ الروس.

إنَّ كونه قاد المعركة صحيح.. وكونه انتصر صحيح أيضًا.. وكون السلطان أكرمه واضح للعيان، إلاَّ أنَّ قصَّة (٣٠٠٠٠) شبيهة جدًا بقصة المقاتلين الـ(٣٠٠) الإسبرطيين الذين قاتلوا كسرى الفرس خشيارشاه بن دارا، عمومًا أخذ الرجل ثمن قصصه الممتعة.

ومن القصص المهمة التي تروى، وأعتقد أنَّها صحيحة (وهي ليست من قصص هذا المؤرِّخ)، أنَّ الفاتح رحمه الله أوصى أنْ يُدفَن على السنَّة، وأنَّ يُسَوَّى قبره بالأرض، وقد جاء في وصيته تحذير من أنْ

يدفن في قلب مسجد لكون هذا حرامًا، ويبدو أنَّ السلطان بايزيد الثاني ومن تبعه من السلاطين تمسَّكوا بوصيته رحمهم الله، حتَّى جاء عبد الحميد الأوَّل وبنى هذه الأبنية.

ومن الجدير بالذكر أنَّ مقبرة فاتح من المقابر التي يرغب الأتراك كثيرًا في الدفن فيها، فمكانتها في قلوبهم تأتي بعد مقبرة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فلا يخلو الأمر إنْ زرت المكان من أنْ ترى الجنائز تجتمع في الساحة المتاخمة للمسجد قبيل الظهر، ولعل هذا سببه الإحساس بالأمان على الميت إنْ دُفن بقرب رجل صالح كالفاتح رحمه الله، وكأنَّهم يرغبون في أنْ يكونوا جيشه إنْ قام للقتال مرة أخرى.

في حضرة معمار سنان "للمرة الثانية"

بعد عودتنا من "الفاتح" انطلقنا في رحلة إلى جامع السليمانية.. أَثَرِ إسطنبول الأكبر.. يروى في المصادر أنَّ القانوني لم يُدْهَشْ في حياته.. أو كان من الصعب جدًّا أن تبدو عليه الدهشة، وكانت من المرَّات القليلة التي بدت عليه الدَّهشة لَمَّا دخل الجامع ورآه من الداخل حين الافتتاح.. هذا المسجد أدهش القانوني.

بعكس القانوني واجهت خيبة الأمل لمرتين.. في المرات التي زرت فيها منطقة "سليمانية" كان الجامع مغلقًا لأعمال الصيانة.. إلاَّ من رواق

جنوبي غربي واحد.. فتح للصلاة، إلاَّ أنَّ المسجد في ذاته حديث يستحق الإفاضة فيه.. ومع خيبة الأمل.. إلاَّ أنني لم أخرج من المنطقة خالي الوفاض.

في الفترة ما بين (٩٥٧- ٩٦٥)، (١٥٥٠- ١٥٥٧م) قام معمار الدولة الكبير المعمار سنان آغا ببناء جامع السليمانية، والذي يعد النموذج المثالي المتكامل الباقي من نماذج الحي التركي التي ابتكرها معمار سنان، فالسوق الموقوف، والمنازل، والمدارس، والحمام، والجامعة، والمكتبة، والمستشفى، ودور الإيواء والإطعام، والمقبرة، كلُّ ذلك لا يزال موجودًا، ويؤدِّي وظائفه.

يقف المبنى الضخم للمسجد على الرابية الثالثة للمدينة.. إذ يقف على الأولى طوبقابي سراي، وعلى الثانية سلطان أحمد.. ويشرف المسجد على منظر أخَّاذ للقرن الذهبي.. ويكشف القرن الذهبي المسجد.. وكأنَّه لا يوجد بناء بينهما، منظر المسجد من القرن تحفة في الغروب.. وجمال في الشروق.. وسحر في الفجر.. وعظمة إذا انتصفت الشمس في السماء.

يقوم المسجد على (١٢٠×٧٠م) في وسط ساحة تقدر مساحتها بحوالي (١٤٠×٢١٠م) ويستوعب المسجد قرابة (١٠٠٠٠٠) مصلٍ، تتوسط المبنى المذكور قبَّة ترتفع قرابة (٥٣م) وقطرها أقل من (٣٠م)

بقليل[١٠٤] مرفوعة على أربعة أعمدة تسمَّى الكوفية[١٠٥]، مستطيلة الشكل، مساحة الواحد منها (٥×٦) أمتار، وتحيط بالقبَّة الكبرى نصفي قبة شمالي وجنوبي، ليُكونو شكلا مستطيلا بقبة رئيسة ونصفين مساحته (٥٦×٤٠م)، أمَّا بقية سقف المسجد –عدا القبة الرئيسة- فارتفاعه (٤٠م)، وللمسجد (٥٠) قبَّة، منها (٢٠) على المبنى الرئيس، والبقية يحطنَ بالساحة الداخلية للمسجد، والتي مساحتها (٥٠×٦٠م) من مساحة المبنى، تتموضع فيها غرفة مربَّعة الشكل، هي الميضأة، والتي صُنعت من الرخام الخالص ومساحتها (٦×٤م)، ويحيط بالساحة (٤) مآذن يقال إنَّها ترمز لكون القانوني هو رابع السلاطين بعد الفاتح، وتقسَّم المنارتان الملاصقتان للمسجد إلى (٣) أقسام، يفصل بينها موقف الخطيب (المشرفَّة) عدا القسم الرابع الذي يحمل الشكل المخروطي للمنارة، بينما تقسَّم المنارتان اللتان على طرف الساحة إلى قسمين، عدا الشكل المخروطي، مما يعني أنَّ هذه الأقسام عشرة، ويقال إنَّها ترمز إلى كون القانوني عاشر سلطان منذ نشوء الدولة، وتختلف ارتفاعات المآذن اللصيقة بالمسجد عن تلك التي على أطراف الساحة، فارتفاع اللصيقة بالمسجد (٧٤م)، أمَّا التي على أطراف الساحة (٥٤م).

للمسجد (١٢٨) نافذة صنعها الزجَّاج المشهور سارخوش إبراهيم، ومحرابه ومنبره من الرخام الخالص، وقد زين المسجد بمجموعة كبيرة من الآيات والأحاديث والنقوش الخزفية، صنع معظمها وخطَّه

أحمد أفندي القرة حصاري، ومحمد شلبي، إلاَّ أنَّه - وعلى الأغلب- أنَّ معمار سنان خطَّ آية المحراب ﴿ ...كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ... ﴾(آل عمران: ٣٧)، .. وآية النور ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ...٣٥ ﴾(النور) المزينة للقبة، و تكرار الآية على الأعمدة ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ... ٨٤ ﴾(الإسراء) والمكررة (٤) مرات في دائرة بأربعة تكرارات، بالإضافة إلى المشدودات بأسماء النبيﷺ وكبار الصحابة، خط ذلك بنفسه.

في الجهة اليمنى للداخل، وتحت العامود الكوفي القريب من المحراب والحامل للقبة، ترتفع دكة المؤذن على (١٦) عامود تبدأ بشكل متوازٍ مع بداية المنبر وتنتهي في بطن العامود الرئيس، وعلى العامود المقابل له ترتفع دكة الخطيب على (٧) أعمدة، ووراء عامودها ترتفع مقصورة السلطان على (٨) أعمدة، ولها دَرَجٌ من داخل المسجد، بخلاف بقية المساجد العثمانية، حيث يكون المدخل خاصًّا من خارج المسجد.

وعلى عكس ما يشاع عن العثمانيين، حظي التعليم باهتمام كبير حول أروقة السليمانية، فكما هو الحال في كل الجوامع (الكليات) التي بناها العثمانيون أو أعادوا ترميمها في مختلف أرجاء الدولة ترى المدارس المحيطة بالجامع كثيرة، فاثنتان للتعليم الابتدائي الأوَّلي إحداهما شماليَّ

المسجد.. والأخرى غَرْبِيَّهُ، واثنتان للتعليم المتوسط الشمالية منها يفصلها عن الابتدائية مبنى دار الإطعام، والغربية يفصلها عن الابتدائية زقاق صغير، ودار الحديث التي تعنى بالتعليم الديني والواقعة في الجهة الشرقية للمسجد بين دار الشفاء والابتدائية، ودار الشفاء أو مدرسة العلوم الطبية، ومدرسة التوليد والتي تعنى بدراسة الحالات الطبية الدقيقة، وهي اللصيقة بالمستشفى من الجهة الشرقية للمسجد. ولكل مدرسة من هذه المدارس الست ساحاتها الداخلية، وصفوفها المنظمة بطريقة دقيقة.

يقع شرقي الجامع وغربيه مجموعة من الأسواق التركية، ففي جهة الشارع النازل من دار الإفتاء إلى الحمام السليماني.. وبعد ضريح المعمار سنان مجموعة من المحلات التجارية ذات المساحة الكبيرة نوعًا ما هي الجدار الفاصل بين المدارس وشارع معمار سنان الذي يفصل المباني عن المسجد، ويقابلها من الناحية الشرقية من المسجد.. وعلى "ترياقي ميدان" مجموعة من المحلات الأصغر من الأولى، وهي جدران دار الشفاء ودار الحديث، ومن ناحية المدخل الرئيس (البوابة الشمالية) وخلف المدارس ودار الإطعام - والتي أصبحت اليوم مطعمًا يستحق أنْ يزار- خلفها تصطف مباني البيوت الموقوفة، والتي تحيط بمجمع السليمانية من كل النواحي تقريبًا، كلٌّ تلك لتقوم بالصرف على المسجد ومنشآته.

إنَّ هذا الحي التركي الضخم - وإن شئت فقل المدينة- أقيم على نظام للصرف الصحي فريد من نوعه، وغُذِّي بنظام بنية تحتية

لإيصال المياه لكل أطرافه من غابات بلغراد.. تمامًا كما كانت تُسقى المدينة القديمة (القسطنطينية).

أين يرقد القانوني؟

في النَّاحية القبلية للمسجد.. وأمام المبنى بحوالي (٢٠م) تقوم القبَّة التي يرقد فيها جسد السلطان سليمان القانوني وبعض زوجاته وبعض أبنائه.. في حرم الحديقة الجنوبية للمسجد والتي صُيِّرت مقبرة، ولا أعلم إنْ كان وقوع القبر في القبلة أمرًا أتى مصادفًا.. أوْ أنَّه أمر مقصود، إلاَّ أنَّه خارج مبنى المسجد، وقد قامت حوله الكثير من القبور الأخرى.. بعضها بقبب وبعضها على الطريقة العثمانية العادية، ومن الملفت للنظر أنَّ السيدة الفاضلة خُرَّم سلطان[١٠٦] رحمها الله دفنت في قبَّة لوحدها، مختلفة عن قبة القانوني رحمه الله، ولعل ذلك يرجع لكونها أمَّ السلطان حين توفيت، وليس زوجة السلطان، مما يعني حظوتها بدرجة أعلى من التقديس، أو قد يرجع ذلك لما عُرف عنها من حبها للخير والإحسان.

غداء على مائدة القانوني

قلت أنَّني لم أخرج من المنطقة خالي الوفاض، فإذا كُنت قد حُرمت من دخول المسجد والصلاة فيه، فلا أقلَّ من أنْ أطَّوَّف بما حوله من مبانٍ لأستنشق عبير العظَمة، وأتملأَّ من منظر الحسن.. أنزلتني سيارة الأجرة في أوَّل شارع البروفيسور صديق سامي أونر، والذي تقع عليه

بوابة جامعة إسطنبول الخلفية (إسكي سراي سابقًا)، ويقع عليه أيضًا ترياقي ميدان، الملاصق لجامع السليمانية، عند دار الشفاء.

بدأت أخطو خطواتٍ في الميدان.. يا لها من لحظات.. طالت أو قَصُرَتْ هي في حدِّ ذاتها عُمُرٌ من الجمال، تقدَّمت نحو باب المسجد الشرقي المؤدِّي إلى الساحات الداخلية للمسجد.. دخلت.. وصلت إلى باب المسجد.. خاب أملي.. كان الرواق الذي أقبلت عليه هو الرواق الوحيد المفتوح في المسجد.. لم أحرم نفسي متعة تذوق السليمانية.. جلست فيه قليلاً.. ثم غادرته لأتمشَّى مع أسرتي حيث ترياقي ميدان.

على الطرف الشمالي لترياقي ميدان تقوم أبنية المدارس، والتي تكاد تكون مهجورة اليوم، إمَّا حسِّيًّا.. أوْ معنويًا، فالمبنى المواجه للجنوب تحول اليوم إلى مقهى!!، والمقابل له من الجهة الغربية لا يزال مهجورًا، ويقوم في الوسط بين المبنيين مبنى دار الإطعام.. أو دار الضيافة التابع للأوقاف الإسلامية، والذي أصبح اليوم مطعم دار الضيافة.

من لم يزر هذا المطعم لم يذق الطعام في تركيَة.. ولا أبالغ إنْ قلت ذلك، فأنْت إنْ زرته فسوف تنعم بالجلوس في مكان كان منذ نشأته في (٩٦٣هـ)، (١٥٥٥م) وحتى الآن مقرًّا لصناعة الطعام وتقديمه بأجود الطرق.. سواءً دون ثمن.. أو بثمن رمزي.

بني هذا المبنى الذي ينزل عن سكَّة شفاء خانه قرابة السبع درجات في الفترة ما بين (٩٥٧- ٩٦٣هـ)، (١٥٥٠- ١٥٥٥م) على يد المعمار سنان، ليكون دارًا وقفية لتقديم الطعام بالمجان للجميع، وفي آخر سنوات الخلافة استخدم كمقرٍّ لفرقة موسيقية، ثمَّ تحول إلى متحف للفنون التركية والإسلامية، ولكن المتحف نُقل إلى قصر إبراهيم باشا بمنطقة السلطان أحمد.. فأغلق المبنى ليناله الهجر حتَّى عام (١٤٠٧هـ)، (١٩٨٧م) حيث استخدم كمركز ثقافي من قبل "تركي دنيازي آرشتر ملري وقف"، وفي العام (١٤١١هـ)، (١٩٩١م) قامت "يوتور للسياحة" بإعادة تأهيل المبنى، وترتيبه ليفتح في (١٤/من رجب/١٤١٢هـ)، (١٨/١/١٩٩٢م) تحت اسم "مطعم دار االضيافة" لتقديم المطبخ التركي العثماني على أسسه الحقيقية.

نزلت تلك الدرجات.. كان الهدوء أسطورة.. إلاَّ من نغمات الطيور التي تتقلَّب بين أغصان شجر الدُّلْب الضخم، والذي يملأ الساحة المتوسطة للدار.. المبنى عبارة عن رواق يحيط بحديقة تشمخ فيها أربع شجرات كانت في يوم من الأيام أغصانًا صغيرة يتعهَّدها القائمون على الوقف بالرِّعاية.. كم حكاية دارت هنا.. تستمع لتلك الحكايا وأنت تجلس في أروقة المكان في انتظار طلبك.. حكاية يرويها شجر الدُّلْب حين تُحرِّكه الريْح.. لحن آسر.. شجي.. فرِح.. حزيْنٌ.. إنَّه يروي تاريخ عَظَمَةِ آل عثمان.. تاريخ هذا الوقف الرائع.

تقوم على جانبي الساحة غرفتان كبيرتان.. كانتا تستخدم كقاعات طعام.. على يمينك تقع البئر الكبيرة.. بقربها الطاحونة الضخمة التي كان يطحن عليها الدقيق، بقربها غرفة صغيرة على هيئة صندوق مبني، مساحتها (١,٥×٢,٥×٢م) تستخدم كمخزن للغلال.. من خلفها غرفة الإطعام التي أصبحت اليوم مكاتب لإدارة المطعم.. في نهايتها يقع باب يؤدِّي اليوم إلى المطبخ.. قديما كان المطبخ جزءًا من قاعة الطعام التي في وجه الداخل، في نهاية تلك القاعة وفي الزاوية من المبنى بالضبط يقع باب يؤدِّي إلى المطبخ القديم.. المطبخ الذي كان يصنع طعام الناس قديما.. بعده باتجاه الجنوب تقوم قاعة الطعام المستخدمة اليوم كصالة للمطعم بالإضافة إلى الساحات التي تتراص فيها الطاولات.

بين المطبخ القديم وقاعة الطعام شبَّاك ارتفاعه عن الأرض قرابة (٤٠سم) وارتفاع فتحته لا يتجاوز (٢٥سم) ذلك أنَّ دار الإطعام هذه كان يرتادها الوزير.. والضابط.. والفقير.. والعامي.. والموظف.. والباشا.. والطالب.. والمعلم، فيوضع الطبق من المطبخ على هذا الرف.. فيرفعه صاحب الطبق.. دون أنْ ينظر الطباخ إليه فيُكْرمه لمكانته.. أو يمتهنه لفقره.. كان الكل يأخذ حصَّته بالسواء دون أيِّ تمييز، وهذا ما قصدته بجملة "عَظَمَةِ آل عثمان".

مسكين ذلك الذي زار إسطنبول ولم يتمتع بـ"كاديبودو كفتيه".. أو "كيشككلي كيباب"، مسكين ذلك الذي لم يتذوَّق "كشكول فقرا" في هذا

المطعم.. هذا الطبق الذي كان يُعدُّ من اليوم الأوَّل في دار الضيافة.. ولا يزال يُعدُّ حتى الآن.. الطبق الذي سمي بذلك لفقر مكوناته.. مع كونها غنيَّةً بالطَّاقة التي تمدُّها الجسمَ.. الطبق الذي يقال إنَّ صاحب فكرته هو السلطان سليمان القانوني شخصيًّا.. والذي كان يتردد على المكان بين الحين والآخر ليتناول وجبة تجعله مطمئنًّا أنَّ المكان يليق بالصدقة الوقفية التي يقدمها، أستطيع أنْ أقول بكلِّ أريحيَّة.. إنَّ مَنْ زَار تركيَة وَلم يذُق طبق مختارات الشيف في هذا المطعم فإنَّما كانت زيارته عارِضَةً.

لحظات أمام المعمار

بعد تلك المتعة التي قضيناها في هذا المكان الراقي.. الرائق خرجنا لنكمل تطوافنا في منطقة سليمانية.. اتَّجهنا غربًا.. باتجاه القصر الذي أصبحت تشغله دار الإفتاء اليوم.. ثمَّ انعطفنا مع سور المسجد باتجاه الجنوب.. حيث استوقفنا حائط صغير على زاوية الطريق.. يحيط بضريح جُعلت له شبابيك من الحديد.. وعلى شاهد الضريح عمامة كأنَّها نُحِتَتْ أَمْسِ.. تقف دون أنْ تعلم من تحت تلك العمامة مواجها للضريح.. وكأنَّك تستشعر الاحترام والتبجيل للنائم أسفل النعش.. بعد لحظاتٍ تسأل نفسك: "من هذا الذي جذبني إليه التبجيل؟".. تقترب لتقرأ على جدار الضريح: "تربة المعمار سنان ١٤٩٠- ١٥٨٨"، نعم.. إنَّ صائغ هذه العظمة يرقد بكلِّ هدوءٍ هنا.. ذلك الرجل الذي وضع أساس العمارة التركية.. الرجل الذي رفع قبَّة أياصوفيا بآية النور لكي لا تقع بعد

يومه.. الذي شاد السليمانية.. والسليمية.. وتكية السليمانية بدمشق.. وتحديثات الأموي.. ومساجد الباشاوات من الصدور العظام في إسطنبول.. مجدد طوبقابي سراي.. وواضع أساس الحي التركي.. يرقُد هنا بكلِّ هدوء غائبًا عن كلِّ بهرج.. لا يأتيه إلاَّ من يقصده.. دامج الجماليات الرومانية.. والتركية.. والفارسية.. والشامية.. والمصرية في فكرة واحدة.. صانع النظريات الهندسية.. آغا المعماريين في الدولة العثمانية السنية لخمسة خلفاء.. يرقد هنا في هدوء.. الناس أدعياء في العمارة على المعمار سنان باشا رحمه الله.. كلُّ مسجد بني بعد سنان له فيه يد ولو لم يره.. لقد صنع هذا المعمار الأنموذج السليم لعمارة المساجد.. فسلاما عليك يا باشا.. ورحمة ورضوان.

في وداع السليمانية

نزلت في شارع المعمار سنان مارًّا بالمدارس الواقعة خلف المحلات التجارية الموقوفة على المسجد، في آخر ذلك الطريق وفي وجه النازل كان يقف مبنى الحمام العام، مبنى زيِّن بابه الخشبي بلوحة من القيشاني كتبت عليها البسملة، خلف ذلك الباب كانت هناك قاعة بها غُرف من الخشب.. تفوح فيها روائح الورد والعطور.. الغرف الخشبية مقفلة على الزبائن وهي واقعة على الناحية اليسرى للداخل، والمؤدِّية للحمام العمومي.. المكان يدعو للاسترخاء.. قاعة مكونة من دورين.. الدور العلوي من الخشب.. عُلِّقت عليها فوط الحمام، وفي وجه الداخل تنور،

عدا الشبابيك التي تسمح للنور بأنْ يُفعم المكان، هنا يستعد المستحم ليدخل إلى عالم الحمام، التقطت صورة واحدة.. فنهرني القيِّم على الحمام.. فاعتذرت منه وخرجت لآخذ أسرتي وأتَّجه بمحاذاة جدار المسجد في المنعطف الممتد من شارع المعمار سنان إلى شارع البروفيسور صدِّيق.. لأقف على نهاية رحلتي تلك.. تاركًا ورائي القانوني بعظمته وجبروته.. أخذت سيارة الأجرة التي ستقلني لمحطتي القادمة.. وأنا أسمع صوت القانوني.. يتردد صدى عبارته الشهيرة في أذني: "أنا القانون.. والقانون أنا".

في محيط سلطان أحمد

أخذت سيارة الأجرة إلى منطقة السلطان أحمد.. بقصد زيارة الياريباتان سراي.. ولكن للأسف كان الخزان مغلقًا.. فأجَّلت الزيارة إلى اليوم اللاحق، ولكن لا أقلَّ من أنْ أستكشف باقي المنطقة الواقعة قرب سلطان أحمد.

في هذه المنطقة المحيطة بسلطان أحمد وأيا صوفيا والياريبتان تقع مجموعة من الآثار الأخرى التي تعود إلى أغوار التاريخ.. أو تعبِّر عن عظمة آل عثمان في أيام دولتهم، نزلت أنا في بداية شارع الياريبتان من ناحية أياصوفيا، قطعت حديقة سلطان أحمد باتجاه الياريبتان.. نزلت الشارع فوجدته مقفلاً، فاتخذت طريقي إلى ناحية مسجد السلطان أحمد.

المِيْلُوْن

أوَّل أثر سيواجهك على ملتقى شارع "ياريبتان".. بشارع "ديفان أوغلو".. بشارع "علمدار"، بالضبط خلف مدخل "ياريباتان" أمام أياصوفيا.. هو "الميليون"، وهو عبارة عن شاهد حجري أبيض كان يستخدم كنقطة صفرية لقياس المسافات من القسطنطينية إلى بقية مدن الإمبراطورية الرومانية، وقد أنشئ أيَّام قسطنطين الأول في القرن الرابع الميلادي، وظل مستخدمًا حتى القرن الخامس عشر الميلادي، إلاَّ أنَّه اندثر بعد ذلك.. وتكسَّرت أجزاء منه حتى أعيد اكتشافه في العام (١٣٧٩هـ)، (١٩٦٠م).

كان الميلون من أوَّل المباني التي بنيت في "روما الجديدة" أو القسطنطينية.. وقد كان قبَّة في أوَّل الطريق المؤدِّي إلى مدينة روما.. ويحاكي قسطنطين في بنائه ذلك الموجود في روما، والذي بني على أوَّل الطريق إلى المدينة الجديدة بنفس الشكل، وأنشئ لنفس الغرض، وكان الغرض منهما أنْ يكونا منشأ كلِّ الطرق من وإلى المدينتين الرئيستين للدولة.

كان النصب عبارة عن عامود تغطيه قبَّة مرفوعة على أربعة أعمدة، وككل المباني الرومانية قام كل إمبراطور بإضافة تدلُّ عليه.. حتَّى أصبح المبنى عبارة عن تحفة معمارية، ونظرًا لأهميته التاريخية فقد دارت

على جوانبه الكثير من الحروب.. كتلك التي كانت بين الأباطرة نقفور وألكسيوس، أو تلك التي دارت بين المتمردين وقوات الإمبراطورة تيودورا في التمرد على الإمبراطور جستنيانوس.

ومع تقدُّم الزمن تحوَّل الميلون من ملكية الدولة إلى أحد أملاك كنيسة أياصوفيا، ومع الفتح الإسلامي.. بدأت تضمحل أهمية الميلون.. وبدأ يندثر.. إلاَّ أنَّ العثمانيين كانوا يسمونه "سوتيرازي" ومعناها "برج المياه".. أو "الميضأة" لوقوعه على رأس خزان الياريبتان، ومع مرور الزمن اختفى عن وجه الأرض بين البيوت والمساكن.. وزالت أجزاء كبيرة منه.

وفي (١٠٧٨هـ)، (١٦٦٨م) ومع التعديلات في البنية التحتية والإزالات للبيوت القديمة ظهر الجزء المتبقي من عامود الميلون، والذي أصبح اليوم أحد الآثار المشيرة إلى القسطنطينية القديمة.. مشيرًا إليها منذ أكثر من (١٦٠٠) سنة.

جامع فيروز آغا

خَـــازِنُ السُّـــلْطَانِ.. سُـــلْطَانْ بَايَزِيْـــدْ
وَهْـــوَ فَيْـــرُوْزٌ رَئِـــيْسُ الخَـــازِنِيْنْ
حِبَّـــــةً للهِ مِـــــنْ أَمْوَالِـــــهِ
قَـــدْ بَنَـــى بَيْتًـــا لِقَـــوْمٍ عَابِـــدِيْنْ

إِرْضَ عَنْـــهُو يَـــا إِلَـــهَ العَــــالَمِيْنْ

فَلْـــيَكُنْ فِيْ جَنَّـــةٍ مِـــنْ خَالِـــدِيْنْ

قَـــالَ رِضْـــوَانُ العُلَـــى تَأْرِيْخُـــهُ :

جَنَّـــةُ المَــــأْوَى وَدَارُ الحَامِـــدِيْنْ(٨٩٦)

بهذه الأبيات جُمِّل باب جامع فيروز آغا، والذي أنشئ في (٨٩٦هـ)، (١٤٩١م)، من قبل ناظر خزينة السلطان بايزيد الثاني فيروز آغا، والمبنى في أطراف منطقة "إيْمِيْنونو" في آخر شارع "ديفان أغلو".

للمسجد مئذنة واحدة، وأرضه مشطورة.. مساحتها (٢٠×٣٠م)، يشكِّل المبنى منها (١٨×١٥م)، والمسجد مجمَّل بأشكال جميلة وزخرفات إسلامية راقية من الداخل والخارج.

"أنطوكيوس" و"ليسيوس"

إذا اتجهت من فيروز آغا جامع باتجاه سلطان أحمد.. وقبل أنْ تصل إلى "إط ميدان" ستمر بحديقة ومواقف للسيارات.. هذه المنطقة كانت سابقًا قصرين.. وكنيسة.. وضريحًا لقدِّيس.. أوَّل هذه الآثار هو قصر البطريارك أنطوكيوس، والذي كان قصرًا في القرن الخامس الميلادي، واندثر.. وتم تحديد موقعه ضمن حفريات(١٣٥٨- ١٣٦٩هـ) الموافق (١٩٤٠- ١٩٥٠م)، إذ ظهرت بقايا مبنى لهيكل فخم أو مسرح

نصف دائري لأحد القصرين.. وقد يكون مذبح الكنيسة، يقع الآن على مبنى الياريباتان أعلى الميلون بالضبط، وكان المبنى الأصلي يمتد حتَّى الهيبودروم، وقد حوِّل جزء من هذا القصر إلى كنيسة، بينما بُني فيه ضريح القديس "يوفيميوس".

وأنطوكيوس مخصي فارسي الأصل، كان يتمتع بنفوذ واسع أيَّام ثيودوسيوس الثاني، وكان معلِّمًا للإمبراطور الشاب.. وترقى في المراتب الكهنوتيَّة حتَّى أصبح بطرياركًا، وقد دخل في نزاع حول الوصاية على الإمبراطور مع أخت الإمبراطور "بولكياريا"، والتي كانت مقرَّبة منه، مما أفقده حظوته لدى الإمبراطور.. إلاَّ أنَّه ظل ناشطًا سياسيًّا في العاصمة ضد الإمبراطور بعد أنْ كان من رجاله.. مما أفقده احترام رجال الدين أيضًا، فأصبح من السهل على الإمبراطور محاكمته وعزله ومصادرة أمواله بما فيها القصر.

أمَّا فيما يخص الكنيسة فقد تأسست في أواخر القرن السابع الميلادي، وكانت عبارة عن بقايا كنيسة كالكادونيا التي دُمِّرت خلال الحروب مع الإمبراطورية الساسانية، فنقلت بقاياها إلى هنا، وخلال إزالة التماثيل البيزنطية تم تحويل المبنى إلى مخزن للأسلحة، وتم التخلُّص من رفات القديس "يوفيميوس" برميها في البحر في عهد الإمبراطور ليو الثالث إيساوروس.

وفي العام (١٣٥٧هـ)، (١٩٣٩م) اكْتُشِفَتْ صور لجداريات في هذه المنطقة، أظهرت صورة القصر ومكانه، وفي العام (١٣٦١هـ)، (١٩٤٢م) قام "ألفونس ماريا شنايدر" بالتنقيب عن القصر شمال غرب "إط ميدان"، فاكتشف بقايا الرواق نصف الدائري الواقع حاليا فوق الياريباتان، وفي العام (١٣٧٠هـ)، (١٩٥١م) تم اكتشاف بقية أجزاء كنيسة سانت يوفيميوس، وقصر أنطوكيوس.

وحسب الكتابات القديمة فإنَّ ما يُعتقد أنَّه الجناح الشمالي من قصر أنطوكيوس.. والمطل على "إط ميدان" كان قصر ليسيوس، والذي أنشئ في (٤٢٠م)، وهو خصي أيضًا تولى رئاسة الـ "تْشَامبرلين البيزنطي" (رئاسة الأساقفة)، ثم عُزل منها، وأعيد بتوصية من بطريارك الإسكندرية، ورغم ما أشيع عن تدينه إلاَّ أنَّ قصره كان ملاذًا للتماثيل الوثنية اليونانية التي تم إزالتها من الهيبودروم، مثل تمثال "زيوس" والذي حُمل من أولمبيا (٥٠٠ق.م.) والذي كان ينتصب تحت نصف قبَّة في وسط ساحة القصر، وتمثال "براكسيتيليس" و"أفروديت" وتماثيل "ساموس" و"أثينا" و"أروس" و "كايروس"، عدا مجموعة كبيرة من تماثيل الحيوانات الخرافية، وكان قد فصل تماثيل الآلهة عن التماثيل الأخرى. وتنقل المصادر أنَّ قصر ليسيوس التهمته النيران التي نشبت في معظم مباني المدينة عام (٤٧٥م)، واختفت منه كل تلك التماثيل.. دُمِّرت أو سُرِقَت، ولقي ليسيوس بعدها بقليل حتفه.

سبيل غليوم

بَعْد أنْ تتخطَّى بقايا القصرين ستقف أمامه مباشرةً.. سيشدُّك إليه نصب كبير.. عبارة عن قبَّة خضراء باروخية البناء، لها ثمانية أعمدة من الرخام الأحمر القاني المائل إلى السواد، يقع تحتها بناء بيضاوي الشكل على شكل جرَّة كبيرة، سقفها من الداخل مغطًّى بقطع الموزاييك الذهبية بالكامل، مطبوعة عليه ثمانية أختام بشكل متتالي أحدها للسلطان عبد الحميد وتمثل طغراءه على خلفية خضراء، والآخر للقيصر غليوم الألماني وتمثل ختمه بحرف (**W**) على خلفية زرقاء، وعلى حاشية كلِّ قوس يصل بين عامودين كتبت قصيدة باللغة العثمانية من تأليف السلطان عبد الحميد الثاني، وخطَّها الخطاط العثماني عزَّت أفندي، وفي قلب القبة رسمت زخرفة إسلامية دائرية وارتفع المبنى عن الأرض ثماني عتبات، يقع عليها وفي أسفل القبة خزان الماء.. وزوِّد بصنابير ماء ومقاعد حوله للوضوء والاستسقاء.. هذا المبنى هو السبيل الألماني.. أو الميضأة الألمانية.

على إحدى الحوائط علِّقت حديدة حُفر عليها باللغة الألمانية ما معناه "غليوم الثاني قيصر الألمان، شيَّد هذا البئر عرفانًا منه لدى زيارته للموقع، كهدية للإمبراطور العثماني عبد الحميد الثاني، في خريف (١٨٩٨م)[١٠٧]".

وقد بنيت هذه النافورة في ألمانية، ونقلت على هيئة قطع إلى هنا، ثمَّ أعيد تجميعها هنا.. أمام ضريح السلطان أحمد، في مكانٍ يُظنُّ أنَّه لنُصُبٍ جُلِبَ مِنْ ألمانية أيام البيزنطيين كان يَقِفُ في الهيبودروم الروماني وتمت إزالته بعدها.

وخلال زيارة القيصر للإمبراطورية العثمانية لعرض مشروع بناء سكَّة حديد برلين- بغداد، خلال حكم السلطان عبد الحميد الثاني، والذي أجابه بالشكر رغم شكوكه حول المقاصد الألمانية من خط بغداد، إذ كشفت المخابرات العثمانية أنَّ القيصر كان يرافقه علماء آثار.. وعلماء جيولوجيون، ومع تكثيف الاستخبارات كشف العثمانيون السبب، ذلك أنَّ خام النفط في الموصل وشمال العرق أكثر بكثير من النفط الموجود في القوقاز، عدا أنَّ الطريق إلى القوقاز خطر إذ يمر في الأراضي الروسية، بينما يتمتع العثمانيون والقياصرة الألمان بعلاقة طيبة، ذلك الخط.. ورغم الموافقات التي تمت له إلاَّ أنَّه لم يُنجز أبدًا، رغم توقيع اتفاقية المرحلة الأولى منه (إسطنبول- بغداد).

صمم النافورة المهندس الألماني "سبيتاسخويلَّر"، والمصمم الإيطالي "كارليتزك"، وكان من المفروض افتتاحها في ذكرى تولي السلطان عبد الحميد للعرش في العام (١٣١٦هـ)، (١٨٩٩م) إلاَّ أنَّ إنجازها تأخَّر إلى مطلع القرن (١٣١٧هـ)، (١٩٠٠م).

ويقال أنَّه قبل نصب السبيل، كانت تقوم في هذه البقعة (شجرة الزقوم) أوْ شجرة الدَّجال، وأظنها موجودة إلى الآن حول السبيل، وسميت تلكم الشجرة بذلك إشارة إلى تلك التي في قعر جهنَّم، إذ أنَّ السلطان محمد الرابع حينما قمع ثورة الينيشارية (١٠٦٦هـ)، (١٦٥٦م) وأعدم قادتهم علَّق رؤوسهم على تلكم الشجرة، فأسماها الناس شجرة الزقوم إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾(الصفَّات)، وهذا يدحض الادِّعاء القائل أنَّ مكان السبيل كان يقوم نصب أحضر من ألمانية.

قصر إبراهيم باشا

بعد أن تتخطَّى السبيل الألماني ستمر بمبنى "دفتر خاقان نظارتي" أو نظارة الوثائق العثمانية (الشهر العقاري العثماني) والذي أصبح كذلك في (١٣٢٦هـ)، ثمَّ ستقف أمام باب قصر إبراهيم باشا.. الصدر الأعظم الأول في عهد سليمان القانوني، أو "متحف الفنون التركية والإسلامية.

أوَّل تاريخ عرف لهذا المبنى كان عام (٩٢٧هـ)، (١٥٢٠م) إذ أهداه السلطان القانوني لإبراهيم باشا، ولا شكَّ أنَّه بُني قبل ذلك بكثير، وهو عبارة عن مبنى حجري مساحته (١٢٠×٥٠م) أقيم في مكان المدرجات الرومانية للهيبودروم، ويشغل "دفتر خاقان نظارتي" اليوم منها

(٥٠×٥٠م)، أمَّا الباقي (٧٠×٥٠م) والذي يحيط بساحة من أربع جهات فهو المتحف، وقد كان المتحف إداريًّا جزءًا من متحف طوبقابي، ثم أعيد تنظيمه ليتم فصله بإدارة مستقلَّة في (١٣٦٥هـ)، (١٩٤٦م)، ونقل إلى هذا المبنى من دار الضيافة بمجمع جامع السليمانية في (١٤٠٣هـ)، (١٩٨٣م).

الآثار التي في المتحف حملت من مختلف الأوقاف الإسلامية.. ومن مختلف المدن التركية، فقد كانت هذه الأشياء تُهدى إلى المساجد ليتم تخزينها في مكتباتها، ومستودعات دار الإطعام والمدارس فيها، وقد تم نقلها إلى دار الضيافة في السليمانية.. ثمَّ إلى هنا تحت إشراف لجنة رأسها وزير الأوقاف شخصيًّا آنذاك. ويضم المتحف اليوم تشكيلة من التحف المعدنية، والحجرية، والبورسلان، والمخطوطات، والسجاد، وأعمال الأبواب، والتوابيت، والمنابر، واللوحات المرسومة سواءً من مسلمين أو غربيين، وفيه عرض لطرق الحياة التركمانية عموما وأنماطها على مر التاريخ.

بعد دخولك من الباب الرئيس للمتحف ستتجه يمينًا إلى السلَّم المؤدِّي إلى الفناء الداخلي للقصر.. لتدخل إلى سُلَّم آخر يؤدِّي إلى قاعة العرض.. وأوَّل التحف التي ستواجهك هي لوحات حجرية، حُفِرَت عليها آيات كريمة، حُملت من مساجد ومبانٍ هُجرت في الأناضول.. يعود تاريخ أحدثها إلى (٢٥٢هـ) أي أيام العباسيين، إنَّ الخط الكوفي.. والمكي

الذي كُتبت به هذه اللوحات ينطق بنفسه لِيُحَدِّثَكَ عن تاريخه.. ركِّز في الألواح الحجرية هناك ترى المساجد والمباني التي أزيلت من عليها.. ما أجمل أنْ تلمس التاريخ من خلال خيال مصدره الحجري.

إذا تحركت ستدخل إلى غرفة بوابة "يولو جامع".. أو الجامع الكبير بمدينة قيصر والواقعة في الجنوب الشرقي التركي، والتي تأسست في العهد الأموي، وتعود هذه البوابة إلى الجامع الذي أنشئ في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، والذي تهدَّم اليوم ولم تبقَ منه إلاَّ أطلال، وتستطيع أنْ ترى ذلك في الصور المعروضة، والتي تعرض بقايا المسجد، وخرائطه الهندسية، وشكل البناء مرسومًا، بالإضافة إلى بعض النحاسيات والأزياج التي نقشت عليها آيات قرآنية بخطِّ الثلث تجعلك تمس المسجد من الداخل والخارج لمسًا.

ستستعرض أيضًا تماثيل ساسانية الشكل.. تعود إلى العصور السلجوقية، ومخطوطات بالتركية والفارسية والعربية تعود إلى تلك الفترة.. وقرارات وفرمانات، ونسخًا مخطوطة من ألف ليلة وليلة.. وكليلة ودمنة، ومصاحف، ومفاتيح مساجدَ وقصور، وقبور، وأضرحة، وصورًا لكسوة الغرفة النبوية الشريفة، ومخطوط سيرة الإمام علي رضي الله عنه بالتركية مكتوبة بخط نسخ راقٍ وجميل، ومصورة بالرسوم، وقد زيدت وحرِّفت حتى جانبت الصواب في كثير من القصص، ذلك عدا اللوحات الخطية التي تعود إلى خطاطين من كبار خطاطي العصور

المختلفة، وبعضها للسلاطين، ولوحات ورسمات لشاهات الإليخانية، والصفوية، والقاجارية، في إيران وفارس، وأوَّل رسم عَرَضَ الكعبة المشرَّفة، وقد عُمِلَ على لوح من البورسلان، ورسم مشابه له للمدينة المنورة والروضة الشريفة في ذلك العصر، ولوحات بالخطين التعليق والثلث لكثير من الخطاطين أمثال محمد سامي، وولي الدين، وحسيب، ولوحات لحديث وصف الرسول ﷺ المروي عن الإمام علي رضي الله عنه، بخط التعليق والثلث والنسخ، ولوحة لخريطة الدولة العثمانية العلية، ولوحة لشعارها، وخرائط دقيقة لأهم المدن العالمية كإسطنبول، وأدرنة، وروسيه، ومنتشا، وسيلانيك، وبغداد، ومنستر، ذلك عدا مُطَرَّزَةٍ للشعار العثماني كتب تحته بيتان باللغة التركية بخط الثلث، وتواقيع لمجموعة من السلاطين العثمانيين والتركمان، عدا لوحات من الكتابات الهمايونية المذهبة، وكراريس تعليم الخط لبعض كبار الخطاطين.

بعد أن تنتهي من هذه الغرف.. تطوف بوابةً إلى قاعة كبرى، تعرض بعض المشغولات الخشبية المطعَّمة ككرسي للمصحف مطعَّم بالصدف، وحاملة مبخرة خشبية مصدَّفة أيضًا، ووجه هو الباقي من منبر خشبي كبير مشغول ومنحوت، وباب يبدو أنَّه قد كان لغرفة في قصر.. أو قاعة حكم، أو مزار أو مسجد، وتابوت ضريحي من الخشب نُقش بآيات وأحاديث بخط الثلث، ومصاحف مخطوطة ومذهبة، وكتب

وكراريس لتعليم الخط، وكرسي مصحف جلدي، وحاملة مباخر من الصدف الخالص، والختم الذهبي الأصلي الكبير للسلطان عبد المجيد الأول، والذي كانت تصبُّ عليه الألواح والقوالب التي نراها على أبواب القصور والمساجد اليوم.

كان هذا الاستعراض متعبًا.. ولكن التعب كلَّه زال حين غادرت القاعة من الباب المؤدِّي إلى السُّلَّم الذي سينزلني إلى الفناء مرة أخرى، فلما خرجتُ والتفت جهة الدرج صدمني.. وخلبني.. وأسرني منظر مسجد السلطان أحمد.. فمددت يدي دون شعورٍ أحاول قطفه.. أحاول لمس هذه التحفة الفنِّية لأتأكَّد أكانت صورة أمْ حقيقة.. وكأنَّ المسجد بني على سور الدار.. ظللت للحظة أحدِّق في هذا المنظر.. ثمَّ تحركت نزولا وعينايَ معلَّقتان به، حتَّى وصلت إلى آخر الدرج.

في أسفل الدرج قاعة أخرى من قاعات العرض، تعرض فيها كلُّ أشكال الحياة التركية.. منذ بدائيَّتها.. وحتَّى حياة القصور العثمانية، مرورًا بحياة الرعي والرعاة.. والحرب.. والبناء.. والبيع والشراء... إلى آخر ذلك.. ما كدت أنتهي من هذه القاعة حتَّى أُذِّنَ لصلاة المغرب.. فاضطررت مستعجلا لمغادرة المكان باتجاه السلطان أحمد.. وأنا أحس في يدي ملمس التاريخ والحضارة اللتان كنت أتلمسهما هنا قبل قليل.. لقد كان المتحف أحدوثة من أحاديث الزمن التي يجب أن تُعلَّم لأجيالنا.

×××

خرجت بعد أنْ صلَّيت في سلطان أحمد لأستقلَّ سيارة أجرة إلى فندق الكونراد.. فقد اكتفيت اليوم من هذه الرحلة.. وجاء دور الإعداد لرحلة الغد.. فغدًا الجمعة.. ولي موعد مع رمز إسطنبول الديني.. مع الرجل الذي كان أوَّل مغمضٍ لجفنيه تحت تراب القسطنطينية.. الرجل الذي قال وهو يحتضر لدافنيه: "إذا متُّ فاحملوني على رؤوسكم وسيروا بي إلى أقرب مكان من جدار العدو.. فخطُّوا قبري برماحكم.. ولا ترفعوا قبري ولا تعلِّموه، حتَّى إذا فتح الله على المسلمين القسطنطينية ودخلَتها خيلكم.. ضَرَبَتْ على قبري.. فَأَسْمَعُ وقْع حوافرها.. فأُدْرِكُ حينئذٍ أنَّكم أدركتم ما تبتغون من النصر والفوز".

---

١٠٠) حديث: "لتفتحن القسطنطينية..."، رواه الإمام أحمد في المسند، والطبراني في الجامع الكبير، وصححه الحاكم والذهبي.

١٠١) السلطان عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع (١١٣٧- ١١٨٧- ١٢٠٣هـ) الموافق (١٧٢٥- ١٧٧٤- ١٧٨٩م)، السلطان العثماني السابع والعشرون، والخليفة التاسع عشر، تولى السلطنة بعد أخيه مصطفى، وكان خلال فترة حكم أخيه محبوسًا في "إسكي سراي"، وفي أوائل عهده هجم الروس على "فارنا"، وهزموا الجيوش العثمانية، وعقد في عهده صلح استقل بموجبه تتار القرم وإقليم بيسارابيا عن السلطنة، وَمُنِحَ الروس حرِّية الملاحة في البحرين الأسود والأبيض، ودفعت الدولة ضريبة لروسية، ومنح الروس حق حماية الرعايا النصارى الأرثوذوكس في الدولة، وأن تبني لهم الدولة كنيسة خاصة في إسطنبول، إلاَّ أنَّ الروس لم يلتزموا بالمعاهدة وظلوا يتقدَّمون في الأراضي العثمانية، عندها أعلن العثمانيون الحرب، وعقد الروس والنمسة اتحادًا ضد العثمانيين.. إلاَّ أنَّ الحروب في المجمل انتهت لصالح العثمانيين، وفي وسط هذه الفترة توفي السلطان عبد الحميد ليخلفه على العرش ابن أخيه سليم الثالث بن مصطفى الثالث.

١٠٢) سورة آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٧٥.

١٠٣) المارشال عثمان باشا غازي (١٢٧٤- ١٣١٧هـ) الموافق(١٨٣٢- ١٩٠٠م)، قائد عام القوات العثمانية في حرب البلقان ضد روسية (١٢٩٣هـ)(١٨٧٧م)، والملقب بـ"بطل بلاونه"، عقِب الانتصارات التي حققها العثمانيون على الروس في حرب البلقان استنفر القيصر الروسي كل قواه وأرسل قواته التي عبرت نهر الدانوب، واستولت على الكثير من المدن العثمانية والمعابر المؤدية إلى البلقان، وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد قام

بتغييرات في قيادة الجيش أصبح بموجبها عثمان باشا مارشال الجيش، والذي تحرك إلى مدينة "بلاونه".. أو "بلافنه" الواقعة في بلغارية الحالية، واصطدم بالجيش الروسي وهزمه، فعاد إليه الروس بتعزيزات جديدة، ولكنه هزمهم مرة أخرى، مما جعل القيصر يستنفر كلَّ قواه، ليعود بجيش يفوق ضعف الجيش العثماني المتواجد في "بلاونه"، وشاركهم ملك رومانيا بقرابة (١٠٠٠٠٠) مقاتل، فأصبح الجيش الروسي يعدل (٤) أضعاف الجيش العثماني المكون من (٥٠٠٠٠) مقاتل، إلاَّ أنَّ عثمان باشا صَمَدَ في وجههم، ثمَّ قرر القيام بهجوم معاكس.. وبايعه جنوده على النصر أو الشهادة، واخترق عثمان باشا بمن معه خطي الحصار الأول والثاني، واستولى على المدافع والعتاد فيهما، وعلى مشارف خط الحصار الثالث أصيب عثمان باشا، فأشيع أنَّه استشهد، مما ضعضع الصفوف العثمانية، وبدأ الجنود بالانسحاب تجاه المدينة.. ولكن الروس استطاعوا قطع طريق العودة عليهم مما جعلهم محاصرين في منطقة مكشوفة، ورغم بسالتهم.. واستشهاد الكثير منهم، اضطروا إلى الاستسلام.. فعاملهم القيصر باحترام شديد تقديرًا لشجاعة قائدهم، وأعاد له سيفه ورايته، وحمله معزَّزًا معه إلى روسية، وأكرمه هناك، ثمَّ أطلق سراحه وسراح من بقي معه من الجيش إكرامًا له، ويقال إنَّ من بقي معه لم يبلغوا بضعة آلاف، وعلى مشارف إسطنبول استقبل السلطان عبد الحميد الثاني المارشال استقبال الفاتحين وأصدر فرمانًا يثني فيه عليه.. لقبه فيه بلقب (غازي)، وأثنى عليه وأكرمه وأنعم عليه، وتم إطلاق اسمه على اللحن المارشالي الذي يعرف باسم (تون نهري) أو (بلاونه دان مارشي).. إذ أصبح اسمه الرسمي (عثمان باشا مارشي).

١٠٤) قبة جامع السليمانية: هي ثاني أكبر قبة في تركيَة، فهي أصغر من قبَّة أيا صوفيا (٣٠م) بأمتار قليلة، وأكبر من قبة سلطان أحمد (٢٣م)، ولكن مع حساب أنصاف القبب المحيطة بقبة السليمانية كجزء من القبة تكون أكبر من قبَّة أيا صوفيا.

١٠٥) الأعمدة الكوفية: هي الأعمدة الشبيهة بأرجل الفيل في جامع السلطان أحمد، والهدف منها رفع القبَّة الضخمة، وهي مربعة الشكل، ويبدو أنَّ اسمها نسبة إلى مدينة الكوفة، وأظن أنَّ معمار سنان نقل تصميمها من المساجد الكوفية وطوَّره.

١٠٦) خُرَّم.. أوْ روكسلان هي زوجة السلطان سليمان القانوني وأمُّ السلطان سليم الثاني، وهي من أصل روسي أرثذوكسي مسيحي (ويقال إنَّها يهودية من يهود الأندلس)، قدَّمها والدها وهو عميد الديانة أيًا كانت للسلطان، فخُلب بها، وتزوَّجها، وتنسَج حولها كثير من القصص.. ويبالغ بعض المؤرِّخين لدرجة أنْ يجعلها سببًا رئيسًا لسقوط الدولة العثمانية، حيث غيرت مسيرة الدولة بتحريض من والدها وأهلها، وينسج البعض القصص الأخرى حول تأثيرها على السلطان.. ومكيدتها هي وابنها لجميع أبنائه لدرجة جعلته يتخلَّص منهم بالقتل شخصيًّا.. متناسين أنَّ السلطان الذي يتكلمون عنه هو الداهية الذي لم يخسر حربًا.. سليمان القانوني.. والذي يظهر في هذه القصص على أنَّه ألعوبة في يد زوجته وابنه، ولا يقيمون مقامًا لأي حقيقة أخرى تذكر في السياق، فلا يقيمون لتطاول ابن السلطان الأكبر مصطفى على والده ونيله منه في بعض الخطابات، وتخطيطه للتمرد، وينسبون ذلك إلى مكيدة من سليم أخيه.. بأنْ راسله وأوغر صدره على السلطان حتى كتب ذلك!! ثم عرضه على السلطان، ويدَّعون أنَّ سليمًا أرسل لأخيه جيهانكير يحذره من والده فما

كان منه إلاَّ أنْ تمرد على والده الذي لاحقه فهرب إلى شاه الصفويين طهماسب، الذي سلمه لسليمان فقتله. لا يقام أي وزن لذلك كله.. بل ينسب ذلك لتدابير السيدة خرَّم.. وعلى جدلية صدق الناقلين فكيف تدفن في مقابر المسلمين وهي مسيحية.. أو يهودية، وكيف توقف كافة أموالها على الحرمين الشريفين، وكيف تميِّز طول حياته طريق الحجيج والمحامل الشريفة من إسطنبول إلى مكة، وكيف تبني المساجد المنتشرة على الخارطة التركية.. إنَّ أصلها (أيًّا كان) ليس مسوغًا للتشكيك في دينها.. ولا دليلا حسيًّا على كل الادعاءات التي تلصق بها، وعلى فرضية أخرى.. أنَّها كانت تحرِّض السلطان لتولية ولدها وقتل إخوته.. أليس من حق الأم أنْ تضمن لولدها الحياة التي سيفقدها في حال وفاة والده بأيِّ ثمن.

١٠٧) تاريخ إهداء السبيل (١٨٩٨م): ويوافق (١٣١٥هـ)، وذكر التاريخ بالميلادي للمحافظة على النقل كما هو من الأصل.

اليوم الثالث: قَبْرُ الرّجل الصّالح

قبل (١٣٨٠)عامًا تقريبًا.. وبالتحديد في (٥٢هـ) حُمِلَ سَرِيْرٌ - على أصحِّ الروايات- في وسط ساحة الحرب.. وانطلق حاملوه باتِّجاه السور.. بينما استغرق الآخرون في الدفاع عنه، والروم يحاولون أنْ يردُّوه.. فلمَّا وصلوا إلى أصل السور الأوَّل للمدينة (ويقال إلى أقرب نقطة من السور) ومع اشتداد قصفهم بالنَّبل، نزلوا يحفرون برماحهم، فلمَّا انتهوا أنزلوا مَنْ على السرير في الحفرة.. وواروه.. ثمَّ انسحبوا.. هذه القصَّة باختصار، وبعد (٨٠٥) سنين من هذه الحادثة يتعرَّف عليه فاتحوا المدينة.. فيكون رمزًا يتعلَّق به الناس ما بقي الدهر.. وبقيت هذه المدينة.

إنَّه سيدنا أبو أيوب الأنصاري[١٠٨] رضي الله عنه وأرضاه، ذلك الرجل الذي تحققت له دعوة الرسول ﷺ لمدة (٨٠٠) سنة حين قال: "اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني".. وما أجملها من دعوة. خرج أبو أيوب رضي الله عنه في الجيش الذي بعثه معاوية بن أبي سفيان بقيادة يزيد ابنه إلى القسطنطينية في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٥٢-٦٦٨- ٦٨٥م)[١٠٩]، وتوفي هناك، ودُفِنَ تحت السور الأوَّل للمدينة،

وكانت الروم يتعهَّدون قبره بالرِّعاية لسببين رئيسين، الأوَّل: هو أنَّ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان هدَّد الإمبراطور قسطنطين الرابع أنَّه في حال نبش قبر أبي أيُّوْبٍ فإنَّه سيقضي على الوجود المسيحي في المشرق بتاتًا، والثاني: أنَّ الروم البيزنطيين كانوا يستسقون بقبر أبي أيوب، ويستجيرون به، ويتخذونه كمزار، حيث إنَّ هذا القبر كان مصدرًا لسقياهم ورزقهم.

ولَّما فتح الله القسطنطينية على الفاتح، سأل الشيخ "آق شمس الدين"[١١٠] عن مكان قبر أبي أيُّوب، فوعده بالبحث عنه، ويقال إنَّ ذلك كان قبيل فتح القسطنطينية، والمهمُّ أنَّ الشيخ - كما تروي الروايات- اجتهد ليلة في الدُّعاء، وغلبه النوم، فرأى نفسه يمشي من مكانه إلى مكان القبر.. ويجد رجلا فيسأله.. ويقال إنَّه رأى أبا أيوب الأنصاري يدعوه إليه ويعرِّفه مكان القبر، فما كان منه إلاَّ أنْ قام وبشَّر السلطان، ثمَّ تحرك إلى المكان، فلما وصل وجد أناسًا حوله ممن يعظمه من الروم فسألهم عنه فقالوا: "هذا قبر صاحب محمد، ونحن نتعهده بالحماية منذ دُفِن"، ومن ذلك اليوم.. بنى الفاتح المسجد الشهير بـ"أيوب سلطان جامع"، وأصبح له تلك القداسة والمكانة التي لا تزال تلتصق به إلى اليوم.

وهنا تبدأ حكاية اليوم.. حينما خرجت من الفندق باتجاه جسر "غَلَطَة"، وتخطَّيْتُهُ إلى البر الآخر.. وبدأت أسير بمحاذاة الماء.. حتَّى أقبلت

على جبل (تُزينه) القبور.. قام أسفل منه جامع كبير ذلك جامع سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه.. والذي يعرفه الأتراك بأيوب سلطان، والذي أصبح اسم المنطقة المحيطة بالجامع.

يقوم مبنى الجامع، والذي بني أوَّل مرة في (٨٦٣هـ)، (١٤٥٨م)، وأعيد بناؤه عام (١٢١٤هـ)، (١٨٠٠م)، أيَّام السلطان سليم الثالث (١١٧٤- ١٢٠٣- ١٢٢٢- ١٢٢٣هـ)[111]، بعد أن انهار جرَّاء زلزال أصاب المدينة.

يقوم المسجد على مساحة قدرها (٣٠×٥٠م) تقريبًا، مع مبنى الضريح الملحق بالجامع، ويقع الجامع على الطرف الداخلي للقرن الذهبي، يروى أنَّ أوَّل مبنى أنشئ من الحي التركي لجامع سيدنا أبي أيوب الأنصاري أيَّام الفاتح كان الضريح، ثمَّ الجامع، فالمدرسة، فالحمام، ثم الأسواق، وعلى مر العصور كان السلاطين يهدون المسجد هداياهم حتَّى العام (١١٧٩هـ)، (١٧٦٦م) في عهد السلطان مصطفى الثالث حيث ضرب إسطنبول زلزال أدَّى إلى انهيار المسجد، وفي عهد ابنه سليم الثالث بن مصطفى (الذي خلف عمه عبد الحميد الأول)، أزيلت تلك الأنقاض، وعُمِّر المسجد الشاخص اليوم، وبدأت الأعمال فعلا عام (١٢١٢هـ)، (١٧٩٨م) وافتتح عام (١٢١٤هـ)، (١٨٠٠م).

حجم قاعة الصلاة (٣٠×١٥م) تقريبا، ترتفع عليها قبَّة بقطر (١٧,٥٠م) مدعَّمة بأربعة أنصاف قبب بنفس القطر، وبرغم مبالغة العثمانيين عمومًا في تزيين المساجد في تلك الفترة.. إلاَّ أنَّك ترى المسجد بسيطًا في طرازه، وفي نقوشه، فالفخامة التي أضفاها وجود أبي أيوب تجعله أفخم من أيِّ مسجد آخر.

على طرف القبلة لمبنى المسجد تقوم منارتان بنيتا في عهد السلطان أحمد الثالث بن محمد الرابع عام (١١٣٥هـ)، (١٧٢٣م) أهداهما الصدر الأعظم إبراهيم داماد باشا، ونابت مناب المنارتين التي بناهما الفاتح رحمه الله، وذلك لقِصرِهِمَا، وللمسجد ساحة تفصل بين مبناه وضريح أبي أيوب، مساحتها (٣٠×٢٠م) تقريبًا، تقوم فيها حديقة جميلة، ومحاطة بالأروقة العالية المقببة، وفي آخر الساحة يقع الضريح خلف باب خشبي، بني مبناه من الحجر، ولُبِّس من الداخل بالبورسلان، وحُمِيَ الضريح بالسور الذهبي الذي أهداه السلطان سليم الثالث للضريح، والسترة التي تغطيه، والتي أهداها السلطان محمود الثاني إليه، وقد زُيِّن، الضريح بكتابات أمر بها السلطان محمود الثاني، وقام بها الخطاط الكبير مصطفى راقم، وللضريح بابان، باب يدخل منه الناس من ساحة المسجد، وآخر يخرجون منه في الساحة الغربية خارج المسجد، مساحة هذه الساحة (٣٠×٣٠م) يتوسَّطها سبيل الوضوء المقبب، ولها باب قبلي وآخر غربي، نقش على الغربي ما شاء الله تعالى

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ... ﴿١٨﴾﴾ (التوبة)، وعلى القبلي ما شاء الله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجنّ)، ومن خارج الساحة الحديث الشريف: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ، وعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَصْحَابِ القُبُوْرِ". وبين الساحة والمسجد أربعة أبواب. الأوَّل ويؤدِّي إلى ممر فوق البوابة القبلية فالمقصورة السلطانية التي أصبحت اليوم مصلى النساء نقش عليه قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ (ص) وبالقرب منه باب صغير لمكتب الإمام.. تحوَّل اليوم إلى مكتبة لبيع الكتب نُقش عليه ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ (القدر)، وبابان آخران يؤدِّيان إلى داخل الجامع نُقش على الأول منهما ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ (الرعد)، وعلى الآخر ﴿... سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الزمر)، أمَّا الباب الذي يؤدِّي إلى ساحة المسجد فقد نقش عليه من داخل ساحة المسجد ﴿... إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ (النساء) ومن جهة الساحة الغربية: ما شاء الله تعالى ﴿... سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (النحل). وإذا تخطيت بوابة الساحة القبلية وجدت نفسك تقف أمام نافورة ماء مرمرية بيضاء، لها رونقها وجمالها اللذان يضفيان على العين راحة لن تجدها عند نافورة أخرى.. أتُرى ذلك كان من روح المكان؟

الحمام التابع للحي التركي لا يزال موجودًا، وهو عبارة عن حمَّامين منفصلين واحد للرجال، وآخر للنساء، أمَّا بقيَّة الأجزاء.. كالمدرسة، ودار الحكومة فقد اندثرت نهائيًّا، لتحلَّ محلها القبور، إلاَّ أنَّ دار الإطعام، ومبنى المدرسة لا يزالان موجودين، ودار الإطعام تعمل عملها القديم حتى الآن. وتحيط بالمسجد من جهة الساحة الغربية الملاصقة له ومن جهة القبلة محلات تجارية وأسواق، أمَّا بقية الأجزاء فيصح أنْ يقال إنَّها مدينة من المقابر، حوت الباشوات.. والأمراء.. والوزراء.. والقادة.. والمارشالات.. والسلاطين، ومن المهم أنْ نقول إنَّ الناس يتسابقون ليدفنوا في جوار هذا الصحابي الجليل.. لذا فقد غطَّت القبور الجبل الشمالي الملاصق للمسجد، والذي قام عليه أيضًا مقهىً كان القبطان والكاتب الفرنسي "بيير لوتِّي"[(١١٢)] يطيل الجلوس عليه.. لذا فقد حمل اسمه، ومن الممكن الوصول إليه عن طريق جسر (تيرلفريك).

نزلت على مشارف المسجد.. اليوم الجمعة.. بعد الظهر مباشرة.. كنت صليت الظهر في "حميدية جامع" القريب من الفندق، وخرجت بقصد أنْ أحظى ببعض الأنس في هذا المكان الروحاني، وأوَّل ما واجهني من المسجد لوحة الباب الشرقي التي نُقِشَ عليها قوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾(الحجر)، أحسست بشيء يدعوني.. يجذبني إليه كي أدخل.. تقدَّمت.. ودخلت لأجد نفسي في الساحة.. الناس تزدحم على مدخل الضريح .. والمسجد بابه مفتوح.. سمعت صوتًا في نفسي

يدعوني إليه.. خلعت حذائي.. ودنفت من الباب .. لأقف أمامه مباشرة.. يا للرَّهبة التي تعقد لساني.. وتحرِّك مشاعري..

السلام عليك يا عمَّاه.. السلام عليك يا صاحب رسول الله.. ها أنت.. يحقِّق لك الله دعوة نبيك.. ها أنت تستجيب لنداء الله ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ...﴿٤١﴾﴾(التوبة) يا ابن الثمانين.. يقولون لك ما عاد عمرك يسعفك.. فتقول: "أَوَ لا أستجيب لنداء الله؟!"، سلام عليك يا عمَّاه.. كأنِّي بك وأنت تحمل نفسك.. وجهدك.. ومَشَقَّتَكَ.. لتركب البحر.. تسأل الله أنْ تكون الرجل الصالح.. أو أن تكون ممن يغفر الله لهم.. فكنت الرجل الصالح يا عمَّاه.. ورحلت مغفورًا لك إنْ شاء الله.. السلام عليك يا جار رسول الله.. ويا مضيف رسول الله.. اللهم إنِّي أشهد له بشهادتك له في كتابك أنَّه من المؤمنين، اللهم إنِّي أشهد له بشهادة نبيك ﷺ أنَّه من الصالحين.. اللهم احفظه.. اللهم اغفر له.. اللهم ارحمه.

خرجت من الباب الآخر في الساحة الغربية.. وعدت لأدخل الساحة.. ومنها إلى المسجد.. هنا.. ها هنا كان يجتمع المسلمون لتقليد السلطان مراسيم السلطنة.. هنا تقلَّد ثلاثون سلطانًا.. وثمانية وعشرون خليفة مقاليد حكمهم.. هنا.. ها هنا.. هنا وقف القانوني كأوَّل خليفة إسلامي من أسرة آل عثمان يُقلَّد السيف المنسوب لرسول الله ﷺ إيذانًا بكونه ثاني خليفة للمسلمين من هذه الأسرة، هنا عَقَدَ السلطان سليم

الأوَّل آخر لواء له كسلطان فقط ليتجه نحو الصفويين، وهنا أيضًا عقد أوَّل لواء له كخليفة أيضًا ليتجه نحو فينا، هُنَا.. من هنا.. كانت تُعْقَدُ الألوية الحربية.. وهنا كانت تعقد البيع للسلاطين، كان يقف السلطان أوَّل ما يصبح ليصلي ركعتين لله.. ثمَّ يذهب إلى قرب قبر أبي أيوب ويُدْعَى له.. ويؤمِّن الناس.. كان الناس يتوخون البركة بالراقد خلفهم هنا.. الجيوش تسيل من هنا إلى معاركها.. ويذهب الجميع.. ويظل صاحب القبر محفوظًا بدعوة رسول الله ﷺ.

لا يزال هذا المسجد يغص بالمصلين.. في صلاة الفجر.. زرته مرة لأرى الناس يملؤونه.. ويصلون في ساحاته المجاورة.. يأتون قبل الفجر بساعات.. ويجلسون للذكر.. وسماع القرآن من خلال مكبرات الصوت.. ثمَّ بعد الصلاة يحضرون درسًا صغيرًا.. بعدها يتجه الإمام إلى قرب باب القبر.. ويبدأ بالدُّعاء لعموم المسلمين.. والناس يؤمِّنون على دعائه ووجههم للقبلة.. والبعض يولي القبر وجهه!! ثمَّ بعد ذلك ينصرف كلٌّ بفوزه.. ويبقى صاحب القبر محفوظًا بدعوة حبيبه ﷺ.

هاهو المسجد.. قبَّته البيضاء المزخرفة بالأزرق والأحمر.. مقصورته السلطانية المرمرية الواقعة على يمين الداخل.. منبره الرُّخامي المرمري المذهَّب.. والآيات المنقوشة على جداره.. واللوحات المعلَّقة على واجهته، ومحرابه الرخامي الأبيض الذي نُقش عليه قول الله تعالى:

﴿... فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ...﴾(١١٣)، من فوق قوله تعالى: ﴿... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ ... ﴿٣٧﴾﴾(آل عمران)، وعلى جدار القبلة نقشت بسطر واحد الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾(الأحزاب)، الأرضية سجادتها حمراء.. يعتمد المسجد في إضاءته على الشبابيك في القبة.. وفي الواجهة القبلية.. لذا فالإضاءة خفيفة.. لن تجد بدًا من أنْ تجلس لحظات هنا لتنال الهدوء النفسي.. لتنال الراحة التي قد لا تجدها ثانية.

في مرة كنت أتكلَّم مع أحد الإخوة.. يُعَدُّ من العامة في تركيَة.. وصلنا بالحديث إلى خسارة تركيَة للحرب العالمية.. واحتلال القوى الدولية لها.. فقال: "أتعلم لماذا لم تنتهِ تركيَة يومها.. ولماذا لم ينتهِ الإسلام هنا؟"، سألته عن السبب.. فمن الملفت أنَّ معظم دول شرق أوروبة والتي كانت ذات أغلبية المسلمة خلال الحكم العثماني، أصبحت خالية أو شبه خالية من الإسلام.. فبلغارية مثلاً: كان المسلمون فيها يزيدون عن (٩٠٪) قُبَيْلَ خروج العثمانيين منها.. هي اليوم ذات أغلبية مسيحية،

فالمسلمون لا يزيدون عن (١٣٪)، وكل ذلك جرَّاء المذابح والتنصير الذي قام به القياصرة الروس هناك.. لذا كان سؤالي عن السبب، وكان رده أنْ قال: "السبب هو ولي الله الراقد في أيوب سلطان"، إنَّ وجود هذا الرجل يحفظ تركيَة من أنْ تضمحل.. ويعصم الإسلام فيها".. بغض النظر عن صحة كلامه أو عدمه، إلاَّ أنَّ في النفس ما يجعلك تقبله، إذْ أنَّ ذلك وعد من الله على لسان رسوله ﷺ.

خرجت من أيوب سلطان بعد أنْ متَّعت عيني بجمال المسجد وساحاته.. خرجت من الباب الجنوبي للساحة الغربية.. ووقفت أقرأ قول الحبيب المصطفى ﷺ : "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ، وعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَصْحَابِ القُبُوْرِ".. صدق رسول الله ﷺ ، هذا صاحبه هنا.. غريب.. وهو صاحب القبر الحي هنا.. إنَّني أزعم أنَّ الله حقَّق له أمنيته يوم الفتح.. أزعم أنَّه سمع وقع الخيل تدخل المدينة.. وقرَّت عينه بالفوز والنصر.

خرجت من الباب مفعمًا بالحب.. وروحي تتجدَّدْ.. وقلبي يدفق دمًا جديدًا في عروقي.. ورحت أتمشى في المكان حول المسجد وروحي خفيفة بين جنبي.. أتنقَّل بين المحلات.. فالقبور التي كانت بدعة من بدع الجمال.. أحس بالأحياء فيها ينبضون.. تخطَّيت كلَّ ذلك.. ورحت أطوف في المكان.. حتَّى وصلت إلى أوَّل الشارع الذي سآخذ منه سيارة أجرة تعيدني إلى داخل المدينة.. إلى إسطنبول بعد أنْ أحسست أنِّي زرتها اليوم

فعلا.. بعد أنْ سجَّلت زهوي.. وفرحي.. وأطفأت شوقي إلى قريبي البعيد الذي كنت.. ولا أزال أفخر بصلة قرابتي منه.. إلى سيدي أبي أيوب.. خالد بن زيد.. وليس ذلك عنصرية أو تعصبًا.. فكلٌّ بني الإسلام من ذلك الرجل الصالح رَحِم.

تحت الأرض

قطعت طريقي العائد إلى إسطنبول على ضفاف القرن الذهبي.. سعت بي السيارة إلى أنْ أقبلت على السور البيزنطي القديم.. ودخلت حدود المدينة.. تحرَّكت حتى وصلت إلى برج "غَلَطَة"، فمررت في ظلال "يني جامع" لأصل إلى محاذات طوبقابي سراي.. فأتخطاه إلى النفق الذي يخرجني تحت القصر.. فأدخل المدينة من تلك الجهة.. لأنزل بين سلطان أحمد وأياصوفيا .. ولكن هذه المرة في شارع "ديفان أوغلو" على باب اليارياتان سراي.

"يارياتان".. وتعني بالتركية تحت الأرض، ويسمَّى سراي لأنَّه كان أسفل القصر الأول لقسطنطين العظيم، ويسمى كنيسة ياريبتان "بازليكا" لأن سقفه كان في عصر من العصور أرضًا لكنيسة سميت باسمه، ويسمى صهريج.. أو خزان ياريبتان لأنَّه كان الصهريج الذي يغذِّي المدينة على مدى (١٥٠٠) عام تقريبًا.

ويُعد "ياريباتان" أكبر صهريج ماء في التاريخ القديم، ويسمى أيضًا "القصر الغاطس".. أو الصهريج الغاطس، وهو أكبر صهريج ضمن سلسلة صهاريج الماء المبنية تحت القسطنطينية، ويقع في المنطقة المقابلة لأيا صوفيا، وقد بناه الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأوَّل، ثمَّ أعاد بناءه وتوسعته الإمبراطور جستنيان الأول في إصلاحاته عام (٥٣٢م)، حيث أعيد افتتاحه كخزان ماء. كان الهدف من بنائه تحصين المدينة وتوفير الماء للقصر البيزنطي في حال حصاره في أعمال الشغب أو الحروب، وقد استمر استخدامه لسُقْيَا قصر طوبقابي في العهد العثماني.

على بعد (٥٥) درجة تحت الأرض يقع الصهريج وهو قاعة مساحتها (٩٨٠٠م٢) بواقع (٧٠×١٤٠م) تستوعب (٨٠٠٠٠ متر مكعب من الماء)، تقوم هذه القاعة على (٣٣٦) عمود من الرخام بعضها مكون من قطعة واحدة.. وبعضها من قطعتين وارتفاعها (٩) أمتار، مرتبة على (١٢) صفًا، في كل صف (٢٨) عامودًا، تم جلبها من أماكن ومعابد مختلفة من الإمبراطورية البيزنطية الكبرى لذا فهي لا تحمل أيَّ زينة وضعت عليها.. فتلك المزينة جُلبت من معابدها بهذا الشكل، وُصِلتْ هذه الأعمدة فيما بينها بأقواس لتخفيف الضغط، أمَّا جدار الخزان الخارجي فسُمْكُهُ (٤,٩٠م)، وله نظام خاص لتسريب المياه من الأعلى إلى الخزان، ومنع تَسَرُّبِهَا إلى الأرض، وكان يُغذى الصهريج من قنوات بنيت لتحمل الماء من غابات بلغراد التي تبعد عن القسطنطينية

قرابة (١٩) كم، وقد تمت أعمال ترميم كثيرة للمبنى كان آخرها في العام (١٤٠٥هـ)، (١٩٨٥م) حيث قامت بلدية إسطنبول بإعادة تأهيل الصهريج مرة أخرى، وتم افتتاحه للزوار في (١٤٠٧هـ)، (١٩٨٧م) كمعلم ثقافي عالمي، إنَّ تشكيلة الأروقة التي تواجه النازل من السلَّم الحجري إلى قاع ممرات الخزان لهي في حد ذاتها تحفة معمارية.

إنَّ الصهريج في حد ذاته حديث يطول.. وكلام يُسهِب.. هنا تقرأ تاريخًا لا يعلم كنهه.. بعض الأعمدة لها قصَّة والقصص في حد ذاتها تاريخ، حُملت هذه الأعمدة من معابد مختلفة، وبعضها جيء به لكون طوله مناسبًا.. وآخر كمَّل بعضه بعضًا.

عامود الدموع

بعد أنْ تنزل ستقودك الممرات بنفسها.. ستعبر الجسور الطافية على مياه الصهريج.. سترى الأسماك التي تسبح في ظلمته على النور الخافت النازل من سقفه.. ستحس وكأنَّك تمشي في غابة من الأعمدة بعد غروب الشمس.. الفرق أنَّك لن تشعر بالخوف من ظهور حيوان مفترس.. أو مخلوقٍ مرعب.. الفرق أنَّك هنا ستحسُّ بالأمان.. ستقطع الجسر الخارج من القاعدة أسفل الدرج.. سينتهي.. اتجه معه يمينًا.. ثم شمالاً.. قف.. هنا بالتحديد.. أنظر إلى يسارك.. هذا العامود سيخيَّل إليك أنَّ دموعًا تهطل من أعلاه لأسفله.. سيخيَّل لك أنَّك تستمع إلى بكاء مكتوم.. نعم.. إنَّ

هذه التشكيلات الأشبه بريشة الطاووس هي الدموع، ويقال إنَّه أحد أعمدة قوس النصر (فورم تاوري)، والذي بناه ثيودوسيوس العظيم ككاتدرائية تحمل اسمه، ثمَّ قام بنصب عامود في وسطه نُحت بهذا الشكل تخليدًا لذكرى مئات العبيد الذين قضوا هلاكا في بناء الكاتدرائية، وفي عهد جستنيانوس الأول.. أي بعد هلاك ثيودوسيوس الكبير بقرابة (٢٠٠) عام كُسر جزء من ذلك العامود وحُمل إلى هذه النقطة، ولا يزال الجزء المتبقي موجودًا في تلك الساحة أو الميدان الباقي من الكاتدرائية، ويلاحظ الشبه الكبير بين العمودين، ويزعم بعض الناقلين أنَّ هذا العامود نُحِت أصلا في داخل الصهريج لنفس السبب.. تخليدًا لذكرى مئات العبيد الذين قضوا في بنائه.. وأيًّا كان فإنَّ هذا العامود (إن صح ما نقل عنه) ملطَّخ بدماء أناس قضوا لتخليد ذكرى رجل هلك مع الزمن، واليوم.. يأتي الناس هنا لرمي النقود أسفل هذا العامود.. وتمني الأماني.. خليط من الإعجاب والتعجُّب والمرارة!!

رأس ميدوسا

تراجع إلى الخلف خطوات.. أكمل طريقك لتصل إلى آخر الممر الطويل للياريباتان.. في العهد العثماني تمَّ استخراج طمي كان يغطي قرابة (٣م) من هذه الحفرة.. لتظهر للأعين الرأس الكبيرة الواقعة على يسارك في الأسفل.. انزل الدرجات.. لا تخف.. فهي لا تعمل، لقد اعتنى الرومان

بذلك.. فوضعوا الرؤوس مقلوبة أو على جنبها لكي لا تعمل سلطة البصر فيها!!

تروي الأساطير اليونانيَّة أنَّ "بيرسيوس" بن الإله "زيوس" أعجب بـ"ميدوسا" وهي إحدى بنات الآلهة.. وقرر أنْ يتزوَّجها.. وكان يحدِّث عنها الآلهة الأخرى.. فغارت منها آلهة الجمال "أثينا" ورمتها بلعنة.. فأصبح كلُّ من يراها.. يتحوَّل إلى حجر.. رأس امرأة بعين سوداء محفورة كالغور.. شعرها الطويل يتلوَّى برؤوس ثعابين.. وفعلا أصبحت لعنة.. تحرَّك بيرسيوس إليها.. صدَّها بدرعه.. فرأت انعكاس وجهها.. فتحوَّلت لحجر، قام بيرسيوس بقطع رأسها واستخدمها في حروبه لتحويل أعدائه إلى حجارة.

قديما استخدم الرومان واليونان هذه الأسطورة لترهيب الناس.. ولحماية معابدهم، فكانت إحدى "الجرجونات الثلاث" (ميدوسا وأختيها) تنصب تمثالاً على باب المعبد كحارس ليل من اللصوص.

هنا ترى نموذجين مكعبين لرأس ميدوسا.. حجم الواحد منهما متر مكعب.. يرتكز عليهما عامودان.. لا تخف.. فالرأسان لا يعملان، ولا يُعرف متى.. أو كيف.. أو من أين تمَّ جلبهما، المعروف أنَّ اكتشافهما تم أثناء إخراج الطمي من قاع الصهريج في العهد العثماني.. ولك أنْ تتخيَّل وجه الحفَّار الذي رآهما في الظلام.. تحت نور الأسرجة في آخر نقطة في

عمق الخزان المظلم.. كيف تحوَّل من الرعب إلى حجر.. إلاَّ أنه عاد للحياة بعدها.. تَصَوُّرٌ لا أكثر.

الخروج من الحفرة

اترك ميدوسا خلفك.. عد أدراجك باتجاه عامود الدموع.. طف بجانبه.. لاشعوريًّا ستلتفت إليه.. أتُراك ستستدعي أمرًا ما.. أمْ سيدور في خلَدِك حديث ما.. أكمل طريقك إلى آخر الممر.. في هذه النقطة أمامك تُقام احتفالات موسيقية.. وتعزف الأوركسترا أو الفرق موسيقاها وترتفع وتيرة المهرجانات.. لا يحتاج هذا المكان بصداه إلى ميكروفونات.. عرِّج يسارًا.. ثمَّ يمينًا.. لتقف أمام مقهى الياريباتان.. من دون شعور ستجلس.. لا لتحتسي شيئًا.. بل لأنَّ المكان مدعاة للجلوس هنا.

هذا المكان.. الذي بناه قسطنطين الأوَّل قرابة (٣٣٠م)، وأعاد تعميره الإمبراطور فالنس (٣٦٤- ٣٧٨م)[١١٤] في (٣٦٨م)، ووسَّعه وجمَّله جستنيان الأول في (٥٣٢م)، وكان له الأثر في حماية القسطنطينية من أي حصار تقع تحت نَيْرِهِ، إذ كان يوفر لها الماء دائمًا، كانَ مصدرًا لسقيا المدينة الجديدة، وبالأخص طوبقابي سراي، وقد أعاد تجديده الفاتح أوَّل ما فتح القسطنطينية، كما أوكل السلطان أحمد الثالث في العام (١١٣٥هـ)، (١٧٢٣م) لقَيْصري محمد آغا عمليات ترميمه ومعالجة أنظمته، وأعاد السلطان عبد الحميد الثاني في

(١٢٩٣هـ)، (١٨٧٧م) استصلاحه،أغلق بعدها لمدة طويلة، حتى قامت بلدية إسطنبول بإعادة تعميره، وبنت الممرات والمنصات التي نراها اليوم، وفتحته للزوار في (١٤٠٧هـ)، (١٩٨٧م).

كُلُّ هذا التاريخ ستقرؤه هنا.. وأنت تجلس على طاولة المقهى، قُبيل أنْ تقوم لتصعد الدرج الآخر خلفك.. والذي سيظهر بك في أوَّل شارع "علمدار" محمَّلاً بجزء جديد من تاريخ هذه المدينة العظيمة.

قصص حول الصهريج

في فلم جمس بوند الذي قدِّم عام (١٣٨٨هـ)، (١٩٦٩م)، قام الممثلون بتمثيل مشاهد منه في الياريباتان، والذي يبدو أنَّه يثير الضيق في أنفس القائمين على السياحة في تركيَة، إذ صور الفلم الياريباتان أسفل القنصلية الروسية، والتي تقع في الحقيقة على الضفَّة الأخرى من مضيق القرن الذهبي في "إستقلال قادسي"، كما صوَّر الفلم جامع السلطان أحمد لَصِيقًا بسليمانية جامع، ووزارة السياحة التركية تذكر ذلك في كلِّ تعريف لأحد هذه المعالم الثلاثة.. لذا أحببت أنْ أورده هنا.

جولهانه بارك

إذا خرجت من باب الياريياتان واتجهت نزولا في شارع علمدار.. ستصل إلى باب من أبواب طوبقابي سراي، ذلك الباب المؤدِّي إلى "جولهانه باغجة" أو حديقة جولهانه.

يقال إنَّ الفاتح رحمه الله كان يعشق هذه الحديقة.. وقد يروي لك أحدهم أنَّ شجرة الدُّلْب الكبيرة الواقعة أسفل القصر كانت تجمع الفاتح وبعض نسائه قبيل المغيب، ويروى أنَّ مراد الرابع كان لا يفوت التنقُّل في ربوع هذه الحديقة قبل شروق الشمس، ويقال إنَّ معظم قصائد الشاعر العثماني "محبي" نُسجت هنا، وأنَّ الشاعر العثماني "بختي" كان يحب أنْ يُطلَّ على هذه الحديقة من قصره في الأعلى ونظم قصائده، مُحِبِّي هو الاسم المستعار للسلطان سليمان القانوني، وبختي هو الاسم المستعار للسلطان أحمد الأول.

وبغض النظر عن كون هذا الكلام صحيحًا أم مكذوبًا، إلاَّ أنَّ الحديقة تستحقُّ الزيارة.. فحينما تدخل من الباب الذي نزلت قبالته ستدهشك هذه (الجزيرة) الملوَّنة المتنوعة، وستسلب منك كلَّ رغبة في الخروج منها من دون استكشاف ولو جزء بسيط من جمالها، ستتوغَّل في طريقها الوحيد.. وستجتاحك الرغبة في أنْ تقطع جسورها الواصلة بين ضفة الحديقة والمباني الإدارية الملاصقة للسور.. لن تفوِّت أنْ تستنشق

عبير الزهور المتناثرة على جنبات الطريق.. ولا أنْ تزور متحف تاريخ العلوم والتكنلوجيا في الإسلام، والذي يقع في أحد مباني الحديقة..حاولت زيارته لمرتين.. إلاَّ أنني لم أوفق لذلك، لكن يكفي أنْ تعلم أنَّه يحوي نماذج منفَّذة على كتب ابن الهيثم.. والفرابي.. والحيل لأبناء موسى.. وابن الجزار... إلى آخر أولئك العباقرة الذين قدَّموا أوَّلَ نموذج للساعة الحديثة.. وأوَّل نموذج لمولد رفع المياه، وأوَّل نموذج لآلات تحديد الاتجاه "الاسطرلاب"، وأدقَّ خارطة للعالم قبل الوصول إلى التصوير بالأقمار الصناعية، وأوَّل نموذج للكرة الأرضية، وهو الذي ستراه أمام الباب الرئيس للمتحف، كلُّ هذه النماذج أشرف على تنفيذها من مصادرها العربية، والفارسية، والتركية، معهد التاريخ العربي والإسلامي بجامعة يوهان فلفجانج جوته بفرانكفورت في ألمانية.

لن تخسر كثيرًا إنْ زرت المتحف.. ولكنك ستخسر أكثر إنْ لم تزر جولهانه باغجة، تستطيع بعد الخروج من باب جولهانه باغجة أنْ تعرِّج على مطعم "ضياشرق" الملاصق للباب لتناول عشائك.. إلاَّ أنَّ فرعه الواقع على أطراف إسطنبول قرب حديقة "فلوريا" أكبر.. وأهدأ.

×××

لقد كان اليوم حافلاً.. إلاَّ أنَّ الوقت لا يزال مبكرًا على العودة إلى الفندق.. عندها قررت أنْ لا أفوِّت رحلة في عرض البوسفور.. فالشمس

لم تغب بعد.. والمناظر الخلابة تسترعي الانتباه.. وحوار الضفَّتين شجي.. يصعب أنْ تفوِّته مهما كان السبب، هذه المرَّة نزلت البوسفور من الميناء المقابل لـ"غَلَطَة" على ضفَّة "إيْمِيْنونو"، لأتمتع بمشاهد أوسع من تلك التي رأيتها في الرِّحلة الماضية، وفعلا.. كانت الرحلة ممتعة.. وكان السحر هو الغروب الذي خلبني فيها، والذي رسم لإسطنبول منظرًا لا أصفه.. ولا يفيه إلاَّ مشاهدته.. لقد كان منظر المآذن في طريق العودة أشبه بالسحر.. منظر يشعرك أنَّ تلك الدَّولة التي قضت منذ قرن من الزمن لا تزال تفرض سيطرتها وهيبتها على البسيطة.. منظرٌ.. أوَّاه لو يتكرر بمشاعره دائمًا.

بعد الرحلة عدت إلى الفندق لأنال قسط الراحة المناسب للغد.. إذ أنَّني سَأَشْرُفُ بزيارة عاصمة العثمانيين الأخيرة في آسية.. "بورصة".

---

١٠٨) هو أبو أيوب، خالد بن زيد النجاري الخزرجي الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ، بايع في بيعة العقبة الثانية، وهو الذي نزل الرسول ﷺ في داره حين نزل المدينة، شهد مع الرسول ﷺ المشاهد كلَّها، ثمَّ شهد الفتوحات في عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ثم كان مع علي أيام فتنته مع معاوية، وقاتل مع علي الخوارج، وكان في أوَّل جيش يغزو القسطنطينية، وثبت أنَّ رسول الله ﷺ قال: "أوَّل جيش يغزو القسطنطينية مغفور له"، وكان له مواقف مع رسول الله ﷺ، منها موقفه من الإفك حين كذَّب ما قيل في أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها هو وأهل بيته، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ سورة النور، وليلة بنى الرسول بأمِّ المؤمنين صفيَّة بنت حيي رضي الله عنها وقف على باب قبَّة النبي ﷺ حارسًا، فلمَّا خرج ﷺ صباحًا ورآه سأله عن ذلك فقال: "خشيت عليك منها، فهي امرأة حديثة عهد بكفر، وأبوها وأخوها قُتلا على أيدينا، فبتُّ أحرسك"، فقال الرسول ﷺ: "اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني"، وفعلا حفظه الله قرابة (٨٠٠) سنة بين ظهراني الروم يهتمون بقبره، ويكرمونه حتى فتح الله على المسلمين القسطنطينية، ويبدو أنَّ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وجد على أبي أيوب رضي الله عنه وأرضاه موقفه مع علي رضي الله عنه، فيروى أنَّ أبا أيوبٍ استثقل دينًا فشكا ذلك إلى معاوية فصد عنه، فقال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنّكم سترون أثَرَة" قال معاوية: "فأي شيءٍ قال لكم؟"، قال: "قال: "اصبروا"، قال معاوية: "فاصبروا"، فقال أبو أيوب: "والله لا أسألك شيئاً أبداً"، ورحل عنه، فلما نزل البصرة وعلم عنه ابن عباس، فرَّغ له بيتَه وقال: "لأصْنَعَنّ بكَ كما

صنعت برسول الله ﷺ"، وسدَّ له دينه، وزاده عشرين ألفاً وعشرين مملوكاً. ولما دعا الداعي إلى فتح القسطنطينية، وكان أبو أيوب ابن ثمانين سنة (وقيل تسعين) أجاب الدَّاعي وخرج مع الجيش، وخلال أيَّام الحصار مرض (ويقال إنَّه أصيب في المعركة)، فلمَّا شارف أوصى فقال: "إذا متُّ فاحملوني على رؤوسكم وسيروا بي بعيدًا بعيدًا في أرض الروم، إلى أقرب مكان من جدار العدو.. فخطُّوا قبري برماحكم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يدفن عند سور القسطنطينية رجلٌ صالح"، أرجو أن أكون هو.. ولا ترفعوا قبري ولا تعلِّموه، حتَّى إذا فتح الله على المسلمين القسطنطينية ودخلتها خيلكم.. ضربت على قبري.. فأسمع وقع حوافرها.. فأدرك حينئذٍ أنَّكم أدركتم ما تبتغون من النصر والفوز". يقول بن عبد ربِّه في العقد الفريد: "وحمل على سريره، ثم أخرج (يزيد) الكتائب. فجعل قيصر يرى سريراً يحمل والناس يقتتلون. فأرسل إلى يزيد: "ما هذا الذي أرى؟" قال: "صاحب نبينا وقد سألَنا أن نُقدمه في بلادك، ونحن منفذون وصيته، أو تلحق أرواحنا بالله". فأرسل إليه: "العجب كل العجب!! كيف يُدَهِّيْ الناس أباك وهو يرسلك؟! فتعمد إلى صاحب نبيك فتدفنه في بلادنا!!، فإذا وليت أخرجناه إلى الكلاب" فقال يزيد: "إني والله ما أردت أن أودعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم، فإنك كافر بالذي أكرمت هذا له، لئن بلغني أنه نبش من قبره.. أو مُثِّلَ به، لا تركت بأرض العرب نصرانياً إلا قتلته، ولا كنيسة إلا هدمتها". فبعث إليه قيصر: "أبوك كان أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظنه بيدي سنةً". فلقد بلغني أنه بني على قبره قبة يسرج فيها إلى اليوم". فأصبح قبره لأهل قسطنطينية مزارًا يتعاهدونه ويزورونه ويستسقون به إذا قحطوا.

١٠٩) قسطنطين الرابع (٦٥٢- ٦٦٨- ٦٨٥م) ويسمَّى خطأً "بوجستانوس" (ومعناها: ذو اللحية)، إذ يلتبس ذلك مع والده قسطنطين الثالث بوجوستانوس، وذلك لأنَّ الرابع كان شريكًا في العرش مع والده منذ (٦٥٤م) وحتى اغتيال والده في (٦٦٨)، كانت أوَّل مهمة واجهته قبل اعتلائه العرش قمع الثورة العسكرية في صقلية، والتي نجحت مفاوضاتها أولا ثمَّ فشلت بسبب التحركات الأموية في شرق الإمبراطورية، إذ استولى الأمويون على شمال شبه الجزيرة الأناضولية، ومدينة أموريا رغم تحصينها القوي، وقرطاج وصقلية، ثم سيطروا على مدخل بحر مرمرة، واستولت سفنهم على إزمير، تمهيدًا لإسقاط القسطنطينية، وفي (٦٧٢م) تحركت الأساطيل البحرية العربية بقيادة يزيد بن معاوية لحصار القسطنطينية، وظل الحصار الإسلامي على المدينة حتى (٦٧٨م)، وفي (٦٨٠م) دعا قسطنطين إلى المجمع المسكوني السادس (وهو الثالث في القسطنطينية) وذلك لحل الخلاف بين المونوثيليين (المؤمنين ببشرية المسيح) والأرثوذوكس وقد دار الجدال حول مناسبة المذهب المونوثولي في الوقت الذي أصبح الأمويون يسيطرون فيه على أجزاء كبيرة من الدولة، وفي نفس العام عبر البلغار نهر الدانوب وضمُّوا المقاطعات السلافية إلى مملكتهم الناشئة، فقاد قسطنطين حملة كبيرة وحاصرهم في طبروقا "ملدوفا حاليا"، ولكنه اضطر للانسحاب بسبب سوء صحته مما حمى البلغار من الهزيمة، وفي العام التالي اعترف قسطنطين بهزيمته أمام المملكة البلغارية الجديدة، ودفع ضريبة لها لعدم التوغل في الأراضي البيزنطية، وبسرعة تدهورت صحته ليموت في (٦٨٥م) بالدزنتاريا، ويخلف في العرش وريثه الصغير جستنيان الثاني. يذكر أنَّ قسطنطين (كما وعد يزيد خلال الحصار) كان يقوم بغسل قبر أبي أيوب الأنصاري بيده أسبوعيا لمدة عام، وهو الذي وضع

الحراسة عليه.. والتي استمرت حتى الفتح الإسلامي للقسطنطينية، خوفًا من أنْ يخرِّبه أحد، فينفذ المسلمون تهديدهم بإعدام جميع المسيحيين في الأماكن الخاضعة لسيطرتهم.

١١٠) هو الشيخ شمس الدين محمد بن حمزة الدمشقي (٧٩٢- ٨٦٤هـ) الموافق (١٣٣٠- ١٤٥٩م) الشهير بآق شمس الدين، يقال إنَّ نسبه يرجع إلى الخليفة الأول أبي بكر الصدِّق رضي الله عنه، فقيه، ولغوي، ولساني، وعالم نبات، وطبيب، وصيدلاني، تركماني الأصل.. ولد في دمشق، ورحل إلى بورصة، فذاع صيته وعلمه، فانتدبه السلطان مراد الثاني لتربية ولده محمد، فكان شيخه ومعلمه، علَّمه القرآن الكريم، والأحاديث، والفقه، والفلسفة، واللغات (العربية والفارسية) والرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وهو الذي غرس فيه التوثب لفتح القسطنطينية، ولذا يسمى بالفاتح المعنوي للقسطنطينية، وكان الشيخ شمس الدين ممن أشرفوا على الفاتح حين ولي إمارة مغنيسيا، وحين أصبح الفاتح سلطانا وتحرَّك لفتح القسطنطينية، برغم تململ وزرائه كان الشيخ آق شمس الدين، والقائد الينيشاري عثمان باشا يدعمانه، وحين كسرت السفن الجنوية الحصار العثماني، قرر رجال مجلس الحرب الانسحاب، وقف الشيخ آق شمس الدين موقفًا حازمًا من ذلك كان السبب في استكمال الحصار، وإلاَّ لكان محمد الثاني أحد السلاطين العثمانيين الذين لا يذكرهم التاريخ، وكما أدَّبه علميًّا كان الشيخ هو المرشد الروحي للفاتح، وكان يدعمه بكلِّ سلاح، فحين اشتدَّت الحرب أرسل الفاتح للشيخ يدعوه، فمنع حرس الشيخ دخول الرسول، فجاء الفاتح بنفسه، فمنعوه، فأخرج خنجره وشقَّ جدار الخيمة، فرأى الشيخ ساجدًا، وقد سقطَتْ عمامته عن رأسه، وهو يدعو الله بالنصر، ولَّما تحقق النصر كان

الشيخ أوَّل خطيب جمعة في أياصوفيا، وفيه قال الفاتح: "ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني"، ولما دخل السلطان القسطنطينية تقدَّم منه الشيخ أق، وذكَّره بحقوق الأُمَم المفتوحة على المسلمين، ولم ينس الشيخ آق دوره كمؤدِّب للسلطان حين دخل عليه السلطان ولم يقم له ليكسر في نفسه حاجز الغرور الذي قد ينشأ بفتح القسطنطينية، ورفض طلبه في دخول الخلوة لديه، وبين له أنَّ دوره أهم في السلطنة والجهاد منه في الخلوات والعبادة، يعد آق شمس الدين أوَّل من عرَّف المايكروب، وله أيادٍ بيضاء في علاج السرطان، وأولى الأمراض المعدية اهتمامًا خاصًّا، وكان عارفًا بأسرار العلاج النباتي، حتى اشتهر بين الناس أنَّ النبات يحدث الشيخ آق شمس الدين بأسراره، ومن كتبه: كتاب مادة الحياة، وكتاب الطب، وحل المشكلات، والرسالة النورية، ومقالات الأولياء، ورسالة في ذكر الله، وتلخيص المتائن، ودفع المتائن، ورسالة في شرح حاجي بايرام ولي، ورغم إصرار السلطان عليه إلاَّ أنَّ الشيخ تحرَّك إلى بلدته "كونيوك"، واستقر فيها إلى أنْ توفي رحمه الله.

١١١) السلطان سليم الثالث بن مصطفى الثالث (١١٧٤- ١٢٠٣- ١٢٢٢- ١٢٢٣هـ) الموافق (١٧٦١- ١٧٨٩- ١٨٠٧- ١٨٠٨م)، هو السلطان العثماني الثامن والعشرون، والخليفة العشرون، تولى السلطنة بعد وفاة عمِّه عبد الحميد الأول، وانصرف للقتال الذي كان متواصلا من أيام عمه، وفي عهده استولى الروس والنمساويين على الأفلاق، والبغدان، وصربيا، إلاَّ أنَّ النمساويين أعادوا بلاد الصرب إلى العثمانيين، وتدخلت الدول الغربية للصلح فكانت معاهدة ياس التي أخذت بموجبها روسية بلاد القرم نهائيًّا، تفرغ السلطان بعدها للإصلاحات الداخلية، وبدأ بتنظيم الجند للتخلُّص من سطوة

الينيشارية، مما أدَّى إلى عزله وقتله فيما بعد، في عهده دخل نابليون مصر، واستطاع أحمد باشا الجزار والي الشَّام صدَّه عن الشام، وتولى السلطنة بعده ابن عمِّه مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول.

١١٢) بيير لوتي، الاسم المستعار لجوليان فيود، من مواليد ١٤ يناير ١٨٥٠ بفرنسة، توفي ١٠ يونيو ١٩٢٣م، كاتب وروائي فرنسي، كان بحارًا في البحرية الفرنسية، شارك في القوات التي كانت تحتل الجزائر، والسنغال، وجنوب آسيا، والقوات التي احتلت إسطنبول خلال الحرب العالمية الأولى، إلاَّ أنه كان يكتب بموضوعية عن الفضائع التي كانت تقوم بها القوات الفرنسية، لذا: هدد بالفصل من الخدمة أكثر من مرة، وبعد الاستقلال منحته رئاسة الوزراء التركية خطاب شكر لجهوده في حرب الاستقلال التركيَّة، إلاَّ إلاَّ أنَّ هناك من المثقفين الأتراك من يشكك في ذلك، وقد كان له كتاب (سيء) عن الحرملك العثماني، اتضح فيما بعد انه اعتمد فيه على رواية لثلاث نساء، له مجموعات قصصية وروايات من واقع خبرته العملية، حول فضائع ضباط البحرية في السنغال، وفيتنام الشمالية، وكتب مقالات عن فضائع الفرنسيين في الهجوم على فيتنام، ونشر كتابا أسماه سجلَّ الرحلة إلى فاس، وله كتاب في ثلاثة أجزاء يصف رحلته إلى الأراضي المقدسة اسمه (الصحراء والقدس والجليل).

١١٣) سورة البقرة، الآيات (١٤٤) (١٤٩) (١٥٠).

١١٤) الإمبراطور فالنس (٣٦٤- ٣٧٨م) مؤسس الفرع الشرقي للأسرة الفالنتنيانية التي حكمت الإمبراطورية الرومانية، وهو الأخ الأصغر لفالنتيتيان الأول، الذي حكم روما بعد الإمبراطور جيوفان، فعيَّن أخاه فالنس حاكمًا مزدوجًا للجزء الشرقي من الإمبراطورية، وكان فالنس من الطائفة الأريانية،

مما جعله يضطهد الكاثوليك والأرثودوكس، ويتدخل في شؤون الوثنيين، ويطرد الأساقفة من القسطنطينية، واجه بعد سنة من حكمه تحدِّي القائد "بروكوبيوس"، الذي حاول الاستيلاء على الحكم، وكاد أنْ ينجح لولا خيانة رجاله له، وكان بروكوبيوس قد تلقى دعم القوط الغربيين (سكان رومانيا الحالية)، فما كان من الإمبراطور إلاَّ أنْ اجتاح مناطقهم، ودمرهم، وعقد معهم معاهدة نصت على أنَّ نهر الدانوب هو الحدود بين القوط والرومان، واستمر ذلك لمدة ست سنوات، واجه فالنس مؤامرة قام بها ثيودور الأنطاكي بدعم الكسرى الفارسي شاهبور الثاني، فاضطر بعد إحباطها لمحاربة شاهبور الذي احتل أرمينيا، فتقدَّم له.. وحاربه وانتصر عليه، إلاَّ أنَّ الشتاء حلَّ.. فاضطر إلى نزول أنطاكية، ولكن سوء معاملته لأهلها جعلت حربه مع الفرس تخسر فيما بعد، واضطر لعقد معاهدة كانت في مجملها لصالح الفرس، وفي عام (٣٧٦م) هجمت قبائل الهون الآسيوية على مناطق القوط الذين عبروا نهر "الدانوب"، وطلبوا اللجوء، فسمح لهم بذلك شريطة أخذ أطفالهم كرهائن، إلاَّ أنَّ القادة الرومان بدأوا يعاملونهم معاملة سيئة، مما أدَّى إلى ثورتهم، وسيطروا على المناطق التي بين أرضهم وتراقيا، ثمَّ حصلوا على دعم الهون، وتوجهوا إلى "أدريانابولس" لاحتلالها، تحرك فالنس بجيشه دون انتظار "غراتيان" ابن شقيقه (إمبراطور الغرب الجديد)، ودخل في معركة صيفية ضد الهون والآلان، والذين استطاعوا إرباك المشاة الرومان ومحاصرته، حتَّى دُمِّر الجيش بشكل كامل، وكان هو من بين القتلى، وثبَّت القوط أرجلهم من يومها جنوب نهر الدانوب.

اليوم الرابع: الطريق إلى بورصة

هل تستحق "بورسا" عناء الطريق؟! وهل تحتمل أكثر من يوم؟! كنت أسأل نفسي هذا السؤال وأنا أغادر فندق الكونراد صباح اليوم إلى الباص الذي سيقلُّني إلى "بورسا"، وسيُعيدني في نفس اليوم.. بورصة.. أو بورسة.. أو بورسا، كلُّها أسماء لمدينة واحدة، فهي في آخر الأمر تُنْسب إلى إمبراطور البيثينيين بروسياس الأوَّل (٢٢٨- ١٨٢ق.م.)[١١٥]، والذي غيَّر اسم المدينة إلى هذا الاسم حين وصلت إليه، ثمَّ أسماها الأتراك "بورصة".. ولذا فأنا أفضل اسم بورصة

خرجنا من منطقة "يلدز" باتجاه جسر البوسفور الأوَّل.. لنتخطَّاه إلى البر الآسيوي من إسطنبول.. لنسير في الطرق السريعة إلى منطقة "قاضيكوي".. أو "كاديكوي" وهي جزء من مدينة إسطنبول الآسيوية.. انفصل في (١٣٤٦هـ)، (١٩٢٨م) عن الأسكودار ليشكِّل منطقة منفصلة في المدينة.

هذه المدينة التي تغوص في عراقة التاريخ إلى ما قبل البيزنطيين.. إلى (٥٥٠٠ ق.م.) حيث وجدت آثار تعود إلى تلك الحقبة في تلة (فيكرتيبي)، هذه المدينة التي كانت تسمى في التاريخ الإغريقي (خلقدونية)، والتي يظنُّ أنها كانت ميناءً فينيقيًّا، وأوَّل مستوطنة للإغريق، الذين نزلوها حوالي (٦٨٥ق.م.)، هذه المدينة التي أصبحت تُعْرَف بمدينة المكفوفين، إذ تقول النبوءة التي بنى عليها قسطنطين روما الجديدة أنَّها ستقابل مدينة المكفوفين (ومعنى ذلك الذين لا يقدِّرون قيمة الأرض الواقعة على رأس شبه الجزيرة في القرن الذهبي، مع أنَّها أمامهم.. فهم كالمكفوفين)، هذه المدينة التي عاصرت ملوكًا مختلفين.. وديانات متباينة.. حكمها الفرس، وسيطر عليها البيثينيون، واحتلها الرومان، واستباحها الصليبيون في حملتهم الرابعة، واستعادها البيزنطيون، وأقامها العرب، وسيطر عليها الترك "العثمانيون".

في (٧٥٤هـ)، (١٣٥٣م) أي قبل قرن من فتح إسطنبول، سُجِّل بناء أقدم مسجد موجود اليوم في قاضيكوي.. وبذلك يكون ذلك المسجد هو أقدم مسجد في اسطنبول.

سميت المنطقة بقاضيكوي لكونها تقع في ريف إسطنبول، وفي أوقات الحروب تكون مكشوفة للغزاة.. لذا فهي تتبع إداريًّا لمحاكم إسطنبول.. لذا فقد سميت قرية القاضي، وقد كانت سوقًا شعبيًا.. ثمَّ أصبحت سوقًا زراعيًّا.. وبعدها كانت حيًّا يقطنه أولئك الذين يضطرون

إلى النزول إلى المدينة عن طريق المراكب وهم ليسوا من أهلها، كالأرمن.. واليهود.. واليونان.. لذا فالمنطقة تحوي كنائس أرمنية، ويونانية، وصربية، وكاثوليكية، وبروتستانتيَّة، وكُنُسًا يهودية، لقد كانت المنطقة في القديم هي المركز الرئيس والأخير في محطة سكَّة الحديد "خطُّ الحجاز" فبها تقع محطَّة حيدر باشا، والتي كانت تنتهي بها سكَّة الحديد.

في هذه المدينة وقفنا ننتظر العبَّارة التي ستقلُّنا إلى "يالوفا".. النقطة المقابلة من الشط الآسيوي للمدينة.. والتي ستقطع بحر مرمرة.. مرورًا بجزر الأميرات، لن تكون الرحلة عادية.. لن تكون مجرد أنْ تدخل سيارتك في العبارة.. وأنْ تستقلَّ أنت متن العبارة لمدة نصف ساعة لتستنشق عبير البحر.. ثمَّ تنزل، لا.. بل ستكون رحلة في عمق التاريخ.. إنَّك ترجع بالتاريخ إلى الوراء.. ستقطع –عكس كل الفاتحين- الشاطئ من شماله إلى جنوبه.. من إسطنبوله إلى ريفه.. من خلقدونيا (قضاكوي) إلى "يالوفا".. ستستمتع بالبحر.. مؤكَّد أنَّك ستستمتع به.

وصلنا إلى ميناء "طوبشلر" ومنه إلى مدينة "يالوفا"، توأم "بون" الألمانية و"محج قلعة" الداغستانية، حسب قائمة توأمة المدن العالمية، والتي تقع في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الأناضولية، وتطلُّ على بحر مرمرة، وهي عاصمة محافظة "يالوفا"، ومعنى الاسم "الساحل المنبسط" (يالي) تعني الساحل بالتركية، و(أوفا) تعني المنبسط.

ترفَّق وأنت تضغط بعينك على سهول المدينة، فأنْت تزور مدينة ذكرت في التاريخ أوَّل ما ذكرت عام (٣٠٠٠ق.م.)، حينما اتخذها "الهيتيون" عاصمة لمملكتهم التي سيطرت على غرب شبه الجزيرة الأناضولية كله حتَّى العام (١٢٠٠ق.م.) حين استولى عليها الفرجانيون، قاضين بذلك على الهيتيين، وظلت المدينة تابعة لهم حتى احتلها الرومان في (٧٤ق.م.) وتختفي من التاريخ حتى تعود إقليمًا في الإمبراطورية البيزنطية حينما أحسُّوا بأهميتها في (٣٩٥م)، وظلت تحت حكم البيزنطيين حتى العام (٧٠٢هـ)، (١٣٠٢م) حيث ضُمَّتْ إلى الحكم العثماني في عهد عثمان الأول المؤسس، لتأخذ موقعها الاستراتيجي في فتوحات أوروبة.

تشتهر "يالوفا" بتقديمها لأجود أنواع وأشكال حلوى راحة الحلقوم التركية.. وتتوزَّع محال الحلوى في الطرقات كأنَّها محلات سوبرماركت كبيرة، إلاَّ أنَّها لا تبيع إلاَّ حلوى الحلقوم.. والحلقوم فقط، وتذيع شهرتها أيضًا بأنَّها المكان الوحيد في الشرق إنْ لم يكن في العالم الذي ينتج زيتون الجمنك المشهور، ولا تتعب نفسك.. فسترى شتلات الزيتون تغطي يمين ويسار الطرق.. وكأنَّها غابات، بعد قليل سترى شجرًا أحمر قليلا.. المنطقة التي ستمر عليها تسمَّى "سفَّران بلو" أو جبل الزعفران، وبها أحد أشهر محلات الحلوى.. إسمه "مشهور سفَّران بلو".

وبعيدًا عمَّا ستحمله معك من يلوفا من متاع، فمن الواجب أنْ لا تفوِّت على نفسك متعة الاستمتاع بحمَّامات المياه الكبريتية والينابيع الساخنة التي تشتهر بها يالوفا، وتسمَّى حمَّامات الطرمال، وهي غرف خاصة.. إنفرادية أو مجموعة، تسقى مياهها من ينابيع وشلالات كبريتية في يلوفا، ويوجد بالمدينة أيضًا أماكن عامة تحت مساقط بعض الشلالات وعلى أحواض بعض الينابيع الكبيرة، من الممكن أنْ يرتادها الناس خارج نطاق الخصوصيَّة.

بعد قرابة الربع ساعة.. أي على بعد ما يقارب (٣٠كم) ستدخل مدينة أخرى.. "أورهانيا".. أو "أورهانغازي".. وهي الضفَّة الغربية للبحيرة التي تسمَّى قديما "نيقيا".. أو "نيكيا"، وحاليا "إزنيك"، هذه المدينة التي أسسها السلطان العظيم أورخان الأول بن عثمان (٦٩٠- ٧٢٦- ٧٦٠هـ)[١١٦]، على الشط المقابل لمدينة "نيقيا" التي أسسها الإمبراطور نيكوميدوس الأوَّل (٢٧٨- ٢٥٥ ق.م.)[١١٧]، وكما أسس نيكوميدوس "نيكوميديا" لتكون عاصمته أسس أورخان الأوَّل أورهانيا على بحيرة إزنيك لتكون مركزًا على الطريق بين بورصة ويالوفا، ولتكون قريبة من مدينة "نيقيا".. تلك المدينة المقدَّسة.. مركز المجمع المسكوني الأوَّل الذي عقده قسطنطين الأوَّل للديانة المسيحية، والذي أقرَّ بألوهية المسيح عليه السلام، ذلك المجمع الذي نفى الأب "نسطور الأنطاكي" (نوستار)، مرجعيَّة المذاهب الموحدة في الديانة المسيحية إلى "أدريانا بولس".. حيث

قُتل هُناك مسمومًا، "نيقيا" المدينة التي قدَّمت (٢١٠٠٠) قطعة سيراميك لتزيَّن به جدران "سلطان أحمد جامع"، تمر عليها الآن مرور الكرام.. سترى جزءًا من السَّهل الذي استضاف المجمع المسكوني الأوَّل.. ستعبر بجانبه عبورًا.. لتكمل طريقك أيُّها العابر، ستمر بعدها على مدينة "جمنك" بلد مصانع الزيتون الذي ذكرته سابقًا.. وسترى البحر.. بحر مرمرة هادئًا يسلب اللب.. يحدِّثك بكثير حديث: .. يحدِّثك عن فتية (٤٠) عبروا مضيقه السفلي "الدردنيل" سباحة.. ليعودوا بكامل الأسطول البيزنطي.. ويحملوا كامل الجيش العثماني.. ويسيطروا على "غاليبولي" والمدن المحيطة بها.. ذلك سليمان بن أورخان الأول وجنوده، ويحدِّثك عن باخرة السفارة الألمانية التي حملت آخر الرجال المحترمين إلى سالونيك.. عبد الحميد الثاني.. وعادت به بعدها بسنوات.. يُنْبِيْكَ عن البارجة الملكية البريطانية التي حملت آخر السلاطين العثمانيين.. محمد وحيد الدين من إسطنبول إلى الريفيرا ليلاقي مصيره هناك، وتحدِّثك عن ذلك الرسام الذي عبر يومًا على سفينة إلى فينا ليكمل حياته كرسام بعد أنْ كان السلطان عبد المجيد أفندي الأخير.. آخر خلفاء المسلمين، سيتغنَّى لك بشابٍ قدم إلى هنا منذ أكثر من (١٣٠٠) سنة، عبر إلى البحر.. وسيطر عليه.. وحاصر القسطنطينية.. ثمَّ تركها ليكون الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، وعن شابٍ عبره عائدًا بعد أنْ فكَّ الخليفة الحصار عن المدينة بعدها بقرابة (٣٠) سنة.. ليعود فيكون يزيد بن عبد الملك الخليفة المرواني.. وعن مجموعة سفن جنوية وبندقيَّة.. عبرت المضيق لنجدة

القسطنطينية.. ولكنها لم تغن عن المدينة أمام نصر الله شيئًا، سيحدِّثك.. ويحدِّثك، سترى رومانًا.. وبيزنطيين.. وبلغارًا.. ويونانيين.. وأسبرطيين.. وعربًا.. سفنًا تحارب.. وأخرى تتاجر.. وثالثة تهاجم وتقرصن.. وكل ذلك في اللحظات التي ستتخطَّى فيها "جمنك".

تأهَّب فبعد قليل ستشرف على عاصمة الشرق التركي كله.. المدينة التي تجسِّد المدنية والطبيعة والتاريخ والحضارة في ثرثرة محتدمة.. تلك هي "بورصة".. أستطيع أنْ أقول إنَّ بورصة تستحق الزيارة.. تستحق أنْ تسهب فيها لأيَّامٍ.. لا أنْ تقضي فيها ساعة من نهار.. أنا قضيت فيها نهارًا ثمَّ تركتها وراء ظهري.

هذه هي بورصة.. بورسا.. بوريسيوس.. ومدينة أورخان غازي، المدينة التي حوت قبور أكابر السلاطين.. أولئك الذين ابتنوا مجد الدولة العثمانية من أساسه.. الذين أسسوا لمحمد الفاتح.. كي يأتي فيفتح القسطنطينية، أربعة سلاطين وجلبيِّين[١١٨] يرقدون في بورصة.. كلهم مدفونون في الجامع الأخضر الذي رأيته من بعيد ولم أزره، مررت في شوارع بورصة.. أظن أنَّني قطعتها من شمالها إلى جنوبها.. وقفت بقرب "يولو جامع".. أو الجامع الكبير، ذلك الذي افتتح في (٨٠٢هـ) الموافق (١٤٠٠م) في أواخر عهد السلطان بايزيد الأوَّل "يلدرم" (٧٥٨-٧٩١- ٨٠٤- ٨٠٥ هـ)[١١٩]. حينما تقبل عليه تحسُّ أنَّك انخلعت من

تركيَة العثمانية ودخلت إلى مدينة سلجوقيةٍ قديمةٍ.. فمبناه الآجرِّيُّ الطيني اللون وأحجاره الكبيرة تجعله أحدوثة من أحاديث الحُسْنِ.

بنى السلطان بايزيد الجامع من إيرادات الحرب كهدية للشعب بمناسبة الانتصار في معركة "نيقوبولس"، وقد أحرقه تيمورلنك حين دخل المدينة خلال ملاحقته لسليمان جلبي بن بايزيد، فأعاد السلطان محمد الأول ترميمه حين استعاد المدينة، وأضاف له المئذنة الشمالية، وتبلغ مساحة المسجد (٧٠×٦٠م)، وقد بني على الطراز السلجوقي، وله مئذنتان، وعشرون قبَّة، قطر الواحدة منها تقريبًا (١٠) أمتار، وتتوسَّطه من الداخل نافورة الوضوء، وقد رُفعت الأرض في مكان المحراب والمنبر، خلف مسطبة الإمام تلك.. وبملاصقة العامود الأوَّل في المسجد ترتفع مسطبة المؤذِّن، وعلى الجهة اليسرى من المحراب علِّقت مقصورة السلطان ملاصقة لجدار المسجد، وجدرانه لا تحمل أيَّ زخارف، إلاَّ أنَّه مزيَّن بلوحات الخط الكبرى والعجيبة، والتي تتحدَّث بالتناغم والتناظر عن مقدرة كبيرة لدى خطَّاطي الدولة العثمانية على مدى عصورها، يقال إنَّ معظم اللوحات التناظرية[١٢٠]، التي فيه كتبت من جهة واحدة، فلم تُقلَب.. ولم تُحرَّك.. ولم يتحرَّك خطَّاطها، وأنَّها تعود بالقدم إلى يوم بناء المسجد، وأنَّ أي لوحة عُلِّقت في المسجد لم ترفع من مكانها قط، ولقد دأب الخطَّاطون العثمانيون والأتراك على إهداء لوحاتٍ للمسجد، وأنَّ معظمها حديثة لا ترجع بِالقِدَمِ إلى تاريخ إنشاء المسجد (كما أخبرني

أستاذي شيخ الخطَّاطين الشيخ يوسف ذنون)، لذا فاللوحات التي تحملها حوائط المسجد أحدوثة في الجمال والروعة، ومن المهم أنْ نذكر أنَّه.. وحسب ما يقال في المصادر السياحية التركية فإنَّ المسجد لم يرمم منذ بنائه إلاَّ مرة واحدة.. هي التي قام بها السلطان محمد الأول.

توقفنا أمام المسجد قبيل الظهر.. الساحة الملاصقة للمسجد مدخلٌ للبازار الكبير في بورصة، وأمامها حديقة جميلة اسْتُغِلَّتْ كمقهى، دخلنا المسجد.. فاستغرق تواجدنا فيه الوقت حتَّى صلاة الظهر.. حين دخلنا كان الخطيب يحاضر الناس في درس الظهيرة، وهي عادة في كل جوامع تركيَة تقريبًا، والناس يتقاطرون إلى المسجد.. فلمَّا أُقِيْمَت الصلاة كان قد تعبأ من المسجد ثلثه الأمامي تقريبًا بالرجال، وثلثه الخلفي بالنساء.. وقفت مشدوهًا.. أراقب هذا المنظر.. أينَ تَرَى مثل هذا الحرص على الصلاة؟! ثلثا المسجد الكبير في بورصة.. الصفوف يمتد أحدها قرابة (٧٠م)، وعلى الأقل هناك قرابة (١٢) صفًا أماميًّا، وأقل منها بقليل للنساء.. يا لعظمة الدين الذي يجمع الناس.. يا لعظمة المسجد.. لقد صدق بانيه إذْ حفر على رأس المحراب الرخامي المذهَّب: قال الله تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾(الجن) صدق الله العظيم.

خرجت من المسجد إلى المدينة.. هذه المدينة التي شهدت لحظات كثيرة من جمال التاريخ العثماني التركي، هذه التي صبغتها الطبيعة

بلونها الجذَّاب، والتي عمَّرتها المدنية برونقها الأخَّاذ.. التي اختلط قديمها بجديدها دون أنْ يفقد أيٌّ منهما بريقه.. هذه المدينة التي شهدت في العام (١٢٨٤هـ)، (١٨٦٧م) ولادة طبق "إسكندر كباب" الشهير.. لذا فإنْ كنت في تركيَة فلا تفوِّت تذوُّقه، وإنْ مررت على بورصة فزر مطعم مُبْتَكِرِه.. "مطعم إسكندر" إعلاناته تملأ الأفق.. وطبقه هو الأصلي.

ركبت السيارة التي ستُقِلُّنَا إلى منطقة "عثمان غازي" والتي سننزل فيها قرب "تيرلفريك" بورصة الشهير، والذي سيرفعنا إلى قمَّة "يولو داغ" أو الجبل الكبير، عَيْبُ هذا المكان ازدحامه.. وأنَّه أنشئ عام (١٣٨٠هـ)، (١٩٦٠م) ولا تزال التيرلفريكات تعمل منذ ذلك اليوم.. هذا يثير الرعب.. ولكنه ممتع... ومصانٌ جيدًا، احتجنا قرابة الساعة حتَّى دخلنا إلى غرفة الصعود.. ونصف ساعة حتَّى دخلنا إلى المقطورة التي ارتفعت بنا لمسافة كيلومترين وتوقفت في محطة على "قاضيإيله" وهي هضبة معنى اسمها هضبة القاضي.. ولا أعلم سبب التسمية، ثمَّ دخلنا المقطورة الثانية التي رفعتنا إلى مسافة (٣) كيلومتر، ليكون المجموع (٥) كيلومترات، ولنقف حينها على أوَّل "يولو داغ".. نزلنا.. وبدأنا نتمشَّى في تلك المناطق الجميلة.. الطبيعة ساحرة.. الطبيعة هنا بِكر حسناء.. يقولون إنَّ هنا في هذه النواحي شجرة دُّلْب عمرها (٦٠٠) سنة.. نزلنا مع الطريق النازل من محطة النقل إلى طرقات القرية الصغيرة.. سوقٌ مقام على ناصية الطريق.. وخلفه نُزُل.. هذا النزل يبدو أنَّه شهير.. وأظنُّ أنَّ ذلك بسبب

الطريقة التي يقدِّم فيها طعامه.. فهو يحضر لك ولأسرتك طاولة.. وكراسي.. في حديقته.. ثمَّ يحضر لك شواية فحم.. وصحنًا فيه قطع مشكَّلة من اللحوم التركية.. لكل فرد طبق.. وأنت تستمتع بالشواء لنفسك.. والأكل.. مما يجعل التجربة حقيقة بالإعادة لولا بعد المسافة وساعات الانتظار أسفل غرفات النقل.

بعد الغداء كافأْنا أنفسنا بأكواب شاي تركية.. ثمَّ عدنا إلى المحطة.. لندخل في طابور الانتظار.. فالنزول.. كان الوقت قد شارف على المغيب.. بورصة هادئة على ضفاف المغيب.. غادرناها مسرعين لندرك العَبَّارَةَ في يالوفا.. وإلاَّ فسنضطر إلى قطع طريق البر.. وعندها فلن نصل إلاَّ مع شروق الشمس إلى إسطنبول.. كانت الشمس تودِّع.. توقفنا في أورهانغازي لشراء الحلوى.. من أحد المحلات الشهيرة هنا.. ثمَّ أكملنا مسيرنا إلى الميناء في يالوفا.. كنَّا محظوظين بإدراك العَبَّارَةِ التي تأخَّرت ربع ساعة لسبب نجهله.. فلم نضطر لانتظار العبارة التالية.

كان الظلام قد خيَّم.. الليل نشر عباءته الملكية السوداء المطرَّزة في أطرافها بذهب أضواء المدن.. وأمسك البحر مرآته العاكسة كوصيف يرغب في أنْ يرى سيِّد الظلمة المطلق جمال عباءته.. البحر قاع مظلم.. والليل سيِّد الظُّلمة.. وفوق هذا.. وتحت ذاك، كانت العبَّارة تتداعى بين ضوئين.. ضوء "طوبشلر".. وضوء "قاضيكوي"، إنَّ الوقوف هنا.. على متن سطح العبارة كاشفًا للبحر ضربٌ من الخيال.. وكأنَّ الليل يسألك

وأنت ترسل نظراتك للبحر: "ما رأيك في عباءتي؟".. أنا أحد سكان الظلمة.. أحد عشاقك يا ليل.. أحد متذوِّقي جمالك أيًّا كان.

وصلت بنا العبَّارة إلى "قاضيكوي".. نزلنا بالسيارة منها.. وأخذنا طريقنا عبر الطرقات الجبلية إلى جسر البوسفور.. كان الظلام جميلاً.. وكان الطريق رائعًا.. وصلنا إلى إسطنبول.. نزلنا في الشوارع إلى شارع طُوْلْمَا بَاغْجَة، حيث رفعنا جسر بربروسا إلى شارعه.. ثم إلى شارع "يلدز".. ففندقنا.. الليلة هي الأخيرة في هذا الفندق الجميل.. غدًا سأذهب لأنزل في ضيافة سلطان.. غدًا.. أنا ضيف السلطان عبد العزيز في "تْشِيران سراي".

١١٥) بروسياس الأول شاليس (وتعني الأعرج) بن زياليس بن نيكوميديس الأول،(٢٢٨- ١٨٢ق.م.) شكَّل زواجه من "أبَما" تحالفًا مع والدها ديميتريوس الثاني ملك مقدونيا، قاتل البيزنطيين عام (٢٢٠ق.م.)، وهزم الإمبراطور "كايوس" الذي شجَّعه جدُّ "بروسياس" "نيكوميديس الأوَّل" على اجتياز البوسفور إلى البر الأسيوي، وسَّع "بروسياس" دولته على حساب حلفاء جدِّه حتَّى وصل إلى سواحل البحر الأسود شمالاً، عندها منحه فيليب الخامس ملك مقدونيا مينائي "كيوس" و"مرليَّا" ليصبحان مدينتي "بورسا" و"أبميا" في (٢٠٢ق.م.). وبرغم كونه منح الحماية لحَنَّابعل "هانيبال" حين هرب من الرومان، وحتَّى توفي في مدينة بورسا التي تحوي قبره اليوم، إلاَّ أنَّه ظل على الحياد في الحرب التي دارت بين الجمهورية الرومانية وأنطوكيوس العظيم (الثالث)، يقال إنَّ خوفه من ضيفه "حنَّابعل" هو ما جعله يسمُّه ويقتله، وقد مات في (١٨٢ق.م.)، وخلفه ابنه بروسياس الثاني سينيجس (الصياد).

١١٦) أورخان الأول بن عثمان الأول بن أرطغرل بك (٦٨٧- ٧٢٦- ٧٦٠هـ) الموافق (١٢٨٧- ١٣٢٦- ١٣٥٩م)، ثاني سلاطين السلطنة العثمانية، وكَّل أخاه علاء الدين في إدارة الشؤون الداخلية للبلاد وتفرغ هو للجهاد، مما جعله من أبرز المجاهدين، قام بنقل العاصمة العثمانية من مدينة إسكي شهر الواقعة شرقي بورصة (١٤٠كم) إلى بورصة بعد فتحها، وسكَّ أوَّل عملة عثمانية، وضم إزمير وأنقرة والكثير من المدن الأخرى، واستولى على المناطق الواقعة غربي القسطنطينية في خطوة تهدف إلى حصارها من الشرق والغرب، وأعاد بناء غاليابولي حصار لتكون نقطة انطلاق للفتوحات في أوروبة، ووضع نواة تأسيس فرق الينيشارية العثمانية التي أوكل تدريبها وتعليمها وإنشاءها للمتصوف حاج بكداش ولي، والتي أصبحت فيما بعد قوام

الجيش، واهتم بتأسيس المدارس والكليات حتى أصبح لكل قرية كليتها أو مدرستها، في خطوة للتأسيس العلمي قبل فتح القسطنطينية، واهتم ببناء البنية الاقتصادية والاجتماعية للدولة، ويكفي أنْ نعرف أنَّه وبعد فتح أنقرة استقر (٢٠) سنة بلا حروب، لتأسيس البنية الاقتصادية والعليمة والعسكرية للدولة تجهيزًا لفتح القسطنطينية، ثمَّ بدأ بتأمين العمق الاستراتيجي في أوروبة فأصبحت غاليابولي حصار مركز انطلاق للعثمانيين في الفتوحات الأوروبية حتَّى استولوا على كامل البلقان، ولكنه توفي قبل إكمال مشروعه، فخلفه على العرش ابنه السلطان مراد الأول.

١١٧) نيكوميديس الأوَّل بن زيبويتيس الأوَّل البيثيني (٢٧٨- ٢٥٥ ق.م.) ثاني ملوك بيثينيا، والابن الأكبر للملك "زيبويتيس"، وباني مجد البيثينيين، ومؤسس مدينة نيقيا، بدأ عهده بقتل اثنين من إخوته، إلاَّ أنَّ الثالث نجا بفضل التمرد الذي قام به والذي نجح، ليصبح فيما بعد زيبوتيوس الثاني، وفي نفس الوقت كان نيكوميدوس مهدَّدًا بغزو من قبل "أنطوكيوس الأول سوتر" إمبراطور السلوقيين، ولتفادي هذا الخطر أنهى العداء القائم مع جيرانه، وعقد تحالفات معهم، إلاَّ أنَّ أنطوكيوس غزا بيثينيا فعلا.. وانسحب دون أي خسائر. كان عداء نيكوميديس ضد أخيه أكبر من أي عداء آخر، لذا فقد قوَّى نفسه.. واشترك في تحالفات كثيرة كان البعض منها ليكون في الطرف المضاد لأخيه، وتحرَّك فعلاً في توسيع دولته حتَّى وصل إلى الجانب الشرقي من البوسفور، حيث قابل البيزنطيين على الجانب الآخر، الذين أصبحوا قوَّة داعمة له ضد أخيه حين قدَّم لهم وسائل العبور إلى البر الآسيوي في (٢٧٧ق.م.)، لينتصر على أخيه ويقتله ويعيد توحيد البيثينيين مرة أخرى، ويبدو أنَّه استعان بقوى أجنبية أخرى لمحاربة أنطوكيوس.. إلاَّ أنَّ العلاقة انتهت بينهما إلى الركود

بشكل ما. كان عهد نيكوميديس عهد الرخاء.. والقوة.. والازدهار للبيثيين، ففي (٢٦٤ق.م.) قرر نيكوميديس –وعلى عادة حكام اليونان- تأسيس مدينة تكون عاصمة لملكه، فاختار المكان.. وأسس مدينة "نيكوميديا"، وبرغم أنَّ أولاده الثلاثة من زوجته الأولى كانوا كبارًا، إلاَّ أنَّ زوجته الثانية أقنعته بأن يجعل ولاية العهد لابنها، الذي توفي عنه والده وهو رضيع، وجعل الوصاية مشتركة عليه لملكين من جيرانه، هما "أنتيجيوس جوناتاس"، و"بطليموس الثاني"، إلاَّ أنَّ ولده الثاني من زوجته الأولى "زيالس" استولى على العرش بشكل سريع بعد وفاة والده ليصبح هو الإمبراطور الثالث للبيثينيين.

١١٨) السلطان أورخان غازي الأوَّل، السلطان مراد الأوَّل بن أورخان، السلطان بايزيد الأول يلدرم بن مراد، السلطان محمد الأوّل جلبي بن بايزيد، الأمير جلبي عيسى بن بايزيد، الأمير جلبي سليمان بن بايزيد

١١٩) السلطان بايزيد الأوَّل بن مراد (٧٥٨- ٧٩١- ٨٠٤- ٨٠٥ هـ) الموافق (١٣٥٧- ١٣٨٩- ١٤٠٢- ١٤٠٣م) الشهير بـ"يلدرم" أو الصَّاعقة، السلطان العثماني الرابع، تولى العرش بعد استشهاد والده، لقب بالصاعقة لسرعة انقضاضه على أعدائه، وسرعة تنقله بين المعارك والجبهات، وأصبح اسمه لذلك يثير الرعب في نفوس الأوروبيين عموما والبيزنطيين خصوصًا، وَحَّد آسيا الصغرى تحت إمرته، مما جعل أمراءها يفرون إلى جوار تيمورلنك، ولكنه تفرَّغ بذلك لحروبه مع الأوروبيين، إذ كان الأمراء وراءه يقومون بضرب حدود دولته كلما انتقل إلى الشط الآخر لمقاتلة الأوروبيين، وفي هذه المرة انتقل متفرغًا للحرب هناك.. أخضع إمارة الصرب لمعاهدة دفعوا بموجبها الجزية للعثمانيين، وفتح بلغارية، وفرض شروطًا على مانويل إمبراطور بيزنطا كان منها: إنشاء محكمة إسلامية للرعايا المسلمين، بناء مسجد كبير

بالقسطنطينية والدعاء فيه للخليفة العباسي ثم له، تخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للمسلمين، وزيادة الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية، قاد بايزيد حربًا ضد حملة صليبية جيَّشها البابا بسبب سقوط بلغارية والشروط التي أوقعت على البيزنطيين في مدينة نيقوبولس، كان الانتصار فيها حليف بايزيد، وأنعم عليه الخليفة العباسي بعدها بلقب "سلطان الروم"، وفي (٧٩٤هـ) ضرب السلطان حصارًا على القسطنطينية، إلاَّ أنَّ توارد الأنباء عن تقدُّم تيمورلنك إلى أنقرة جعله يفك الحصار ويذهب إلى هناك، ونظرًا للإجهاد الذي أصاب الجيش هُزم بايزيد هناك، ووقع في الأسر، ليموت بعدها بأقل من عام على خلاف بين المؤرِّخين والناقلين بين إكرام تيمورلنك أو إهانته له، فيتحرَّك ابنه محمد الأول للأخذ بثأره.. وأخرج التتار من الأراضي العثمانية نهائيًّا، واستعاد جثة والده ودفنه في بورصة، ليصبح بعدها بأعوام السلطان على البلاد ولكن بمشقَّة كبيرة، وبعد حروب ضارية مع إخوته، كانت السبب في إصداره لفرمان قتل الإخوة.

١٢٠) اللوحات التناظرية: هذه مقدرة كانت لدى الخطَّاطين السلاجقة، فقد كان الخطَّاط –حسب ما أخبرني الخطاط المصري محمود سالم البيومي (وأراني) إذ أنَّه تدرب على هذه المقدرة- يكتبون اللوحة باللغة العربية من اليمين إلى اليسار، ثُمَّ يرسمها بشكل تناظري من اليسار إلى اليمين من غير أنْ يتحرَّك من مكانه أو يحرِّك الورقة، ويستطيع المدقِّق.. والمدقِّق فقط اكتشاف الفروق الصغيرة بين الشكلين.

اليوم الخامس: تْشِيران سراي..
إِسْتَرْخِ أنت في إِسطنبول

مَنْ للجمال سوى الصَّباح الإسطنبولي، تلك الحكاية التي تتكرر يوميًّا حتى اعتادها أهلها، إلاَّ أنَّها لا تزال تتكرر... يوميًّا، يخلق الله جمالاً مختلفًا عن جمال الأمس.. يولد من رحم الليل.. ليُعجز مع الفجر.. إنَّها إسطنبول.. ربيبة الجمال منذ أكثر من (١٧٠٠) سنة.. فسبحان الله كيف يُخلق كلَّ يوم جمالٌ في نفس المكان.. وسبحان الله الذي وضع تلك المعجزة أمام أعين الناس.. لكنهم لا يتفكَّرون.

يكفي - كي تتذوَّق جمال هذه المدينة- أنْ تسلم عينيك للفراغ، أينما كنت ستجد الجمال بجانبك.. ما عليك إلاَّ أنْ تُسلم أمرك.. وستجد أنَّك عنصر منها.. سترى أنَّك في المكان المناسب.. أنْت ولدت لتكون هنا اليوم.. يجب أنْ تكون هنا.. لكي لا تحرم هذا الجمال.

اليوم هو آخر أيَّامي في فندق الكونراد.. سأخرج منه إلى "تْشِيران سراي" كمبينسكي.. حزمت أمتعتي.. وأخذت سيَّارتي التي انطلقَت في

الشوارع الخلفية لمنطقة "يلدز" لتنزل بالضبط في شارع "تْشِيران سراي"، فأتخطَّى البوابة الحجرية في "تْشِيران قادسي"، (وتعني طريق تْشِيران) المبنية على الشارع.. وأمرَّ أمام البوابة البيضاء للقصر العتيق.. فأجاور الأسوار الشاهقة.. وأمشي بجانبها.. حتَّى تنزل السيَّارة مع آخر السور يمينًا أمام بوابة فندق كمبينسكي القصر الإمبراطوري.

"تْشِيران سراي" .. أو قصر الشمس.. أو بعبارة أدق "مصدر الضوء السَّاطع"، لؤلؤة البوسفور الساطعة، كلُّ تلك الأوصاف تعتبر معنى كلمة تْشِيران، ذلك الأسطورة.. التاريخ.. الحكاية.. الأسرار.. بعضها ضاع مع ما ضاع من القصر.. وبعضها بقي يقاوم الفناء.. وبعضها (لُعِنَ) بِلَعنة الدراويش المولوية، إلاَّ أنَّ الجزء الباقي يبعث على الطمأنينة والسكون.. يرسم الجمال في العيون.. والبسمة على الشفاه. لتعرف ما أعنيه.. حين تدخل من باب الفندق انعطف يمينًا.. ثم سر في الممر الطويل حتى آخره.. فانعطف يسارًا.. وسر حتَّى الباب الزجاجي.. وتخطَّاه.. واحسب أربع خطوات.. ثم ارفع رأسك.. أمامك بوابة البحر.. التفت يمينًا.. إنَّه بكل بساطة.. "تْشِيران سراي".

تبدأ قصَّة القصر في أوائل القرن (١٧).. كانت هذه المنطقة عبارة عن حدائق جميلة.. مورقة.. غنَّاء.. تُسمَّى "كازنسي أوغلو" تمتد من نهاية منطقة "بيشكطاش"، وحتَّى أوَّل منطقة "أورطاكوي"، وكانت - كما تذكر القصص- أماكن التقاء المحبين.. وتسامر الأمراء.. والوزراء

والأعيان، حتَّى وضع الصدْر الأعظم إبراهيم باشا في (١١٣٢هـ)، (١٧١٩م) حجر الزاوية لأوَّل "يالي" (وهي ما يعرف بقصور العوامات) لبناء قصر لزوجته فاطمة سلطان ابنة السلطان أحمد الثالث، والذي كان شغوفًا (هو ووزيره زوج ابنته) بالموسيقى والفن والجماليات، حتَّى سمِّيت فترة حكمه بعصر الخزامى (وردة التوليب) والتي اتخذها شعارًا له، وفي ذلك القصر المتوسط لشاطئ حديقة "كازنسي أوغلو" كانت تقيم فاطمة سلطان احتفالاتها ومهرجاناتها، مما كان يجعل لقصرها في الليل بريقًا ساطعًا يميزه عن بقية الغرف الخشبية القائمة حوله، فأسمى الناس احتفالاتها بـ" مهرجانات البريق الساطع".. أو "تْشِيران شينليكلري"، وشينليكلري تعني مهرجان، ومع مرور الوقت أصبح الاسم مرتبطًا بالقصر.

ومضت السنون، وجاء السلطان محمود الثاني، وبدأ بحركة التغريب التي تبناها هو ومن تلاه، وقرر أنْ يبني قصرًا غربي الطراز، فوقع اختياره على منطقة تْشِيران، وفي (١٢٥٠هـ)، (١٨٣٤م) قرر إعادة تأهيل القصر، فأزال العوامة والمدرسة والمسجد، ونقل منازل الدراويش إلى عوامة أخرى قريبة، وخلال الثمان سنوات اللاحقة بدأ شكل القصر الكلاسيكي المزخرف يزين الشاطئ، ومع شغف خليفته وابنه عبد المجيد الأول بالقصور الباروخية قام في (١٢٧٤هـ)، (١٨٥٧م) بإزالة القصر، ووضع مخطَّطًا لبناء قصر على الطراز الغربي، ولكنه توفي

في (١٢٧٨هـ)، (١٨٦١م) والبناء لا يزال في مرحلة التأسيس والهيكلة الخشبية، ولم يكن اكتمل إنشاء القصر لأسباب اقتصادية وسياسية، وجاء عبد العزيز، فقرر في (١٢٨٠هـ)، (١٨٦٣م) أنْ يكمل حُلْم أخيه، ويبني قصرًا.. ولكن بطراز أكثر شرقيَّة، إذ قرر أنْ يستخلصه لنفسه، فأمر بتدمير الهيكل الخشبي للقصر، ووضع حجر أساس جديد، وكلَّف مصمم القصور الأرمني "نيكوياوس بليان" بإعادة تصميمه، وقام ببنائه إخوته "سيركيس"، و"يعقوب" وبدأت عجلة السرف والترف التي أنهكت الدولة في خلافة عبد المجيد تدور مرة أخرى، فالأبواب الرائعة للقصر والتي لا تقدر بثمن من صناعة "فورتيك كمهاسيان"، وكلف كل واحد منها (١٠٠٠) ليرة ذهبية، وقد أهدى السلطان عبد الحميد أحد هذه الأبواب إلى صديقه القيصر غليوم الثاني قيصر الرايخ الثاني، الذي قام بعرضها في متحف برلين، المواد المستخدمة في بناء القصر عمومًا (وخصوصا الرخام الطبيعي والصدف) تم استيرادها من أماكن ممتدة على خريطة العالم خصِّيصًا للقصر، وقد كلَّفت إنشاءات الواجهة البحرية وحدها (٤٠٠٠٠٠) ليرة عثمانية،كما وُصل بجسر رخامي مع قصر "يلدز" الواقع على التلة المقابلة، وأحيط بحديقة عالية السور والأشجار، لتضفي مع الجمال أمانًا. وقد استمر بناء الأثاث الخاص بالمدخل حتى (١٢٨٩هـ)، (١٨٧٢م)، إلاَّ أنَّه تم الانتهاء فعليًّا من بناء القصر في (١٢٨٨هـ)، (١٨٧١م)، بتكلفة مقدارها (٢٥٠٠٠٠٠) ليرة ذهبية، وكانت بعد ذلك أوَّل (لعنة) تصيب القصر، إذ انتشرت شائعات بين

العامة بأنَّ تدمير بيت الدراويش، ودمج أرضه في القصر سيجلب سوء الحظ، فكانت آخر مرة أقام فيها السلطان عبد العزيز به في مارس (١٢٩٣هـ)، (١٨٧٦م)، إذ خرج منه متأثرًا بتلك الشائعات عائدًا إلى "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي"، ولم يطل به المقام.. ليسقط في انقلاب.. ويُحمَلُ إلى "تْشِيران سراي" سجينًا.. ويُغتال به بعد أربعة أيَّام.

بعد عزل السلطان عبد العزيز، أصبح ابن أخيه السلطان مراد الخامس (١٢٥٦- ١٢٩٣- ١٣٢٢هـ)[١٢١]، سلطانًا في (٧/ من جمادى الأولى/١٢٩٣هـ)، (٣٠/من مايو/١٨٧٦م)، الذي انتقل إلى "تْشِيران" بعد مقتل عمِّه، إلاَّ أنَّ حكمه لم يدم إلاَّ ثلاثة أشهر، ولكونه يعاني من الخَرَفِ المُبَكِّر.. وقيل الجنون، عُزل ليبقى في القصر حتى وفاته في (١٣٢١هـ)، (١٩٠٤م)، تولى الخلافة من بعده أخوه عبد الحميد الثاني الذي فرض حراسة على القصر لحماية أخيه، وظل مراد حبيس الحرملك في "تْشِيران سراي" حتَّى وفاته، وقد كان مراد محبًّا للفنون وبالأخص الموسيقى، وقد شكَّل في القصر مكتبة كبيرة من أنفس الكتب والمجموعات الموسيقية التي لا تقدَّر بثمن.

في (٢/من ذي القعدة/١٣٢٧هـ) الموافق(١٤/ من نوفمبر/ ١٩٠٩م) وفي عهد السلطان محمد الخامس رشاد (١٢٦٠- ١٣٢٧- ١٣٣٦هـ)[١٢٢]، أصبح القصر مبنى للبرلمان العثماني، فقد اُختير "تْشِيران سراي" كمكان لاجتماع عظيم للبرلمان العثماني، لهذه المناسبة احتاج

القصر إلى أعادة ترتيب وصيانة، وجُمِّل بشكل يتناسب مع المؤتمر، وعُرِضَتْ فيه مجموعة اللوحات الخاصة بالسلطان المخلوع عبد الحميد الثاني، والتي تعود إلى ستينات القرن التاسع عشر، وذات القيمة الجمالية.. والفنية.. والمادية الفلكية، كلوحات رومبراند، وإيفازوفسكي، ولكن.. وبعد المؤتمر بأشهر، ، وفي أوائل (١٣٢٨هـ) الموافقة لأوائل (١٩١٠م)، نشب حريق بدأ من الدور الثاني للقصر، وأتى على كامل القصر، مدمِّرًا التحف النفيسة، واللوحات الخاصة بالسلطان عبد الحميد، والمكتبة الكبيرة المشهورة التي كانت تخص السلطان مراد الخامس، ولم يبق من "تشْيِران" إلاَّ الجدران الخارجية.. والمباني الرخامية والحجرية.

وبعد استسلام الدولة في الحرب العالمية الأولى، وخلال احتلال إسطنبول في (١٣٤٧هـ)، (١٩٢٩م) استخدمت أطلال القصر كثكنة عسكرية سرِّيَّة لسلاح الهندسة الميدانية بالجيش الفرنسي.

وفي (١٣٦٥هـ)، (١٩٤٦م)، كانت لعنة الدراويش المولوية تلحق أحد قادة الجيش، والذي كان ينقِّب بشكل سرِّي عن الذهب في حطام القصر، فألحق أضرارًا جسيمة بموقع مقبرة الدراويش بالقصر، ففتح الأعين عليه، ولهذا السبب وفي نفس السنة تقرر أنْ يكون القصر ملكًا للبلدية.

قامت البلدية في (١٣٦٩هـ)، (١٩٥٠م) بمنح نادي "باشكطاش" حق استخدم حديقة القصر كملعب كرة قدم، وسمِّي "شريف أستاد"، بينما أصبح مسبحه الكبير مسبحًا عموميًّا للجمهور، مما أساء لسمعة القصر، وظلَّ المبنى المهجور الواقف.. المفرَّغ من الداخل خيالَ مآتةٍ لا فائدة منه.. وكأنَّه لم يكن يومًا يعجُّ بالفخامة والعظمة والأهمية، وأصبحت الأطلال المشرفة على الملعب والمسبح أقَّل قيمة.. وأسوأ حالاً، حتى قام كل من البروفيسور "بوناتز"، والمعمار التركي الشهير البروفيسور "سعادات حقي إلضم"، ببحث إمكانية بناء مبنى فندقي في هذه الحديقة.

وفعلاً في (١٤٠٧هـ)، (١٩٨٧م) قامت الشركة اليابانية "كوماجي جومي"، بالتعاون مع الشركة التركية "يوكسل إنشاءات"، بالبدء في عملية ترميم القصر، وبناء مبنى الفندق في حديقته، وفي (١٤١٠هـ)، (١٩٩٠م) افتتح فندق "كمبينسكي تْشِيران القصر الإمبراطوري"، وظلَّت أعمال الترميم في مبنى القصر حتَّى (١٤١٢هـ)، (١٩٩٢م)، حيث تم افتتاح مبنى القصر القديم.. بشكله الجديد وأَعَادَ افتتاحَ بواباته التاريخية الضخمة، واستمرت أعمال استعادة الشكل الحقيقي حتى (١٤٢٦هـ)، (٢٠٠٦م)، وتم افتتاحه بشكل نهائي في (١٤٢٧هـ)، (٢٠٠٧)، إذ تم الانتهاء من ترميم غرف الاجتماعات، والمرافق العامة، واستَعَادَت شكلها وطابعها وبريقها وفق المخطط الأصلي، وظلَّت عملية التجديد تلك مثار انتقادٍ للحكومة التركية التي سمحت لشركة أجنبية بإعادة

إعمار القصر، دون وضع الاعتبار لمكانة القصر التاريخية والمعمارية، ودون أي رقابة، فقد ظل طول فترة الترميم وحتى (١٤٢٦هـ)، (٢٠٠٦م) المدخل الشهير للقصر مستودعًا لخدمة الفندق، وكانت عملية المعالجة تتم بشكل تخيُّلي دون إقامة اعتبار للمبنى الأصلي الواقف بقرب الفندق. ولكن عملية إعادة الترميم التي بدأت في (١٤١٢هـ)، (١٩٩٢م) للقصر، كانت علمية مدروسة، إذ تمت إعادة تصميمه ليشابه كثيرًا النموذج الأصلي الذي كان قائمًا أيَّام السلطان عبد العزيز، وليتم افتتاحه بشكل كامل في (١٤٢٧هـ)، (٢٠٠٧م) وتعود الحياة وكأنَّها تنبض من جديد في لؤلؤة الإمبراطورية العثمانية.

وَصَلْتُ القصر فاستقبلني موظفو الاستقبال استقبالَ ضيوف السلاطين.. عرَّفَتِ الموظفة بنفسها.. وأخذتني إلى غرفتي.. وأتمَّت إجراءات دخولي.. وبرغم كون المبنى حديثًا إلاَّ أنَّ تقسيماته وتوزيعاته أشبه ما يكون بغرف القصور.. بَدَأْتُ بالتَّجوُّل في القصر.. أطالع معالمه.. وأزور مرافق الفندق.. أرى الصُّور المعلَّقة على جدرانه.. فأستنطقها تاريخًا ينساب في أذني.. كان الفندق يحتفي كلَّ عام بسلطان عثماني، وكان سلطان هذا العام هو السلطان العظيم سليمان القانوني.

لم آتِ أي عمل آخر غير الجلوس في الفندق.. والاستمتاع أنا وعائلتي بالتجوال فيه.. استخدمت أنا وابنتي النادي الصحي.. ذلك الذي صممه ورسم جدارياته الطبيعية الفنان الألماني "رينيه لاتزك"، على نمط

القرون الوسطى.. ثمَّ بعدها قررت أنْ أستمتع بكوب القهوة التركية أمام البحر.. هنا حيث كان يجلس المحبون.. حيث كان يجلس العشاق.. جلست أمام مدخل الفندق من ناحية البحر.. بيني وبينه الحديقة.. ووجهي إلى مبنى القصر.. حقًّا إنَّه لؤلؤة البوسفور.. أيُّ أمرٍ حدث فيه.. كنت أتخيَّل وأنا أجلس ما وراء ذلك الجدار أمامي من أسرار.. فقررت أنْ أزوره غدًا.. إذ أنَّ اليوم يشرف على النهاية.. ومن المؤكَّد أنَّ المتحف.. أو ما يسمونه في الفندق بمتحف الجالري سيغلق أبوابه مساءً.

كانت الشمس تشرف على المغيب.. سألت الاستقبال عن إمكانية زيارة المبنى القديم للقصر.. فأجابوا أنَّه يفتح أبوابه (ككل مرافق الفندق) (٢٤) ساعة يوميًّا.. فاطمأننت نفسًا.. لأنَّني سأزوره اليوم.. وصعدت إلى غرفتي لأستقبل مسائي القادم.. كان لون المغيب الداكن يبعث على الارتياح.. هدوء المضيق يُسَرِّيْ عن النفس.. لا تقطع سلسلة الهدوء - وأنت تقف على شرفتك المطلة على البوسفور- إلا أصوات السفن التي تقطعه من هنا إلى هناك.. ليت تلك اللحظة تُجمِّدُ نفسها حتَّى أتملأ منها أكثر.. كانت ابنتي "شريفة" تستمتع بالوقوف على طرف الشرفة.. والقفز في داخل الغرفة تحت قدمي.. ثمَّ بدأت تشارك أمَّها وأخاها أكل الحلوى، وأنا أتابع غياب الزرقة.. في السواد.. حتَّى أدكَنَ الليلُ مصابيحه.. فنزلت في الشوارع المجاورة أتمشى مع أسرتي.. ذلك الشارع الذي مشيناه قبلاً ليلة وصولنا إلى إسطنبول.. وما أشبه الليلة بالبارحة،

قطعناه.. مررنا على فندق "الفورسيزون"، ومررنا بالجسر.. ومسجد سنان باشا.. ودخلناه للمرة الثانية.. وأخذنا عشاءنا من نفس المطعم الذي اشترينا من عنده أوَّل مرة.. وعدنا إلى الفندق.. تناولنا عشاءنا.. وبدأ الأطفال في النعاس.. فالنوم.. عندها قررت أنْ أخرج لأزور مولانا السلطان عبد العزيز في قصره.. لبست ملابسًا تليق بالمناسبة.. ونزلت إلى البهو.. وأخذت الممر الذي يؤدِّي إلى القصر.. انعطفت معه.. يسارًا.. ولكني لم أخرج من الباب.. بل انعطفت يمينًا.. لأقف أمام معرضٍ لبقايا تحف ولوحات كانت في القصر القديم.

أوَّل ما سيواجهك هو "سبيل ماء صغير" خُتِم بختم الفاتح!! لا أعلم إنْ كان في مبنى القصر أو لا.. ولكنه إنْ كان هناك فقد نقل بالتأكيد من مكان آخر.. أو بُني في حديقة "كازنسي أوغلو"، ستقترب منه دون أنْ تشعر.. سَتَتَحَسَّسُه.. لا يزال - لو حُرِّك الماء في جوفه- يعمل، لا يزال - لو أعطي فرصة أخرى- يسقي العطاش.. كما سقاني.

يعرض الطريق بعد السبيل لوحات وصورًا يُبْدُو أنَّ موضوعها كان الحديقة القديمة، والترف الذي كان يعيشه الأمراء والوزراء في عصر الخزامى فيها، ويعرض كذلك صورًا لوثائق يبدو أنَّها تعود للتسجيل العقاري للقصر، كتبت باللغة العثمانية حول ملكية إبراهيم باشا.. وانتقال القصر من ملكيته إلى غيرها، ثمَّ يعرض بقايا أعمدة الرخام البيضاء التي بقيت بعد فَنَاءِ القصر.. تذكرك ببقايا المدن الرومانية القديمة..

قرطاجنة.. بعلبك، إلاَّ أنَّك تلمس فيها روحًا.. وترى فيها حياةً.. تُرى.. أيٌّ هذه الأجزاء مرت عليه يد السلطان عبد العزيز يومًا؟ سترى صورًا وخرائطَ عثمانية للمبنى.. صورًا من السماء له قبل أنْ يحترق.. وصورًا وهو يحترق.. وصورًا وهو يقوم كالشبح الضخم.. يؤذي العين رغم كونه أحد قصائد الجمال، سترى ورقةً من نظارة الحربية العثمانية صادرة عن قلم المحاسبة.. ويبدو أنَّها حول مصاريف معيَّنة. صورًا للمداخل.. والغرف.. والديكورات.. والمسابح... إلى آخر ذلك الهذيان.. ستقف أمام عمود آخر.. لترى خلفه الدرج الصاعد إلى بهو القصر.. عندها سيدق قلبك.. وكأنَّك فعلا ستقابل فخامة السلطان بعد قليل.. ستصعد الدرج.. لتقف فتكشف المساحة الأمامية للمدخل.. والنافورة التي تزدهي بمياهها.. ستنعطف يَسَارًا.. ستمشي.. لتمرَّ ببعض غرف القصر.. ستنعطف يَمِيْنًا.. لتقف بعد خطوات قليلة أمام المدخل الرخامي الرئيس للقصر.. الأرض تدور.. إنَّها فعلا تدور بك.. لا تخف.. فخيالات الطرابيش التي ستراها تدخل مع الباب غير حقيقية.. برغم كون كل شيء حقيقيًّا.. السقف المزدهي بالأحمر والأزرق القاني.. الذي تنعكس في أجزائه المذهبة ألوان الثريات.. الثريات كهربائية.. برغم أنَّها في الماضي كانت على الشموع.. قف.. دع الباب خلفك.. لينفتح أمامك عالم من الروعة.. أعمدة الرخام المزينة للدرج النازل من الجهتين.. اليمنى واليسرى..الدور العلوي.. والدور الذي تقف فيه.. واللذان يكشفان الدور الأسفل.. الرخام الرمادي الغامق يصبغ المكان بالفخامة.. والأبيض يلعب دور التخفيف.. والأرضية

الملساء المشكَّلة تحكي واقعًا آخر.. تعشيقات الزخارف المنقوشة على الرخام في رؤوس العواميد هي نفسها شعار الفندق.. إنَّها محفورة بدقة في الرخام.. التشكيلات العربية للرخام في الأقواس والمداخل.. تريك الصراع بين الغرب والشرق.. القصر مزيج بين شكلين.. مزيج متناغم، ثرثرة النقوش المحفورة من الرخام على حوائط المرمر أساطير تحكي.. تُرى أين قُتِلَ عبد العزيز؟.. كأنِّي أرى ذلك الضخم الطويل.. ذو اللحية المنسابة.. يدخل عليه ثلاثة مصارعين، فيدحرهم.. يرفع أحدهم.. ويلقي به.. يخنق أحدهم حتى الموت.. ويتمكن واحد منهم من قطع عرق يده.. كأنَّي أراه أسدًا جريحًا يقاوم ضباعًا.. ينزف.. وفي نفس الوقت يضرب.. حتى يتصفَّى دمه.. ويسقط على الأرض ميتًا.. حينما وقفت على سور الدرج رأيته خيالاً يطوف في الطابق العلوي.. لا يزال روحًا معلقة بالمكان.. هذا المكان الذي تركه إيمانًا منه بلعنة الدراويش.. والذي قُتِلَ فيه، وكأنَّ أرواح الدراويش الذين هدم منزلهم كانت تتفرج حينها.. رحمه الله، فقد وعى مغبَّة سرفه وسرف أخيه متأخِّرًا.

نزلتُ السلَّم.. هنا كان الحرملك.. اقتربت من أحد الأبواب.. تُرى.. هل كانت هنا غرفة مراد الخامس؟.. أين كانت مكتبته تلك؟ رأيت خيالاً منذ قليل.. يجلس على كُرسي .. شعره الساقط على جبهته ينبئ أنَّ صاحبه غير مكترث بهندامه.. جيب قميصه مفتوح.. وعيناه تحدِّقان في اللاشيء.. إنَّه يشبه مرادًا.. فلنقل: إنَّه هو.. فلنقل: كأنَّه هوْ.. طفت بقرب

الكرسي الواقع تحت الردهة التي نزلت منها منذ قليل.. وضعت يدي على كتفه.. فتلاشى.. نظرت إلى باب الغرفة خلف الكرسي.. ممر ممتد.. عدت إلى السلَّم.. أسفل السلَّم مدخل له قوسٌ رخامي خلاَّب.. دخلت فيه رأيت القصر المحترق هناك.. المكان الصغير هنا لم يُجمَّل.. لم يُعالج.. به مكاتب ومستودعات المنظفات.. رأيت الحريق الذي نشب في القصر.. انخلع قلبي.. بحثت عن أيِّ شيء لأُطفئ النار التي أراها.. لا أحد سواي.. روحي أغلى من أنْ أموت هنا.. ركضت لخمس خطوات ثمَّ انتبهت إلى أنَّ القصر لا يزال قصرًا.. صعدت الدرج.. ومنه إلى درج الطابق الثاني.. ومررت بقاعات الانتظار.. حيث كان وزراء وأعيان يجلسون.. وخدم يروحون ويجيؤون بالقهوة لهم.. إنَّهم في انتظار إذن السلطان.. جلست في مقعد فارغ.. كان خشبه المذهَّب كأنَّه طُلِيَ بالأمس.. مخمله الأزرق "التُّركواز" يتحدَّث بعظمة السلطنة التي كانت رغم وَهَنِهَا مصدر إرعاب لأعدائها.. جلستُ.. جلست أنتظر.

بعد لحظات وضع أحدهم يده على كتفي.. همس بالإنجليزية: "سيدي.. هل يمكنني مساعدتك؟"، رفعت رأسي.. نظرت إليه.. كدت أنْ أقول له نعم.. جئت لمقابلة "أَفَنْدِيْنَا".. إلاَّ أنَّه كان مثلي.. قال: "أنت تجلس هنا منذ ساعات.. وكأنَّك مصابٌ بهبوط أو مرض".. ابتسمت، ، وقلت في هدوء: "نعم.. يبدو أنَّه السُّكَّر.. شكرًا لك".. ابتسم.. وعرض مساعدته.. ثمَّ رحل.. تحرَّكت أنا.. تاركًا ورائي السلطان عبد العزيز..

كنت أتجه إلى الطريق من حيث أتيت.. وأسمع في أذني صرخاته وهي تردُّ المجرمين عنه.. وأسمع صوت الأثاث المتكسِّر جرَّاء الصِّراع.. كانت تلك رياضته المفضَّلة.. وبها قُتِل.. يالَ السُّخرية، تخطِّيت إلى السُّلَّم الأوَّل.. وأنا أسمع أنين مراد.. ذلك الذي كان يحاول أنْ يتذكَّر شيْئًا.. أيَّ شيء ولا يُفْلِحْ.. أسمع صرخات الغضب.. وأرى أخاه السلطان عبد الحميد.. وهو يدخل مسرعًا إليه.. يحاول أنْ يهدئه.. ولكن لا فائدة.. نزلةٌ وتزول.. أسمع صوته.. وأسمع صوت أحدهم يهمس: "لم تفده علاقته بالماسون" لا أعلم كيف قفز أمام عيني وجه عبد الحميد الثاني الغاضب وهو يرمق القائل بنظرة جافَّة.. فأسرعت الخطى أنزل من الدرج باتجاه الفندق.. وتدريجيًّا.. خرجت من الزمن إلى زمني.. وقفت ألتقط أنفاسي أمام المصعد.. فجأة تبدَّل الزمن.. كما دخلت إليه منذ ساعات هناك.. صعدت المصعد.. دخلت إلى غرفتي.. واستلقيت على السرير.. وبهدوء أنهيت يومي.

121) السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد الأول (١٢٥٦- ١٢٩٣- ١٣٢٢هـ) الموافق(١٨٤٠- ١٨٧٦- ١٩٠٤م)، السلطان العثماني الثالث والثلاثون، والخليفة الخامس والعشرون، وقد كان وليَّ عهد عمِّه، وقد عرف عنه أنَّه كان عضوًا في المحفل الماسوني البريطاني، وعلى علاقة وطيدة بالأمير إدوارد السابع ولي عهد بريطانية، تولى العرش بعد عزل عمِّه عبد العزيز، في (١٢٩٣هـ)، ولكن ضغط الحكم عليه تسبب له بالجنون، ويقال إنَّه أصيب بالخرف المبكر، فتم عزله وتولية أخيه عبد الحميد من بعده، وقد استمر حكمه(٩٣) يومًا.

122) محمد رشاد الخامس بن عبد المجيد الأول(١٢٦٠- ١٣٢٧- ١٣٣٦هـ) الموافق(١٨٤٤- ١٩٠٩- ١٩١٨م) السلطان العثماني الخامس والثلاثون، والخليفة السابع والعشرون، تولى الحكم بعد عزل أخيه عبد الحميد الثاني، وله من العمر (٦٨) عامًا، ظهر الاتحاديون على البرلمان ثم على السلطة في عهده، واحتلت إيطالية ليبيا، وهزمت الدولة العثمانية في حرب البلقان، ونشبت الحرب العالمية الأولى، فأرغم السلطان عن طريق التصويت في البرلمان على الاشتراك في جانب ألمانية بينما كان يفضل الحياد، وبلغت فكرة الطورانية القومية ذروتها واستحكمت بدل قوامة الدين على الدولة، وهزمت ألمانية وحلفاؤها في الحرب، وأعلنت ألمانية استسلامها، إلاَّ أنَّ السلطان توفي قبل وصول الخبر إلى إسطنبول، وتولى الخلافة بعده أخوه محمد وحيد الدين السادس، والذي أُعْلِنَ في عهده استسلام الدولة العثمانية، وأُلْغِيَت الخلافة فيما بعد.

اليوم السادس: في ضيافة صديق قديم؟!

فتحت عيني صباح اليوم وفي أذني لم يزل يتكرر طنين الليلة الماضية.. ابتسمت.. فقد وَجَبَتْ زيارة صديق قديم لي في إسطنبول.. لم أحمل له - منذ عرفته- إلاَّ المحبة، ولن أحمل له في صدري إلاَّ الشوق.. الشَّوق والذكريات.. تحرَّكت من مكاني.. نزلت إلى المطعم الواقع في الدور الأرضي.. أخرجت رأسي من باب المصعد لأتأكَّد من خلو الممر من أيِّ طيفٍ أفلت من ليلة البارحة.. لا أحد.. خرجت إلى مطعم الطغراء.. وتناولت إفطاري.. مسرعًا خرجت من الفندق أقصد "يلدز" في تلك المنطقة كان صديقي القديم.. ارتفعت على جسر بربروسا.. ومن شارعه تخطَّيت مبنى الكونراد.. ودخلت إلى "يلدز قادسي" أمَامي بيته القديم.. وسأمر بعد قليل بقرب مسجده.. إنَّه هو.. إنَّه صديقي القديم.

أنَا الآن في منطقة "يلدز".. والكلمة تعني النجم الساطع، وهي تشكِّل المرتفعات المطلة على منطقة "باشكطاش".. وهي تطل بالضبط على شارعَي "باشكطاش" و"تْشِيران"، وكانت تعرف في العهود

البيزنطية، وأوائل أيام العثمانيين "بالغابات الصنوبرية"، وفي عهد السلطان سليمان القانوني أصبحت منطقة الصيد السلطانية، وظلَّت كذلك حتَّى تحوَّلت إلى الحدائق الخلفية للقصور المطلة على البوسفور في عهد الخزامى، ورويدًا رويدًا بدأت تكتسب أهميتها حتَّى شُيِّد قصر "يلدز" في أيَّام السلطان عبد المجيد الأول، وبلغت الذروة في الأهمِّية حين انتقل السلطان عبد الحميد الثاني إلى القصر، ليصبح الباب العالي.

أخذت المنطقة اسمها من أوَّل استراحة صيد بنيت في الجبل.. "جناح يلدز" في عهد السلطان سليم الثالث في أوائل القرن (١٩م)، تضم المنطقة بالإضافة إلى القصر والمسجد مجموعة شهيرة من الضُرُحِ والمساجد، كضريح يحيى أفندي الذي يجتذب نحو مليون زائر سنويا، وضريح ظافر أفندي، عدا تكيَّة ومسجد أرطغرل، الذي بني في (١٣٠٤هـ)، (١٨٨٧م)، بتكليف من السلطان عبد الحميد الثاني.

المسجد وبرج الساعة

حينما تدخل إلى "يلدز قادسي" صعودًا، ستمر بعد ثوانٍ على مبنى أحيط بسور.. ارتفعت فوقه قبَّة مزركشة.. ومئذنة، ذلك مسجد صديقي القديم.. مسجد السلطان عبد الحميد.. أو "يلدز حميدية جامع" أو "يلدز جامع"، أو "حميدية جامع"، صمَّم هذا المسجد المهندس الأرمني "سركيس باليان" (الذي صمم مجيدية أورطاكوي جامع أيضًا)،

وبدأ البناء فيه عام (١٣٠١هـ)، (١٨٨٤م) وانتهى في (١٣٠٣هـ)، (١٨٨٦م).

أرض المسجد شبه مربعة (٦٠×٧٠م) أمَّا البناء فهو على شكل الحرف (T) طول كل ضلع من الأضلاع (٣٠م) وعرضه (١٥م) وتقع قبلته في آخر الجزء الطولي منه، والمبنى منحرف قليلا عن الأرض ليكون مستقيمًا على القبلة، قطر القبة (١٠م) تقريبًا، وله مئذنة واحدة، والمواضئ والحمامات في حَوشه، وعلى بوابته الخارجية يقف "برج ساعة حميدية يلدز" وهو البرج الذي يشكل الحائط الأيمن من بوابة حميدية جامع، بدأ بناؤه عام ١٨٨٩، وأكتمل ١٨٩٠، مبنى مثمَّن من ثلاث طبقات، الأولى بها كتابات وأبيات حول الإنشاء وتأريخه، والطبقة الثانية بها مقياس للحرارة، ومقياس للرطوبة، والطبقة العلوية هي غرفة الساعة، والتي تم إصلاحها في أوائل التسعينات من القرن الماضي لتعود للعمل، ويحمل روحَ تصميم المسجد القوطية العثمانية، وفوق الزخرفة العلوية من غرفة الساعة تم تأسيس البوصلة.

المسجد مزيج من العمارة القوطية والعثمانية الكلاسيكية، والتي دأب على إدخالها في النمط الشرقي "أسرة باليان" الأرمنية، مدعومة من قِبل السلاطين العثمانيين، وبرغم عدم تقبُّل الناظر للشكل "الغرب_شرقي"، الذي يتَّبعونه في بناء المباني إلاَّ أنَّك تجد فيها روحًا

معينة.. روحًا لم تخرج من رقي وبساطة ومساحات الشرق، ولم تدخل دخولا كاملا في عَنَتِ.. وتكرارية.. ومبالغة الغرب، فقد أخذت من هذا وذاك.. إلاَّ أنَّها لرتابة الطراز الغربي الباروخي أو الفيكتوري أقرب منه إلى الطراز الذي نقله.. أو خلَقه العثمانيون في معمارهم من المشرق عموما.

مما يذكر أنَّ السلطان عبد الحميد الثاني تعرض لمحاولة الاغتيال الشهيرة بمحاولة الأرمن عام (١٣٢٢هـ)، (١٩٠٥م) في ساحة المسجد، والتي قامت بها "جمعية طشناق الأرمنية"، بتفجير قنبلة بعد صلاة الجمعة أمام عربة السلطان، ووقف خلالها السلطان على العتبة الأولى العليا للمسجد ليصرخ بصوته: "لا تخافوا.. فليلبث كل في مكانه لكي لا يتأذَّى المصلُّون"، وخرج ببطءٍ من ساحة المسجد إلى القصر وكأنَّ ما حدث لا يعنيه.. وتروي السيدة عائشة ابنة السلطان عبد الحميد في مذكراتها عنه ذلكَ، موقف.. يجعل قلبك يمتلئ عظمة ومحبة ومهابة لهذا الرجل العظيم.. موقف لا يسعك أنْ تتجاوب معه إلاَّ كما تجاوب معه السفير النمساوي الذي كان واقفًا على شرفة غرفة الاستقبال في غرف المابين فصرخ لا شعوريًا بالألمانية: "عاش السلطان.. عاش السلطان".

لقد صلَّيت الجمعة الماضية في هذا المسجد دون أنْ أعرف أنَّه لصيق بـ"يلدز سراي"، وظننته أحد المساجد التي أمر السلطان عبد الحميد ببنائها.. المسجد من الخارج وردي اللون، ومن الداخل يصطبغ بالألوان الأزرق والرمادي والأخضر والذهبي، وهو بدعة من بدع البناء والعمارة

تستحقُّ الزِّيارة.. تتخطَّى المسجد لتكون أمام البوابة.. بوابة السَّراي.. لقد وصلنا إذًا.

قصر النجوم

قرن من الزمن يفصل بين آخر أيَّام مجد هذا القصر واليوم.. في أوائل القرن الماضي كان هذا هو الباب العالي.. وبعدها بقرابة (٢٠) سنة اضمحلَّت الدولة التي كان هذا قصر حاكمها، وظل القصرُ مُغْلِقًا أَبْوَابَهُ حتَّى أعيد افتتاحه كمجموعة من المباني الإدارية والمتاحف.

كان هذا القصر أيَّام السلاطين الذين تلوا السلطان سليمان القانوني عبارة عن مقصورات متناثرة في غابة الصنوبر، وقد بدأت هذه المقصورات بالتبلور أيَّام السلطان أحمد الثالث (عهد الخزامى)، وفي عهد حفيده السلطان سليم الثالث، والذي حكم بعده بخمس سلاطين بُنيت مقصورته التي سمِّيت النجم الساطع.. أو "يَلدز"، ويبدو أنَّ تلك المقصورة كانت من الروعة بمكان أنْ أصبح اسم التلَّة كلها بغاباتها وطبيعتها "يَلدز".

ولمَّا جاء السلطان محمود الثاني، وبدأت حركة التغريب، تقرر أنْ تكون منطقة "باشكطاش" - والتي تعتبر تلال يلدز ضمن نطاقها الحدودي- منطقة القصور الجديدة، وبدأت فعلاً حركة التعمير

الباروخية التي تبناها سلاطين التغريب، ولمَّا جاء إلى العرش خلفه السلطان عبد المجيد بدأ حركة التعمير الجنونية التي كلَّفت الدولة مبالغ طائلة، كان من ضمن مشاريعه توحيد المقصورات في تلَّة "يلدز" ضمن سورٍ واحد، فبدأ مشروع قصر الصَّيد الذي توفي عنه السلطان، ولمَّا جاء السلطان عبد العزيز كانت تلال يلدز منطقة مثالية للحديقة الخلفية لقصره الجديد "تشْيِران"، فأُقيم جسر يصل بين "تشْيِران" و"يلدز"، ورحل عبد العزيز.. وجاء "مراد".. ورحل "مراد" ليصل إلى السلطة السلطان عبد الحميد الثاني، والدولة في أوج حربها مع الروس.. وأصبح مرور زوارق الإمبراطورية الروسية الحربية - والتي لا تملك ميناءً بحريًا يُعْتَمَدُ عليه إلاَّ على البحر الأسود- أصبح مرورها في عرض البوسفور يشكِّل خطرًا على حياة السلطان الساكن في "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي"، فانتقل السلطان عبد الحميد الثاني إلى قصر رحلات الصيد "يلدز سراي" والذي يبعد عن ساحل البحر قرابة الكيلومتر تقريبًا، على مرتفع يكشف مضيق البوسفور كلَّه، وفيه ظلَّ حتَّى خُلِعَ على يد الاتحاديين، ورُحِّل إلى سيلانيك، وإليه طلب العودة حينما أعيد من سيلانيك.. ولكن "باي لر باي سراي" كان هو سجنه الأخير.. وفيه توفي.

تحتل تلَّة مرتفعات يلدز قُرابة (١،٥٠٠كم٢)، يشكِّل القصر القائم فيها على شكل خط مستقيم طوله (٥٠٠م) تقريبًا، وعرضه في أعرض مناطقه (١٥٠م).. حيث كانت مرافق القصر (١٤٠×١٥٠م) تقريبًا، أمَّا

بقية المساحة فهي عبارة عن مبانٍ ممتدة بشكل مستقيم يتراوح عرضها ما بين (١٥- ٢٠م)، وقد كان القصر مجموعة من المقصورات والشاليهات بنيت في أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن ٢٠ ، ويعد القصر ثاني أكبر قصر في إسطنبول.

بدأ بناء القصر الحالي في عام (١٢٩٧هـ)، (١٨٨٠م)، وكان يستخدم من قِبَل السلطان عبد الحميد الثاني كقصر حكم، لذا فقد خضع لتوسعات وإنشاءات على يد المهندس الإيطالي "ريموند دي آرونكو"، ليصبح مقر الباب العالي الخامس في عُمُرِ الدولة العثمانية بإسطنبول[١٢٣].

والقصر عبارة عن مجمع من المقصورات والمباني، تتضمن: (١)قصر الحكم الرئيس (مبنى المابين الكبير) (بويوك مابين) أو مقصورة الدولة التي كانت تحوي مكاتب المسؤولين الحكوميين والوزراء في عهد السلطان عبد الحميد، (٢)جوسق كشك، (٣)جناح مالطة (مالطا بافيلون)، (٤)جناح الخيمة (تْشِادر بافيلون)، (٥)مبنى دار أوبرا ومسرح يلدز، (٦)متحف قصر يلدز، (٧)مصنع البورسلان السلطاني، (٨)جناح شال (شال بافيلون)، بالإضافة إلى حدائق يلدز (يلدز باغجة) والتي يصل إليها الجسر الرابط بين "تْشِيران سراي" و"يلدز سراي".

جوسق كوشك

مقصورة الضيافة، وهو بناء من طابقين، وسرداب، بني على ثلاث مراحل، الأوَّل هو المبنى السويسري، والذي بني عام (١٢٨٦هـ)، (١٨٧٠م) على الطراز السويسري، أمَّا القسم الثاني فقد بني في (١٣٠٦هـ)، (١٨٨٩م)، لاستضافة القيصر غليوم الثاني (والذي كان أوَّل ملك غربي يزور إسطنبول)، وهو المسمى "صدفلي"، لاحتوائه قاعة الصدف، والتي غُطِّيت بالصدف كاملة تقريبًا، بينما غطي السقف برسومات للوحات طبيعية، أمَّا القسم الثالث فقد بني بعدها بعشر سنوات تقريبًا لاستضافة القيصر نفسه، وهو الذي يحوي قاعة الاستقبال الشهيرة، والتي أثارت إعجاب كل من زارها.. ولا تزال، فمن ضمن محتوياتها السجادة الكبيرة (٤٠٠م٢) والتي احتاجت إلى (٦٠) نسَّاجًا لبنائها، عدا الإكسسوارات المذهَّبة، والسقف الملبَّس بالذهب، والمرايا الكبرى، وبعض قطع الأثاث الخشبية الفاخرة، والتي صنع بعضها النجار العثماني الماهر (عبد الحميد الثاني) السلطان نفسه.

مقصورة مالطا

هو الجناح الموجود في حديقة "يلدز" إلى الجانب الشمالي من جدار القصر. وهناك أيضا جناحان في الحديقة يطلان على "تْشِيران سراي"، ويعتبران ضمن الحديقة الخلفية له، وقد بنيا أيَّام السلطان عبد العزيز.

ويقال إنَّ مقصورة مالطا سميت بذلك على اسم حصار مالطا.. إذ أنَّ بعض المقصورات كانت تسمى بأسماء معارك ومدن مفتوحة، ويقال إنَّ محاكمة "مدحت باشا" الصدر الأعظم الذي حوكم بتهمة الخيانة والتحريض ضد الدولة تمت في هذا الجناح.

مقصورة الخيمة

بنيت من قبل السلطان عبد العزيز (١٢٧٧هـ)، (١٨٦١م)، واستخدمها كسجن لقربها من "تْشِيران سراي"، أمَّا اليوم فهي مقهى في حديقة يلدز العامة.

دار أوبرا ومسرح يلدز

بناه السلطان عبد الحميد الثاني عام (١٣٠٦هـ)، (١٨٨٩م)، وقد استضافت مجموعة من أهم النجوم والفنانين في تلك الفترة، وقد زُيِّنَتْ قُبَّتُهَا بالنجوم إشارة إلى اسم "يلدز سراي"، ويقال إنَّ الصف الأول من المسرح لم يستخدم قط، لوقوع البلكون السلطاني خلفه بقليل، ولأنَّه ليس لأحد الحق في أنْ يعطي ظهره لمقام السلطان.

والذي كان ورشة النجارة الخاصة بالسلطان، ويستخدم اليوم كقاعة عرض القطع الفنية، وبه تعرض الكثير والكثير من الأمور المتعلقة بالسلطان والأسرة العثمانية.. ومنه يدخل الداخل إلى القصر.. وتبدأ أوَّل ما تبدأ بعرض لصور كانت لشخصيات تلك الفترة.. وقصورها ومساجدها.. معظم تلك الصور من مقتنيات السلطان عبد الحميد، بعدها ترى أطقم كراسٍ ومكاتب كانت للسلطان في القصر.. فمجموعة من الفناجين من صناعة مصنع البورسلان.. ثمَّ مقتنيات السلطان.. مسبحته.. سجائره.. بعض أسلحته.. ثمَّ لباسه السلطاني، فَبَدْلَتُهُ وطربوشه.. فكرسي عرشه.. فكرسي الصقر الخاص بالوالدة سلطان، ثمَّ مجموعة من قطع الأثاث، فالعربة السلطانية الخاصة بالسلطان عبد الحميد، والتي كانت تُجر بالخيول، ثمَّ تتخطَّى باب الورشة إلى غرفة صغيرة بها عدَّة النجارة الخاصة بالسلطان.. وبعض قطع الأثاث التي صنعها بنفسه.. ثمَّ تعبر ممرًا صغيرًا لترى على يمينك حديقة يلدز.. تدخل لغرفة الحمام السلطاني.. فصالونات الاستقبال.. لتعبر إلى غرف مكتب السلطان ومدراء مكتبه.. فقاعة يبدو أنَّها كانت استراحة للسلطان، عُرِضَ فيها سريره وبعض التحف الأخرى.

عدت أدراجي وكأنِّي أبحث في القصر عن صاحبي الذي لم أجده إلاَّ ذكرياتٍ هنا.. بدأت أمشي بين الأبواب البيضاء الخشبية العالية.. مررت

من خلال غرفة مكتبه لأقف أمام الطاولة طويلاً.. هنا جلس "أفندينا" أمام هيرتزل.. وقال له: "أنصحك بأنْ لا تتخذ خطوة عملية في هذا الموضوع.. هذه الأرض –يعني القدس- ليست ملك يميني، لقد جاهد شعبي في سبيلها ورووها بدمائهم، فليحتفظ اليهود بملايينهم.. فإذا تمزَّقت الخلافة فإنَّ بإمكانهم حينها أخذ فلسطين..".

هنا وقف.. ووجهه للشبَّاك.. ووراءه الأربعة الذين جاؤو يحملون له قرار خلعه.. ثمَّ التفت إليهم وقال كلمته الشهيرة: "إنَّني أحترم مقامكم يا شيخ الإسلام.. أحترم تاريخك العسكري أيُّها المارشال، والجيش الذي تمثله.. أحترم الشعب الذي تمثله يا رئيس البرلمان.. ولكن ما بال هذا الكلب" وهو يشير إلى النائب اليهودي قره صو الذي يرافقهم.

هنا أشعل سيجارته.. تلقَّى أخباره.. اغتم لأمَّته.. وفرح بانتصاراتها.. وهنا كان.. وهنا لا يزال.. تحياتي إليك أيُّها الصديق القديم.. تحياتي لك يا "أفندينا".. سلام على رجل ضحى بعرشه ليبقى مجد أمَّته.. سلامي على من حُمِّل ذنب الأرمن الذي لم يرتكبه.. ذنبهم، وهو يعفو عن زعيمهم بعد أنْ حاول اغتياله.. ذنبهم وهم يتلقون دعم فرنسة.. وأسلحة فرنسة ليثوروا على الدولة.. ذنبهم وهو يوظفهم في وظائف ديوان المال.. ووظائف المعمار كأيِّ مواطن آخر.. ليأتي "سخيف" من سُخفائهم فيتهكَّم على رحمته رحمه الله.. حسبي بأنَّه لو كان حيًّا لما تجرَّأَ عليه، سلامي عليك حين تُذكر (يا منمِّق دمشق) محتلاً لها.. السلام

عليك حين ينكرك الجميع.. حين ينكرك حتَّى أبناء عرقك.. السلام عليك حين ينعتونك بالأحمر.. نعم كنت أنت السلطان الأحمر الذي أرعب أعداءه.. لا الذي قتل أبناءه.. بحسبي أنْ تكتب عن بني دولتك يا خليفة المسلمين فتقول: "أبنائي"، ويكتبوا عنك فيجحدوك.. و"كأنَّك تَسُفُّهُم المَلَّ" كما قال رسول الله ﷺ.

مصنع البورسلان السلطاني

افتتح في عام (١٣١١هـ)، (١٨٩٥م)، وذلك لسد حاجة القصور من السيراميك على النمط الأوروبي. والسلطانيات والمزهريات والأطباق، وقد أَنْتَجَ الكثير من الخزفيات التي تستطيع أنْ تراها في "طوبقابي"، و"طُوْلْمَا بَاغْجَة"، و"يلدز".

بعد سقوط الدولة العثمانية، استخدم القصر كدار ضيافة لزيارة رؤساء الدول والملوك. اليوم هو أحد المتاحف، وتستخدم مرافقه لحفلات الاستقبال الخاصة، والمعارض، عدا أنَّ مكاتب مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (الإرسكا) التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي تشغل جزءًا منه.

يلدز باغجة

أو "يلدز كوروش"، أو حديقة يلدز، وهي الغابة التي ألحقت بالقصور في القدم، واليوم هِيَ هِي إحدى أكبر الحدائق العامة في إسطنبول. وتقع بين تْشِيران سراي، ويلدز سراي.

ولعل اللوحة الوحيدة التي رُسِمَتْ لـ"تْشِيران سراي"، في (١٢٥٥هـ)، (١٨٤٠م) قبل الحريق.. والتي تعد أقدم لوحة له، تظهر تلال "يلدز" التي تشكِّل الحديقة اليوم، وقد كانت الحديقة محاطة بسور يحظر الدخول إليها من خارج مناطق القصور السلطانية.

وكانت هذه الحدائق والتي تشكل مع القصر (١كم٢) مضمنة في "يلدز سراي"، وقد بنيت فيها بحيرة اصطناعية، تستطيع أنْ تراها كَدِرَةً من نافذة "يلدز سراي"، أمَّا الجزء الأكبر من الحديقة، فقد أصبح اليوم مُجَمَّعَ حدائق جميلة، بها تشكيلة من الزهور والنباتات والأشجار التي تم جمعها من مختلف أصقاع العالم خلال العهد العثماني.

تكشف الحديقة منظرًا أخَّاذًا برؤية بانورامية للبوسفور. وهي متنزَّه يزرع الجمال زهورًا في النفس، ولكون جناحَي "تْشِادر" و"مالطة"، ضمن حدود الحديقة فقد استخدما كمقاهٍ ومطاعم.

وتشتمل الحديقة بالإضافة إلى زهورها مجموعة من النباتات المشهورة، كزهرة المغنوليا الفرنسية، (والتي هجَّنتها أسرة مغنولياسي)، وشجر الغار والجودس، والليمون الفضي، والكستناء، والبلوط، والسرو، والصنوبر، والأرز، والدردار، وتستطيع أنْ ترى بحيرتين اصطناعيتين أخريين هنا.

مكتبة الإريسكا

في ساحة القصر الخارجية تقوم مجموعة من المباني كانت تستخدم كمستودعات سلاح، ومخازن مؤن، وثكنات عسكرية، بالإضافة إلى مقصورة الدولة (بويوك ما بين)، كلُّ هذه المباني أصبحت اليوم مكاتب للإرسكا.. لا يهمني أنْ أتكلَّم عنها كثيرًا.. باستثناء المكتبة التي أصبحت اليوم مكتبة الإرسكا.. فلك أنْ تتخيل مبنى من طابقين.. مساحته (١٧٠×٢٠م) تقريبًا، مليء بنفائس الكُتُب.. وجميل المخطوطات.. إنَّه شيء يثير شهيَّة أيِّ شخص.. لولا بُعْدُ المسافة بين بيتنا وإسطنبول، يقال إنَّ هذا المبنى كان مكتبةً أيَّام السلطان عبد الحميد.. وكان جزء منها هو الخزينة الخاصة بالنفائس، والتي (سرقها) الاتحاديون حينما دخلوا القصر يوم عَزْلِ السلطان، لذا فقد ضاعت الكثير من الكتب التي كانت بها، وبعضها نُقِل إلى "طوبقابي سراي"، ويقال إنَّ هذه الغرفة هي التي كانت تحوي مجموعات السلطان عبد الحميد من الصور واللوحات.. يكفي أنْ تعلم أنَّ مكتبة القصر نُقل منها (٣٠٠٠٠) كتابًا إلى جامعة إسطنبول..

عدا الوثائق.. والمخطوطات.. والخرائط.. وألبومات صور.. وقطع نفيسة من الأثاث.. ولك أنْ تعلم أنَّ مقتنيات من مختلف أشكال وأحجام وأعمار وجنسيات الأسلحة نقلت من مقتنات السلطان إلى متحف السلاح بمنطقة تقسيم.

بعد هذه الزيارة الخاطفة.. ودَّعت طيف صديقي الذي كان هنا.. ودَّعته وكلِّي امتنان لذلك الرجل.. ولم أزدد له إلاَّ حبًّا.. خرجت من باب القصر.. وأنا أنتظر أنْ أرى طيفه من خلف إحدى النوافذ يلوِّح لي.. إلاَّ أنِّي لم أره.. خرجت.. وقد ألقيت له سلامًا.. لعلَّ أذنه التقطته.. بين حشود سلامات المحبين لذكراه.. فسلامًا يا عبد الحميد.. سلاما يا صحوة الرجل المريض.

الجامع الجديد.. وسوق التوابل

مشوَّش أنَا وأنا أغادرك يا قصرَه، ضائع بين لماذا..؟ وكيف..؟ الرهبةِ.. والألمِ.. والحنينِ، بضاعة أحملها معي في جراب الذكرى.. ها قد رحلتُ يا "يلدز سراي".. كما رحل هو.. لا أستطيع أنْ أحتمل لوعةً تخيَّلتها وأنا أغادر يلدز إلى ناحية أخرى من إسطنبول، فكيف تحمَّل السلطان أنْ يغادره إلى مدينة غير إسطنبول.

قررت أنْ أهرب بعيدًا بالروح.. أنْ أوغل مرَّة أخرى إلى إسطنبول السلاطين.. إلى مكان أجد فيه جمال الأمان الذي فقدته في يلدز.. فخطر ببالي خاطر كنت أستمتع به منذ وصلتُ إلى إسطنبول.

إنَّ من أجمل الألعاب التي كنت أستمتع بها وأنا في إسطنبول هي "لعبة الانبهار".. وكنت ألعبها كالتالي.. حينما أقبل على المنعطف الأخير في شارع "كيميراليتي" آخر نقطة قبل صعود جسر "غَلَطَة" أغمض عيني.. وأعد إلى (٤٠) ثمَّ أفتحها.. لا أذكر - رغم كثرة ما لعبت اللعبة- أنَّني فتحت عيني ولم أنبهر.. لا أذكر أنَّني فتحت عيني ولم أنظر إلى "ييني جامع".

كان المسجد - وبرغم جمال ما يحيط به- يشخص أمامك، وكأنَّ يدًا خفيَّة تمتد منه إلى ذقنك.. فتمسكه برفق.. وتثني رقبتك إليه.. وكأنَّه - وهو يقف بشموخه- ينبيك عن قصَّته دون أنْ تسأله.. هذا هو.. جامع الوالدة سلطان.. الجامع الجديد.. "ييني جامع".

تبدأ قصَّة هذا الجامع مع صفيه سلطان.. أمُّ السلطان محمد الثالث.. التي قرَّرت في العام (١٠٠٥هـ)، (١٥٩٧م) (أي في عهد ولدها) أنْ تقيم جامعًا.. فوقع اختيارها على الأرض الملاصقة للميناء التجاري في منطقة "إيْمِيْنونو"، والملاصقة لـ"مِيْسِرْ تْشِارشيهسي"، وفعلاً تمَّ تكليف "داود آغا" التلميذ الأكبر للمعمار سنان ببدء بناء المسجد، وبدأ فعلاً بالتأسيس

لذلك، ولكن.. وبعد فترة يتوفى "داود آغا"، فيتوقف البناء.. حتَّى يقع الاختيار على المعمار الشهير.. وتلميذ معمار سنان المتميز "دالكيتْشِ أحمد آغا".. أو "أحمد آغا الغطَّاس"، وذلك في (١٠٠٧هـ)، (١٥٩٨م)، ويستمر أحمد آغا.. حتى جاء العام (١٠١٢هـ)، (١٦٠٣م) والذي شهد وفاة الوالدة سلطان.. وبدء إنشاء جامع السلطان أحمد.. فيتوقَّف العمل في جامع الوالدة سلطان.. إذ أنَّ جامع السلطان أحمد يتطلَّب كلَّ خبرات المعماريين.

ويتوفى "أحمد آغا"، ويظل المسجد الهيكل قائمًا دون إكمال.. حتَّى العام (١٠٧١هـ)، (١٦٦١م) حيث قررت الوالدة سلطان "خديجة تورهان" والدة السلطان محمد الرابع بن إبراهيم بإعادة تحريك المشروع، وكلَّفت المعمار "مصطفى آغا" بإعادة بدء العمل به.. ليكتمل ويتم افتتاحه في إحدى صلوات الجمع عام(١٠٧٤هـ)، (١٦٦٣م).

منذ أوائل (١٠٠٥هـ) وحتَّى أواخر (١٠٧٤هـ).. قرابة (٧٠) عامًا.. تجعل هذه الكلية.. أطول الكليات العثمانية إنشاءً.. إذا قورنت بما هو أكبر منها مثل السليمانية (٧) أعوام، وسلطان أحمد (٦)أعوام (مع اعتبار التوقف عامين والتي كانت لإعمار الحرمين خلال مدة بناء سلطان أحمد).

"داود آغا".. "أحمد آغا الغطاس".. و"مُصطفى آغا"، كلٌّ واحد من هؤلاء كان رمزَ عصره.. وتلميذ أستاذه.. وصاحب ذوق فني راقٍ نستطيع أنْ نقول إنَّه يرتقي ليكون نظرية في الجمال.. وكان نصيب المسجد أنْ اختلطت نظراتهم المختلفة.. لتنسجم في ظلِّ نظريَّة معمار سنان.. فيكون هذا المسجد.

تبلغ مساحة المبنى القائم اليوم للمسجد (٨٠×٥٠م) تقريبًا، منها (٣٠×٣٠) ساحة في الجهة الشمالية منه، تصغر عن مبنى المسجد قرابة (١٠) أمتار من كل ناحية من الناحيتين الشمالية الشرقية، والجنوبية الغربية،ويتوسطها ميضأة دائرية الشكل، بينما يشكل مبنى المسجد (٥٠×٥٠)، وقد كانت مساحة الجامعة بساحاتها الخارجية في أوائل القرن (١٩) قرابة (٢٠٠×٢٠٠م) تقريبًا، اقتصَّ منها السور الخارجي.. ثمَّ مباني المدارس.. ثمَّ جزء من الساحة لتوسعة الطرق المرورية المحيطة بالمسجد، ليبقى ما مساحته (١٦٠×١٧٠م)، ويصبح مبنى الجامع ومبنى القصر السلطاني (هنكار سراي)، والجزء المتبقي من الساحة الخلفية للجامع، شاخصًا على شارع "راغب جملون باشا" مباشرةً، بينما تختفي المقبرة والسوق ومدخل القصر خلف المبنى من ناحية القبلة، ويمكنك المرور من أسفل قصر هنكار بينه وبين المسجد للوصول إلى المقبرة فالسوق "مِيْسِرْ تْشِارتْشِهسي".

للجامع قبة الرئيسة قطرها (٢٠م) تقريبًا، وارتفاعها (٥٠م) تقريبًا، تحيط بها أربعة أنصاف قبب، قطر كل نصف (١٠م) تقريبًا، تقوم القبة على (٤) أعمدة كوفية مساحة الواحد منها (٤×٥) تقريبًا، بارتفاع (٤٠م)، ذلك عدا (٤٨) قبة، (٢٤) منها تحيط بالساحة، وتتوزع البقية على زوايا المسجد الأربع، وتقوم على التقاء المسجد بساحته الخلفية الداخلية مئذنتان، ارتفاع كل واحدة يقرب من (٦٥م)، ولكل واحدة ثلاث مشرفيات، وللساحة ثلاثة مداخل، وكذلك المسجد له ثلاثة مداخل أحدها من الساحة.

ترتفع على الدرج المؤدِّي إلى البوابة المشرفة على البحر.. تدخل الساحة لتشعر بهدوء المكان.. وكأنَّ الباب ما بينك وبين الساحة التي تعج بالناس.. والباعة.. والسياح.. والسيارات.. والبواخر باب يكتم الصوت.. حوائط الرواق جرداء.. إلاَّ الحائط الذي يحوي باب المسجد، فقد كُتبت على البورسلان التركوازي اللون آيات من سورة الجمعة، وفوق المدخل الرئيس نُحِتَتْ: "قال الله تبارك وتعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾ (المعارج) صدق الله العظيم"، تقترب منها لا شعوريًا.. تمعن فيها.. ثمَّ تلتفت عنها فتخلبك على بوابة المسجد: "قال الله تبارك وتعالى ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ (البقرة) صدق الله العظيم"، فتسير باتجاهها.. إلاَّ أنَّك هذه المرة تدخل من الباب.. ستقف.. على الباب الملبَّس بمدخل رخامي مذهَّب، كتبت أبيات على

ثلاثة أسطر.. تبدأ أولها على الواجهة اليمنى.. ثمَّ أربعة أشطر في الوسط، والشطر الأخير على الواجهة اليسرى، كتبت بخط ريحاني منمَّق، وفصل كلُّ شطر في شكل مستطيل مائل الحواف مستقل، "حبذا جامع زها زهوا(الجدار الأيمن)، شيد بنيانه على التقوى// ماله من مشابه أبدًا// هو في الحسن غاية قصوى// حار فيهي وفي تألُّقه(جدار الباب)، كل راءٍ رُواءه عزوا(الجدار الأيسر)،(السطر الأول)، حرم أمن لداخله(الجدار الأيمن)، جالب الخير دافع البلوى// جامع قد حوت قواعده// كل حسنٍ قد كسى صفوا// جامع سُوَّت محاسنه(جدار الباب)، أجزل الله أجر من سوى(الجدار الأيسر)،(السطر الثاني)، أم سلطاننا أطال لها(الجدار الأيمن)، عمرها ربها كما تهوى// واجزها بكل مكرمة// عالم السر عالم النجوى// حسن قال فيه تاريخا(جدار الباب)، جامع البر معلم التقوى(الجدار الأيسر)،(السطر الثالث).

الجامع من الداخل أسطورة من أساطير الجمال.. تتحدَّث بورسلاناته التي صنعت كلٌّ واحدة منها يدويًا عن دقة مِعْمَارِيِّيْهِ، قببه البيضاء المزخرفة بالأحمر المرجاني تحكي سرًا آخر.. آياته ومشدوداته التي كتبت على اللون الأخضر أسرار، مقصورته السلطانية.. المتصلة بالطابق الثاني الذي يشغل كل رواق المسجد أمر ثالث.. إنَّها بدعة من بدائع العمارة.. حقًّا ثلاثةُ مُنَغِّمين.. برؤًى مختلفة.. يعزفون على وتر ومقام أبدعه المعمار سنان.. أطلت النظر.. أجلته.. تحدَّثت مع أطياف الجامع،

حدَّثوني.. ورغم كلِّ ذلك.. اتجهت إلى الباب.. خرجت إلى الساحة الداخلية.. ومنها إلى الساحة التي كنت فيها منذ قليل.

أروقة المسجد الخارجية بديعة.. صيغت على روح المسجد.. لن تَكلفَ كثيرًا لتتذوَّق جمالها.. حين تراها بعد خروجك من المسجد سَتُحِسُّ أنَّك رأيتها قبلُ.. وحين تراها قبل دخولك.. ستحس أنَّك رأيت أروقة المسجد في مكان ما قبلُ.. السرُّ أنَّ الجمال يُفقدك التركيز.

سترى في آخر الرواق باتجاه القبلة البوابة الرخامية التي تخص مدخل السلطان، وقد صنعت من قطعة واحدة من الرخام.. حفر فيها باب.. نُقِشَ عليه بخطِّ الثلث لفظ الجلالة.. يُفْضِي بِكَ بابه الحديدي المعشَّق بالزخرفة الإسلامية إلى سُلَّم يصعد بك إلى مدخل.. يفضي إلى المقصورة السلطانية بالجامع.. وإلى الدور الثاني.. ويبدو أنَّه يؤدِّي كذلك إلى "هنكار سراي"، والذي بني خصيصًا للوالدة خديجة تورهان.. وكانت تعتكف فيه لفترات طويلة من حياتها.. تستطيع المرور بقربها.. بل وأسفل مبنى القصر المكون - كل القصور الملحقة بالجوامع- من غرفتين وقاعة ومرافق.. ستمر أسفل المبنى.. لتمشي بمحاذاة مدخله المقبب المبني على هيئة مَنْزَلٍ إلى أوَّل الشارع.. ستقف بين المسجد.. القصر.. والمقبرة.. ستتلفَّت حواليك.. حتى بعض ملابس المارة تعود لتلك الفترة.. وكأنَّك في العام (١٠٧١هـ)، (١٦٦١م).

هنا ترقد خديجة تورهان وأحفادها

تقدَّمت باتجاه حائط المقبرة.. وضعت يدي على إحدى نوافذه الـ(٤٧) المشبَّكة بالحديد.. وأسندت رأسي أتفرَّج على القباب وشواهد القبور.. أحسست وكأنَّني ثاكل فقد عزيزًا دفنه هنا.. هنا ترقد الوالدة سلطان خديجة باشا تورهان، بينما ترقد صفية سلطان هناك على الناحية الأخرى.. في مقبرة مسجد سنان باشا، هذا ضريحها.. يتوسَّط المقام.. مَنْ قال إنَّنا لا نقدِّر النساء.. في هذه المقبرة يرقد خمسة من السلاطين.. يحيطون بضريح جدتهم كالحرَّاس.. السلطان محمد الرابع.. السلطان مصطفى الثاني.. السلطان محمود الأول.. السلطان أحمد الثالث.. وصديقي عبد الحميد الثاني، ذلك عدا كثير من ولاة العهود، وأبناء السلاطين.. والصدور العظام.. والباشاوات.. والوزراء.. والمولوية الكبار، إنَّها إحدى أكبر المقابر في إسطنبول.. مقامًا.. وحجمًا.. وموتى، أطلت الوقوف حتَّى ظنَّ المارَّة أنَّني فعلا فاقد يودِّع ميتًا.. انتبهت تحرَّكت مع الحائط باتجاه الشارع الصاعد.. عيني على الحائط.. وكأنَّني أراقب أحدًا.. قبرها هنا.. محروس بخمسة سلاطين، كلُّهم يحمل لقب غازي.. يحيطون بهذا الضريح.. السلام عليكم دار قوم مؤمنين.

سوق التوابل

يُقال إنَّ هذا السوق هو أوَّل مبنى تجاري بناه الفاتح في إسطنبول.. وأسماه "ييني تْشِارشه" وتعني السوق الجديد كما تذكر الوثائق العثمانية، وكان يقوم على أساس حمل البضائع من مصر إلى إسطنبول.. ولكون أهمِّ ما حُمِلَ إلى السوق عن طريق المصريين هو التوابل، فقد سمِّيت هذه البضاعة بالتركية "مِيْسِرْ"، إلاَّ أنَّ الترجمة الصحيحة لاسم السوق هي سوق التوابل.. وغلبت عليه تسمية السوق المصري للتشابه في النطق فهي تنطق: "مِيْسِرْ تْشِارشَهْسي".

والحقيقة هي أنَّ التوابل وصلت أوَّل ما وصلت إلى هنا عن طريق مصر.. وبيعت في هذا السوق.. ولذا حمل السوق اسمها، ولذا فنحن نجد التسميتين بالإنجليزية "سبايس بازار".. وتعني حَرفيًا سوق التوابل.. و"إيجبشن بازار" السوق المصري.

وبعيدًا عن هذا وذاك، فاسم السوق الحقيقي هو "ييني تْشَارشه" أو السوق الجديد، وبسبب كون التوابل المحمولة من مصر هي أهم البضائع فيه سمِّيَت بالتركية "ميسر"، وانطلت تلك التسمية لدى عامَّة الشعب على التوابل.. ثم على السوق، إلاَّ أنَّ الاسم الحقيقي للتوابل بالتركية هو "مِزَّه".

يعد هذا السوق ثاني أكبر سوق شعبي في إسطنبول بعد "كابالي تْشِارشيه" أو السوق الكبير، وهو الأقدم من ناحية البناء، وقد تم بناؤه بشكله الحالي كجزء من "ييني جامع"، ليكون الوقف التجاري على المسجد، وقد صمَّم المبنى الحالي قاضي القضاة "خوجه قاسم آغا" والذي كان يمتهن العمارة مع وظيفته الرئيسة، وتمَّ تنفيذه على يد المعمار مصطفى آغا.. في الفترة ما بين (١٠٧٠- ١٠٧٤هـ) الموافق (١٦٦٠-١٦٦٤م).

يقوم مبنى السوق على شكل حرف (ل)، يبلغ طول ضلعه الأطول (١٥٠×٢٥م) وضلعه الآخر (١١٠×٢٥م)، وله ثلاث بوابات.. الرئيسة في مكان قبلة السوق.. وتسمى "هاسيكي قابسي" أو البوابة الرئيسة، وقد كتب عليها تاريخ افتتاح السوق (١٦٦٤م)[١٢٤]، وتقابلها في نهاية الممر بوابة أخرى.. أمَّا الثالثة فهي التي تؤدِّي إلى ساحة الجامع.

يتألَّف السوق من (٨٨) غرفة محل مقبَّبة.. كلَّها تقريبًا مكونة من دورين، ذلك عدا الجدران الخارجية، والتي أصبحت محلات أيضًا، والساحات الواقعة بين السوق والمسجد.. والسوق والمقبرة.. كلُّ جزء من هذه الأجزاء له تخصصه في البضاعة.

فمثلاً.. الجهة الخارجية من ناحية البوابة الرئيسة بها مجموعة من المطاعم.. وفي الممر الرئيس تجد الغالب على المحلات محلات العطارة..

والتوابل.. وباعة الحلوى التركية المميزة والجيدة، وقليل من محلات بيع التحف والمستلزمات الجلدية والمنسوجات.. أمَّا في الضلع الآخر المؤدِّي للمسجد فبالعكس.. إذ تكثر محلات التحف.. والمستلزمات الجلدية.. والمنسوجات.. وتقل محلات الحلوى والعطارين، أمَّا الجدار الخارجي من جهة البوابة المقابلة للبوابة الرئيسة وحتَّى ساحة المسجد فهي محلات لبيع الأسماك.. واللحوم.. والأجبان.. والألبان.. والمخللات.. والأغذية، وإذا تخطَّيت البوابة المقابلة للمسجد.. ومشيت مع جدار السوق، فستجد سوقًا لبيع الحيوانات.. والنباتات.. والشتلات.. والبذور، وبين السوق والمسجد يتَّخذ باعة التقليد والخُردة من الأرض مفارش لهم.

الجولة في هذه الأسواق ممتعة.. وترحيب الناس بك.. وتبسُّمهم لك قد يحرجك فتشتري.. إلاَّ أنَّك لن تجد ما تجده في الأسواق الشعبيَّة القديمة في العالم العربي من وقاحة وشتم إنْ لم تشترِ من عنده.. هذا هو الفرق.

أصبح لزامًا عليَّ بعد هذه الزيارة أنْ أعود للفندق لأُنْزِلَ ما اشتريت من بضاعة هناك.. ومن هناك سأحدد وجهة أخرى.

حديقة خير الدين

بعد إراحة قصيرة غادرت الفندق سيرًا على الأقدام.. فوجهتي القادمة قريبة من الفندق.. ومنها سأحدد اتجاهًا آخر.. كانت وجهتي هي "حديقة بربروسا".

خير الدين بربروسا[١٢٥]، هو قائد تركماني، ينتمي إلى أسرة عسكرية عثمانية، استشهد أبوه في فتوحات اليونان، وبحكم كونه أصلاً من سكَّان جزر المتوسِّط عمل مع إخوته في البحر.. إلاَّ أنَّ عَمَلَ الأسرة تغيَّر من التجارة إلى الحربية البحرية حينما سيطر فرسان القديس يوحنَّا على شرق المتوسِّط.. فكوَّنت الأسرة فرقة بحريَّةً لدفع هجماتهم على سُفُنِ المسلمين.. وبعد فترة أصبحت سفن أهل هذه الجزر لا تدافع.. بل تهاجم وتحارب في الحرب المقدَّسة ضد الصليبيين.

وتتسلسل الأحداث ليصل خير الدين إلى رئاسة الأسطول البحري الذي بدأ يسيطر على البحر الأبيض المتوسط.. والشمال الغربي للمغرب العربي، ويُعلن ولاءه للخليفة الجديد سليمان القانوني، الذي خلع عليه لقب "باشا"، ثمَّ تسقط الأندلس.. ويصل بعض الأندلسيين إلى القانوني يشكون له الظلم.. بحكم كونه خليفة المسلمين.. والمسؤول عنهم، فيكلِّفُ الخليفةُ خير الدين بحكم معرفته بغربي حوض المتوسط بإنقاذ مسلمي الأندلس.. فينقل خير الدين مركز أعماله من تونس إلى جزر البليار.. ثمَّ

يعلن السيطرة على الشاطئ الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانية) ويبعث المنادين في كل المدن الأندلسية أنَّ من أراد الارتحال من هنا فليقدم إلي المشرق.. ويحمل الآلاف منهم.. يذهب بهم إلى الجزائر، أو إسطنبول.. ويعود ليحمل غيرهم، وتذهب به القوَّة إلى أنْ يُعلن المنع لأي سفينة أسبانية أو برتغالية من الإبحار في المتوسط.. وفعلا.. تُمنع السفن، وينعم عليه السلطان القانوني بلقب: "باش قابودان".

ويحاول الأسبان والبرتغاليون عن طريق الإنزال البحري في شمال المغرب السيطرة على تونس والجزائر.. ويكون لهم بالمرصاد.. ويعاقب الولاة الذين ساعدوهم وأمدُّوهم، ويكرم أولئك الذين حاربوهم.. ويدعم المنصور السعدي في حربه ضدَّهم في معركة الخزان، ثمَّ يكلِّفه السلطان بأنْ يساعد الفرنسيين في حربهم ضد الأسبان، فيتَّخذ من مارسيليا مركزًا له.. ويسيطر على حوض البليار (الجزء الشمالي الغربي من حوض المتوسط)، حتَّى تنتهي الحرب.. فيعيد تسليم المدينة للفرنسيين.. ويرتحل هو إلى إسطنبول.

أصبح خير الدين باشا باي الجزائر وتونس، وحاكم حوض المتوسط، وحمل لقب "باي لر باي".. والذي سيطر عليه بأسطوله الكبير ذي المائتي سفينة، واستمر ذلك حتى وفاته.

فعلى ضفاف البوسفور.. هنا.. وأمام المنظر الحالم.. وفي قصره الواقع على روعة ضفاف البوسفور.. أسلم ابن الخمسة والسبعين عامًا الـ"باشقابودان" خير الدين، روحه.. بعد حياة ملأها بروعة الأعمال.. وحُمل ليدفن هنا.. في هذه الحديقة.. ونصبت قبَّته التي كُتِبَ على بابها: "اللهم افتح له أبواب رحمتك"، "هذه تربة فاتح جزاير وتونس مرحوم غازي قابودان خير الدين باشا رحمة الله عليه سنة ٩٤٨".

وتمرُّ الأعوام وتنقضي.. ويرحل خليفة إثر خليفة.. وتضع الدولة العليَّة أوزارها.. ويختلط على الناس أصل الرجل ودينه، وتقوم الجمهورية.. ويأتي العام (١٣٦٣هـ)، (١٩٤٤م).. وفي عيد ميلاده توضع أمام قبره.. وعلى بعد قُرابة (٥٠) مترًا ينصب النصب العظيم.. لهذا القائد العظيم.

تُقبل على المقبرة.. وتقرأ.. وتدعو.. ثمَّ تلتفت إلى الميدان.. فتسمع في أذنك طرقعة المدفعيَّة.. ولا تعرف السبب.. تلتفت يسارًا لترى أيْنَ تلك السفن المعادية.. وقلبك يدقُّ خوفًا مما سمعت أذنك.. ستعود خطوة أو خطوتين إلى الوراء.. خوفًا.. لترى مقدِّمة السفية الكبرى على يمينك.. على رأسها ذلك الرجل المهيب.. ووراءه جنديان بحريان أصلعان.. أحدهما ينصب راية القائد.. والآخر ينتظر إعلان أوامره.. ستجد نفسك الباحثة عن الأمان تتجه نحوه.. وكأنَّك تمدُّ يدك طالبًا النجدة من الغرق أسفل السفينة.. وكأنَّ نفسك الخائفة منذ لحظات تتحفز لتكون تحت إمرة هذا

القائد.. يده على الزناد.. نظرته المتجهِّمة في وجه عدوه تنبئ بأنَّ صفحة الهزيمة ممزوعة من قاموسه.. كما هي ممزوعة من تأريخه.. تضع يدك على مقدِّمة السفينة فيزعجك برد الرخام.. كما لو أنَّه برد الخشب الرطب من الإبحار.. تسمع في أذنك أصوات طبول الـ"مهترباشِ" لمائتي سفينة.. وهي تعزف اللحن المعروف بـ"خير الدين باشا مارشي".. وتلتفت وراءك لترى عدوَّهم.. ستشعر بتدفُّقٍ من أخمص قدميك حتَّى رأسك.. لا شعوريًا.. ستضع يدك على وسطك باحثًا عن سيفك.. ستسمع من ورائك تكبيرًا.. وتجد نفسك هاجمًا وأنت تستلُّ سيفك باتجاه ذلك العدو الذي لم تَرَه.. لمجرَّد توهمك بسماع كلمة: "هجوم"، من فم التمثال البرونزي.. قف.. فذلك تمثال خير الدين.. تمثاله فحسب.. فكيف لو كان حيًّا؟! على النُّصُبِ نُقشت أبيات شعرية للشاعر العثماني التركي "يحيى كمال بياتلي"(١٢٦).. كتبها على ما يبدو في مولده.. تقول:

"صوت السلاح الذي يأتي من عرض البحر
ربما يكون لإحدى بعثات بربروس البحرية
من الجزر، من تونس، أو من الجزائر
مائتي سفينة حرَّة من بحريته تلوح في الأفق
رأيتها حين حان مولدك في هذا الشهر
إنَّها سفنك المقدَّسة القادمة مع الفجر".

تحيتي لك يا أميرلاي البحر.. وقائد البحرية العثمانية.. ووالي ما وراء حوض المتوسط وحاميه.. يا حارم الأسبان لذَّة الإبحار في المتوسِّط، وكاسر شوكتهم في البر والبحر.. يا حامي حمى الأندلسيين بعد ما أضاعهم ملوكهم.. سلام عليك وأنت تقف شامخًا في كلِّ ذكر.. في البحر.. وفي البر.. على نُصُبِكَ، وفي كتب التاريخ.. حتَّى في قبرك.. تقف شامخًا في كلِّ ذهنٍ يمر فيه اسم: "خير الدين.. الخضر.. عبد الرحمن بربروسَّا".

"غَلَطَة" كولوسيه

تحركت من حديقة بربروسا إلى منطقة "غَلَطَة".. ومن لا يرى "غَلَطَة" كولوسيه.. أو بُرج "غَلَطَة" المُشْرِفِ على كُلِّ إسطنبول؟! قصدتُ هذه المرة زيارة البرج الذي يتحوَّل في الليل إلى مطعم يقدِّم مع الوجبات فقرات استعراضية للفرق الشعبية.. ففضَّلت أنْ أزوره قبل أنْ يتحوَّل إلى ملهى.. ولو أنَّ زيارته صباحًا أفضل.. وأسلم.

على تلَّة ترتفع (٣٥م) من سطح البحر، تعد من أبهى تلال إسطنبول يرتفع البرج ذي (٦٧م) تقريبًا، والذي يتكون من (٩) أدوار، قطر قاعدته (١٦,٥٠م) تقريبًا، بينما يبلغ قطر المبنى من الداخل (٩م) تقريبًا، وهذا يعني أنَّ سماكة الجدار في القاعدة يصل إلى (٣,٥٠) تقريبًا، تقل حتَّى تصل إلى (٢٠سم) في القمة، وتستطيع أنْ ترى في الطوابق الوسطى شقوقًا طولية.. كتلك التي يراقب منها الرماة.. وفيما قبل آخره

ترى (١٤) شرفة كبيرة.. تعلوها المنصة العلوية وهي عبارة عن دكَّة حديدية مسيَّجة عمقها (٨٠سم) تدور على كامل المبني.. وعلى ارتفاع (٥١,٥٠م) تقريبًا.. حيث كانت نقطة مراقبة السفن سابقًا.. ورصد الحرائق في أواخر أيَّام الدولة العثمانية.

من هذا البرج تستطيع أنْ تشرف على كلِّ زوايا إسطنبول.. تتلمَّسها روحًا ومعنى.. تَعُبُّ من جمال بوسفورها.. وهدوء أناضولها.. وبركة قرنها الذهبي.. تتلمَّس فخر منطقة "فاتح" بكل معالمها.. سلطان أحمد.. أيا صوفيا.. سليمانية.. طوبقابي.. يني جامع، وتنال بركة الراقد في "أيوب سلطان".. وجمال المدينة حواليه.. كما وترى قصور (آخر الأيام الخضراء) في إسطنبول.. طُوْلْمَا بَاغْجَة.. يلدز.. "باي لر باي"، ببساطة.. وبدورة واحدة على رأس البرج ستحتوي إسطنبول من كل نواحيها.. مبنًى فخم.. يشرف على مدينة فخمة.. معلم مثير للدهشة، عبارة عن اسطوانة مخروطية على تلَّة مرتفعة تكشف في أفقها منظرًا بانوراميًا لإسطنبول القديمة وضواحيها.

بعد انتهاء الحملة الصليبية الرابعة، وهلاك "إنريكوس دندالو"، تم تقسيم القسطنطينية "المدينة المحتلة" على الدوقيَّات الإيطالية.. وأصبحت منطقة "غَلَطَة" من نصيب دوقيَّة "جَنَوَة"، وفي أواسط القرن الرابع عشر.. حينما بدأت الإمبراطورية تستعيد قوَّتها.. ورُفعت يد البنادقة عنها.. ظلَّت أجزاء من "غَلَطَة" في يد الجنويين، وبدأوا يفكِّرون في كيفيَّة حمايتها من

البيزنطين، فكان أنْ بدؤوا ببناء بُرْجٍ على أعلى تلَّة "غَلَطَة"، شارك فيه رجالهم ونساؤهم.. شيوخهم وأطفالهم.. وواصلوا الليل بالنهار حتَّى اكتمل.. فأسموه: "كرستيا توريس" وتعني برج المسيح، وكانوا قد أتموه في (٧٤٩هـ)، (١٣٤٨م)، وكان برجًا حجريًا.. إلاَّ أنَّ بناءه الداخلي كان من الخشب، أغضب ذلك البيزنطيين.. إلاَّ أنَّهم لم يكن لهم أي حيلة في مواجهة ذلك.

أثبت هذا البرج كفاءته في دفاعات القلعة الجنوية.. فقرر الجنويون توسعته وتشييده.. وكانت علاقتهم مع العثمانيين بدأت تزدهر بسبب مرور تجارتهم إلى الشرق من خلال الأراضي العثمانية، فكان أنْ طلبوا من السلطان مراد الثاني قرضًا لزيادة ارتفاع البرج مقابل تسميته باسم السلطان في العام (٨٤٩هـ)، (١٤٤٥م)، فلما علمت الحكومة المركزية بذلك أرسلت خطابًا شديد اللهجة لتعنيفهم، وتبيان كونها مكتفية ماديًا لتوسعة وتحصين البرج.

في الثلاثاء (١٤/من جمادى الأولى/٨٥٨هـ) الموافق (٢٩/من مايو/١٤٥٣م) كانت منطقة "غَلَطَةَ" أوَّل جُزءٍ من مدينة القسطنطينية يتم تسليمه للفاتح، إذ أعلنت مستعمرة جنوة الاستسلام له، وكان رمز ذلك: تسليمه مفاتيح البرج، ليسهل بعدها السيطرة على الجزء الأوروبي الشمالي منها، وفي الجمعة تم فتح باقي أجزاء المدينة.

ويمضي عهد الفاتح.. ليأتي عهد السلطان بايزيد الثاني.. فيتدمَّر البرج جرَّاء زلزال ضرب المدينة، فيكلِّف السلطانُ المعمار مراد بن خير الدين بإعادة بنائه، ليضاف إلى مهامه الدفاعية والملاحية مهمَّة الرصد الفلكي، فيصبح مرصد للفلكي العثماني تقي الدين أفندي، إلاَّ أنَّه أغلق بعد وفاة تقي الدين ليصبح البرج سكنًا للعبيد من النصارى المملوكين للدولة والذين يعملون في رصف الطرقات بمنطقة قاسم باشا في القرن الذهبي.

وفي عهد السلطان مراد الرابع.. وفي العام (١٠٤٠هـ)، (١٦٣٠م) سجَّل الفيزيائي أحمد جلبي الشهير بـ"هزار فن" وتعني (هزار العلم) ثاني محاولة طيران ناجحة في العالم[١٢٧]، من هذا البرج، وعلى البوسفور، وصولاً إلى مرتفعات الأسكودار (في الجانب الآسيوي) قرابة (٦كم)، مما أبهج السلطان وجعله يكافئ "هزارفن"[١٢٨].

وفي عهد السلطان أحمد الثالث عام(١١٢٦هـ)، (١٧١٤م)، عندما تأسست فرقة الإطفائية، أصبح البرج برج مراقبة للحرائق.. الخطر الأكثر تهديدًا لإسطنبول، ومن السخرية أنَّ البرج أصبح ضحية لأحد هذه الحرائق، بعد أنْ أنقذ المدينة من الكثير والكثير منها أيَّام السلطان سليم الثالث.. في(١٢٠٩هـ)، (١٧٩٤م)، ولَّما تمرَّد الينيشارية على السلطان محمود الثاني في العام (١٢٤٧هـ)، (١٨٣١م) قاموا بحرق البرج وتدمير مرافقه المتبقية، ورأسه المخروطي، ليصبح رأسه المبني مكشوفًا،

وفي عهد السلطان عبد العزيز، وفي (١٢٨١هـ)، (١٨٦٤م)، تمت إعادة تأهيل البرج وترميمه، وتمَّ هدم الغرف الداخلية به وإعادة بنائها بالخشب، كما تم ردم الخنادق المحيطة به، وتمَّ افتتاحه بعدها بثلاث سنوات، وهناك صورة قديمة للبرج التقطها "جي باسكال سيباه" بين (١٢٩١- ١٣١٢هـ) الموافق (١٨٧٥- ١٨٩٥م)، وتُظهر القبة التي بنيت بدل الشكل المخروطي، والتي كانت عبارة عن دوائر أربع تصغر كلما اتجهَت إلى الأعلى.

بعد عدة سنوات، في (١٩٦٥- ١٩٦٧)، وخلال الجمهورية التركية، تمَّ بناء شكل مطابق للشكل المخروطي الأصلي. وخلال هذه الترميمات في الستينات تم استبدال الهيكل الخشبي الداخلي للبرج بالخرساني الحالي، وفتحه للجمهور.

قصص حول البرج

يُعدُّ هذا البرج أحد أقدم معالم القسطنطينية.. إذ يُرْوَى أنَّ بناءه كان في عهد الإمبراطور البيزنطي أناستازيوز أولوزيوس (٤٣٠- ٤٩١- ٥١٨م)[١٢٩].. وقدْ أُتِمَّ بناؤه حسَب التاريخ الموجود في عهد خَلَفِ خَلَفِهِ جستنيانوس الأول عام (٥٢٨م)، إلاَّ أنَّ هذه المعلومة لها ما يدحضها، فناقل المعلومة ينسبها إلى "أناستازيوس أولوزيوس" والذي من المفروض أنْ يكون الأوَّل.. إذْ أنَّ الثاني جاء بعد هذا التاريخ بأكثر من (٢٠٠)

عامٍ، والأوَّل مات قبل هذا التاريخ بعشر سنين.. ويروي المصدر الذي أنقل منه.. وهو اللوحة التعريفية أمام باب البرج أنَّه بناه أوَّل ما بناه من الخشب.. وأسماه "ميجالوس بيرجوس".. وهذا اسم البرج الذي كان يتحكم في إنزال ورفع سلسلة القرن الذهبي.. ومن المعلوم في المصادر التاريخية أنَّ صاحب فكرة السلسلة.. والذي من المفترض أنْ يكون صاحب فكرة بناء البرج هو ليو الثالث إيساوروس الذي وصل إلى السلطة ما بين (٧١٧- ٧٤١م) مما يعني أنَّ البرج بني في هذه الفترة.. وأيًّا كان.. فإنَّني لم أجد هذه المعلومة في مكان آخر.

ومن المؤكَّد أنَّ هذا البرج مختلف تماما عن برج غلطة المسمَّى "ميجالوس بيرجوس" أي البرج الكبير، والذي كان يحتل زاوية الشاطئ العلوية من المضيق في منطقة "غَلَطَة".. مقابل منطقة "إيْمِيْنونو"، ويتحكم في إنزال ورفع سلسلة القرن الذهبي، والذي كان أكبر من برج غَلَطَة، وكان منارةً بحرية.. وأعتقد أنَّه هو الذي بني في (٥٢٨م)، والمنسوب إلى الإمبراطور "أناستاسيوس أولوزيوس"، والذي يقال إنَّه أقدم برج مراقبة في العالم.. مع العلم أنَّ بينه وبين منارة الإسكندرية ما لا يقل عن (٣٠٠٠) سنة، وأعتقد أنَّه تحوَّل إلى برج السلسلة في عهد الإمبراطور ليو الثالث.. ويقال إنَّه دُمِّر أيضًا خلال الحملة الصليبية الرابعة (٦٣٨هـ)، (١٢٤٠م)، إلاَّ أنَّه بالتَّأكيد كان موجودًا خلال الحصار في الفتح العثماني للمدينة، وكانت سلسلته تتحكَّم في البحر، وقد يكون الإمبراطور

قسطنطين الحادي عشر قد أعاد تأهيله خلال تجهيزه للمدينة قبيل الحصار الإسلامي لها.

أظلمت الدنيا.. وبدأ العرس المسائي لإسطنبول.. لقد كان يومي حافلاً الليلة.. أستحق أنْ أنال قسطًا من الراحة.. حملت متاع سعادتي الإسطنبولي.. ذكريات تاريخ الفتح من برج "غَلَطَة".. نزلت من شارع خلفي للبرج.. في "سكَّة" صاعدة باتجاه "استقلال قادسي".. هناك.. حيث رأيت إسطنبول قبيل سقوط آل عثمان.. الكنائس القديمة.. السفارات والقنصليات.. بهجة الشارع الليلية.. تمشيت فيه غريبًا يتذوَّق جمال ازدحام الأسواق في إسطنبول.. تناولت عشائي في مطعم هناك.. مررت على نُصُبِ الاستقلال.. ومنه تحرَّكت إلى الفندق.. إنَّ ذكريات برج "غَلَطَة".. وتسليمه للفاتح بعثت في نفسي شوقًا لهذا الرجل العظيم سيغيِّر خطَّة غدي.

١٢٣) مقارُّ الباب العالي بإسطنبول: أوَّل نزول الفاتح في إسطنبول كان في "إسكي سراي"، ثمَّ انتقل إلى "طوبقابي سراي"، وانتقل عبد المجيد الأول إلى "طُوْلْمَا بَاغْجَة"، وكان خلفه عبد العزيز في "تشيران".

١٢٤) إفتتاح السوق المصري (١٦٦٤م): ويوافق (١٠٧٤هـ).

١٢٥) هو خير الدين باشا الخضر عبد الرحمن بن يعقوب التركي، الشهير ببربروسا.. وتعني (ذا اللحية الحمراء) (١٤٦٧ - ١٥٤١)، تولى قيادة الأساطيل البحرية الخاصة بأسرته بعد استشهاد أخيه عرُّوج، وهو أصغر إخوته الأربعة، ولد في جزيرة لسبوس التابعة لليونان اليوم، وأصل والدهم من مدينة فارادار (وهو من الينيشارية)، وأمُّهم أرملة قس نصراني، لذا يعتقد الكثيرون أنَّهم كانوا نصارى، أسس الإخوة الأربعة قوَّة بحرية لمحاربة قرصنة فرسان القديس يوحنَّا بجزيرة رودس، وقد استشهد أخوهم الأكبر "إلياس" في هذه المواجهات، وأسر "عرُّوج" الذي فرَّ والتحق بالإسكندرية، واستطاع مقابلة السلطان المملوكي قنصواه الغوري، الذي أمدَّه بسفينة متكاملة وسمح له باستخدام الإسكندرية كميناء، وفعلا بدأ عروج بمحاربة قراصنة المتوسط الصليبيين، واستطاع تكبير أسطوله، فضمَّ إليه ثلاث سفن، واستطاع الاستيلاء على جزيرة "جربة" بتونس، واتخذها قاعدة له، وكان من أكبر مشاريعه أنْ استطاع إنقاذ الكثير من مسلمي الأندلس، ونقلهم إلى شمال إفريقية، وبدأ بمحاربة الأسبان هناك، واستعاد الجزائر وتلمسان من أبو حمُّو موسى الثالث، والذي كان حليفًا للأسبان، ولَمَّا بلغ عروج (٥٥) من العمر، وفي معركة ضد الأسبان نال شرف الشهادة ليعتلي حكم المتوسِّط خير الدين الذي انتصر على الأسبان في العام (١٥٢٩م)، وفي العام الذي تلاه أتمَّ الإستيلاء على تونس، وأعلن ولاءه وتبعيَّته للسلطان سليمان القانوني، ومنع

أيَّ سفينة تحمل العلم البرتغالي أو الأسباني من الإبحار في المتوسِّط، وبعدها بثلاثة أعوام عيَّنه السلطان سليمان القانوني "باشقابودان" أميرلاي الأسطول العثماني، وحاول الحفصيون استعادة تونس بمساعدة شارل الخامس ملك أسبانية، فسحق خير الدين باشا ذلك التحالف في معركة بروزة، وأثبت سيطرة العثمانيين على حوض المتوسط كلِّه، وفي (١٥٤٤م) أعلنت أسبانية الحرب على فرنسة، فطلب فرانسوا الأول المساعدة من العثمانيين، فأرسل القانوني خيرَ الدين، الذي تمركز في مارسيليا لمدة (٥) أعوام، ودحر الأسبان من كل الساحل الفرنسي والإيطالي، واستولى على الساحل الشرقي لأسبانية، ونقل في هذه المرة (٧٠٠٠٠) من مسلمي الأندلس إلى الجزائر وإسطنبول، وحين بلغ الخامسة والستين.. وفي إسطنبول.. بقصره المطل على البوسفور فاضت روحه الطاهرة، ودفن في منطقة باشكطاش، في الضريح والحديقة المسماة باسمه اليوم، والتي يقوم فيها نُصُبٌ له على مقدمة سفينة، وقد خلفه في حكم الجزائر وتونس ابنه محمد حسن باشا جدُّ بايات الجزائر.

١٢٦) يحيى كمال بياتلى (١٨٨٤- ١٩٥٨م) شاعر وكاتب وسياسي عثماني- تركي، ولد في سكوبجي (في جمهورية مقدونيا حاليًا) حينما كانت تابعة للدولة العثمانية، وأكمل تعليمه في مدينة (فيفا) ثمَّ انتقل إلى إسطنبول، ليعيش فيها، بعد الجمهورية أصبح أحد المجددين في الشعر التركي، وأحد الكتاب والسياسيين المشهورين فيها.

١٢٧) محاولات الطيران: كانت الأولى هي محاولة العالم الأندلسي عبَّاس بن فرناس.. والتي باءت بالفشل.. وتسببت في كسر رجليه، وكانت من على منارة الجامع الكبير بقرطبة وهو ابن نيف وثلاثين سنة، وكانت الثانية لعبَّاس بن فرناس.. وكانت من على مرتفع ونزل في أحد سهول الأندلس.. وهو ابن

(٩٠) سنة، وكانت هذه المحاولة هي المحاولة الثالثة للطيران.. والمحاولة الناجحة الثانية للطيران.

١٢٨) صفة محاولة "هزارفن" للطيران يذكر صاحب كتاب "سياحت نامه" الرحالة العثماني "أوليا جلبي" أنَّه في (١٠٤٠هـ) طار أحمد جلبي باستخدام أجنحة اصطناعية مكونة من ريش النسر. وينقل أوليا جلبي أيضًا أنَّ حسن جلبي لاجرد (وتعني المدفع) وهو أخو أحمد جلبي، نفذ أول صاروخ مخروطي الشكل يطير ثمَّ ينفجر وهو مليء بالبارود في (١٠٤٢هـ)(١٦٣٣) طيَّره من على البرج ليسقط في البوسفور.

١٢٩) فلافيوس أناستاسيوس الأول (٤٣٠- ٤٩١- ٥١٨م) إمبراطور بيزنطي تلوى بعد وفاة الإمبراطور "زينون" بزواجه من أرملته، وقد كسب ولاء شعبه.. حين أعفاه من النظام الضريبي، وكان متميزاً في إدارة دولته.

اليوم السابع: لحظات الفتح المَجيد

أصبحَتْ صباحات إسطنبول الجميلة بالنسبة لي موعدًا لا أملُّ انتظاره.. ولا أبدله بآخر.. مهما كان مبكِّرًا.. ومهما كان نومي متأخِّرًا سأنتبه على ميلاد الجمال.. سأقف لكي لا أفوِّت لقاء الضوء بالسماء بعد عرس الليل.. أراقب.. وكأنَّ شرفتي تلفاز ينقل لي أحداث مسلسل جديد.. كنت أراقب الشرفة وأنا أستعد للخروج من الفندق، فأنا اليوم على موعد مع سر جديد من أسرار إسطنبول.. موعد مع تركيَة.. كلِّ تركيَة.. هنا في إسطنبول.

مينيا ترك

بين أوَّل أثر عرفه التأريخ على الأراضي التركية.. وانتهاءً بآخر معلم أُسس في تركيَة، بين أوَّل أثر يواجهك وأنت تقترب من المشرق.. وانتهاءً بآخر أثر يضرب أطنابه باسم التركمان في أوروبة، بين أوَّل أثر يرتبط بالتديُّن في آسية.. وانتهاءً بآخر أثر يتصل إلى اليوم بالسماء.. حُشد هنا أكثر من (١٢٠) أثر، يحشد الأتراك.. بفكرة رئيس بلدية إسطنبول

السابق.. "رجب طيب أردوغان".. العالم التركماني كلَّه.. في مساحة (٢٠٠٠×١٥٠م) على ساحل القرن الذهبي.. في مواجهة "جامع أبو أيوب الأنصاري" من الضفة الأخرى.. أسموها "مينيا ترك".. أي تركيَة الصغرى.

تدخل بتذكرتك المغنطة.. لتقف على أعلى منصَّة.. تُشرف على ساحة كبرى.. حديقة غنَّاء.. توزَّعت فيها المعالم التركية والإسلامية على مدى النظر.. لا تُفكِّر في الوقت.. فأمامك أكثر من (٣) ساعات من المتعة.. يكفي أنْ تمرر بطاقتك على الجهاز أمام المعلم الصغير ليحدِّثك عن مكانه.. وبنائه.. وتاريخه.. بلغتك الأم أيًّا كانت، يكفي أنْ تقف لتشاهد منتهى الدِّقَّة في صياغة المباني.. بأدق التفاصيل.. حتَّى أنَّك.. وبعد لحظات من التدقيق تجد نفسك سافرت من "إسطنبول" إلى ذلك المكان.. أيًّا كان بُعده.

ستقف على معالم توغل في القِدَم إلى ما قبل التاريخ.. كمعبد أغسطس (بني سنة ١٠م)، وبقايا جبل النمرود (٨٠ ق.م.)، مسرح أنطاليا أسبيندوس (القرن ٥ ق.م.)، مذبح زيوس (١٩٧ق.م.)، ودير مريم (٣٨٥م)، ومعبد أرتميس (٣٣٤ق.م.)، ومكتبة إفيس جلسوس (١١٧ق.م.)، جسر أضنة الحجري (القرن الأول الميلادي).

وعلى آثار تعود للعهد السلجوقي.. وأخرى للعثماني.. كضريح جلال الدين الرومي "ضريح مولانا" (٦٧٣هـ)، (١٢٧٤م)، سليمية جامع (٩٧٦هـ)، (١٥٦٨م)، ضريح حاجي بيرم (٨٧٧هـ)، (١٤٧٢م)، مسجد السلطان علاء كايقوباد بأنطاليا (٦٢٨هـ)، (١٢٣٠م)، جسر ملا أبادي (٥٤٢هـ)، (١١٤٧م)، ضريح عاشق باشا (٧٢٢هـ)، (١٣٢٢م)، الجامع الأخضر.. ويولو جامع ببورصة (٨٠٢هـ)، (١٣٩٩م)، ضريح أرطغرل غازي (القرن ١٤م)، حاج بكداش ولي جامع (القرن ١٤م)، جامع عيسى بيك السلجوقي (٧٧٧هـ)، (١٣٧٥م)، مسجد خليل الله إبراهيم (٥٩٧هـ)، (١٢٠٠م).

كما سترى آثارًا حديثة الطراز.. كجسر البوسفور الأول.. وضريح أتاتورك.. وساحة الاستقلال.. ونصب الشهداء.. ومنازل سفران بولو، مبنى البرلمان، متحف البنك الزراعي.

ذلك عدا آثار إسطنبول الشهيرة.. قديمها وحديثها.. مع مجموعة من أشهر المعالم الإسلامية.. على رأسها المسجد الأقصى.. وقبَّة الصخرة.. جامع محمد علي بالقلعة في القاهرة، البوابة الشامية بالقدس الشريف، قلعة أجياد التي أزيلت في مكة المكرمة أوائل (١٤٢٠هـ)، (٢٠٠٠م)، ضريح السلطان مراد الأول شهيد معركة كوسوفو، وجسر موستار، ومحطات القطار الشهيرة لخط الحجاز.. بدأً من حيدر باشا.. مرورًا بمحطة الشام.. وانتهاءً بمحطة المدينة المنورة.

ستحسُّ وأنت تستمع للشروح حول الآثار أنَّك تزورها فعلا.. ستلمس في نفسك عزَّةً وترى في روحك شموخًا، هذه الآثار التي خلَّفها العظماء.. شواهد صغيرة.. هي في الأصل هناك.. وراء البحار.. أو الجبال شاخصة.. لا تراها الآن.. إلاَّ أنَّها شاهد لا يزال على عظمة أولئك الأقوام الذين عرفوا كيف يخلِّدون في التأريخ أسماءهم.

متحف بانوراما ١٤٥٣م

خرجت من "مينيا ترك" أحمل في روحي زهوًا تاريخيًّا يكاد يطير بي.. وبحكم كون المكان من توابع وزارة السياحة فقد توصَّلت إلى دعاية لمتحف جديد.. متحف يحمل تاريخًا عزيزًا علي: تاريخ الفتح الكبير.. اسم المتحف "بانوراما (١٤٥٣م)".

بني هذا المبنى خلال العامين المنصرمين.. وهو عبارة عن قبَّة لها مدخل من سرداب المبنى.. المبنى مكون من طابق أرضي.. وطابقين تحت الأرض.. يبدأ العمل لتجهيزك فيه منذ تخطِّيك الباب.. لوحات تعرض لك قصَّة الأمير.. الجيش.. السلاح.. الفتح.. ما قبل الفتح.. الأباطرة.. القسس والرهبان.. المدينة.. المخاطبات.. التجهيزات.. التعاليم.. لتنزل إلى الدور الثاني فتتهيأ لمقابلة الفاتح.. سيفه.. أقلامه.. مؤلَّفاته وكتبه.. مخاطبات الشيخ آق شمس الدين له يوم الفتح، دفاتره.. مصاحفه.. لتقف أمام باب صغير مظلم.. له مُؤَدًّى إلى سُلَّم لولبي.. تسمع من أعلاه ضرب المدافع..

واحتدام الحرب.. تصعد وأنت تخفض رأسك خشية أنْ يرتطم بقذيفة.. ترى السماء فوقك ملبَّدة.. الأفق.. الأشجار.. تخرج على منصٍّ.. لترى الفاتح العظيم على حصانه.. وحوله جنوده.. علماؤه.. وزراؤه.. قادته.. وحرسه.. خلفه "المهترباش" تعزف للحرب.. عن يمينك جنود بعضهم سقط جريحا.. وبعضهم يقاتل.. وبعضهم يهجم.. سور القسطنطينية المتهالك أمام الفاتحين هنا.. الماء المغلي يُسكب على المجاهدين الذين يتسلَّقون السور.. الأرض تدور.. أمامك المدفع السلطاني الذي انفجر في المعمار أوربان، ذلك أحد الأربعة عشر مدفعًا التي جلبت النصر.. وخلبت الأعداء.. المدافع الصغيرة التي كانت تقذف للأعلى.. السيوف.. أسلحة المعركة.. أنت الذي تدور فوق الأرض.. لتعود لوجه الفاتح الواثق من النصر... وما النصر إلاَّ من عند الله.

نسيت أنْ أخبرك.. أنَّ متحف بانوراما هو الوحيد من نوعه في العالم.. فهو عبارة عن قبَّة داخلية.. تخرج لها من قاع مركزها.. تحمل على حوائطها صورة كاملة (٣٦٠ درجة) ليوم الفتح.. عُمِلَتْ بدراسة دقيقة.. للجو.. الوقت من السنة.. الملابس.. الجنود.. الوظائف.. ولباس كل وظيفة.. الأعمال.. والفاتح.. صورة متكاملة (١٠٠٪) لولا خطأ واحد أبسط من البسيط.. يكاد لا يُذكر أمام عَظَمَةِ المُتحف.. ذلك أنَّ الخنجر المتموضع على وَسط الفاتح هو الخنجر الذي صيغ في عهد السلطان محمود الأول وأهدي إلى نادر شاه.. أي فيما بعد (١١٤٢هـ)،

(١٧٣٠م).. والمتحف يتكلَّم عن يوم الثلاثاء (١٤٥٣/٥/١م) أي أنَّ هناك (٢٧٧) عاما بينهما.

إلاَّ أنَّ القاعة البانورامية تخلب الألباب.. المؤثرات الصوتيَّة حقيقية.. ستدور في المتحف أخرى.. لترى الجندي الذي يلوِّح بالعلم فوق البرج الأول من الأبراج السبعة الذي سقط في يد العثمانيين.. تراه.. فترى الفاتح يشير إليه.. وترى النبال البيزنطية تتناوشه.. فتراه.. يخرُّ على ركبتيه.. بعنادٍ يحاول الوقوف.. يرفع الراية الخضراء.. يلوِّح بها عالية.. مزيد من السهام.. يركزها.. وينسحب نازلاً على صاريتها.. ليضمَّ طرفها السفلي.. فتفيض روحه ككومة رملٍ تثبِّت الراية إلى الأبد... لا تزال رايةٌ تنتصب على ذلك البرج.. ستراها حين تغادر المتحف باتجاه المدينة.. تخفق رمزًا لتضحية ذلك البطل الينيشاري.... "فلنعم الجيش ذلك الجيش".

بعد أنْ تطيل الوقوف هنا.. ستنزل وأنت تمتلئ زهوًا وفرحًا.. تمتلئ غبطةً وسرورًا.. من أنت؟! من أنا؟! نحن من قومٍ منهم الفاتح.. إنَّ جندًا بينهم ذلك البطل الذي ركز الراية قدَّموا لنا –نحن أحفادهم- أروع مثل.. وأروع تضحية.. إنَّ جيشًا يسير ببركة دعاء الشيخ آق شمس الدين.. جيش ننتمي له مع فارق التوقيت.. جيش لا نزال إلى اليوم نلمسه.. نتحسسه عزَّةً في أيامٍ فقدنا فيها أبسط معاني العزَّة.. الله على أيامك يا فاتح.. الله على زمن يتغنَّى بتراتيلك يا شمس الدين.. ألا ليت الزمان يعود...

الآن أصبح لا بد من زيارة قلعة الفاتح.. المسافة طويلة من المتحف في الجانب الأوروبي.. من خلف جامع أبي أيوب الأنصاري.. إلى آخر "أورطاكوي".. إلى قرب جسر فاتح سلطان.. الواصل بين القارتين.. إلاَّ أنني زرتها.. استنشقت عبير الأيام الأخيرة قبل الفتح..

على تلَّة بمساحة (٢٠٠×٨٠م) أقام الفاتح في الجزء الذي يقع تحت سيطرته من أوروبة قلعته.. ارتفع بالأسوار قرابة (٤٠م)، أمَّا الأبراج.. فالثلاثة الرئيسة يرتفع كل واحد منها قرابة (٦٠م) إلاَّ أنَّ اثنين منها يقعان على رابية.. فيرتفع الأعلى منها قرابة (٩٠م) عن سطح البحر.. بينما يكتفي الآخر بـ(٧٥م)، ويصل قطر الواحد منهم (٢٥م) تقريبًا، وللقلعة (١٣) برجًا آخرَ، منها (٢) مربعان.. والبقيَّة مدورة يصل قطر الواحد منها إلى (١٠م) تقريبًا.

وليس في القلعة الكثير من المباني، باستثناء ساحة الاجتماعات التي يقع المطبخ تحتها.. وقد كانت تصنع المدافع في هذه القلعة.. وتذكر اللوحة التعريفية أنَّ المدفع السلطاني بُني في هذه القلعة.

لم تكن هذه القلعة العسكرية مركز عمليات الفاتح قبيل الفتح فحسب، بل يذكر المؤرِّخون أنَّ أبراج القلعة قدَّمت تقريرًا وافيًا عن

أسوار القسطنطينية.. جنودها.. السفن الداخلة إلى القرن الذهبي.. التجاري والحربي.. عدا معلومات أخرى كثيرة.. لا أخفيكم أنَّني حاولت أنْ أكشف إسطنبول القديمة من على برج القلعة.. ففصلت بيني وبينها المباني.. ولم أكن أمتلك مكبِّرًا عسكريًا.. لا بدائيًّا كالذي كان لديهم.. ولا متطوِّرًا.

أزفت الساعة على الرابعة مساءً.. وتنادى "حُرَّاسُ" القلعة لإغلاقها.. تمشيت مع جموع الخارجين منها.. لم تكن هذه القلعة عادية.. إنَّها قلعة الفاتح.. من هنا صُنع الفتح.. من هنا نُصب المدفع السلطاني.. وها هي اليوم تقف أطلالا.. يزورها المتفرجون بعد أنْ كانت تحرِّك العسكر فيما مضى.

لقد أشرفت الشمس على الأفول.. يجب أنْ أبحث لي عن مكان أستطيع منه أنْ أُغيِّب الشمس.. هذه المرة لا أريد أنْ أبتعد كثيرًا.. هذه المرة سأكون في الجانب الأوروبي.. في المكان الشبيه بتل العرائس في القسم الأوروبي من إسطنبول.. "ألوص بارك".

ألوص بارك

وصلت قبيل المغيب إلى "ألوص بارك".. ضع إسطنبول أمام عيني.. ثم سلني.. أعطك ما تشاء، اترك لذهنك العنان.. سترسل عينك نظراتها

الهائمة في الأفق.. وستبدأ في تصفية نفسك.. روحك.. أفكارك.. إنَّك تقف على مكان جديد.. إنَّك تقف على طرف إسطنبول.. لتستوعب كلَّ إسطنبول.. لا يقل المنظر روعة عن "تل العرائس"، أو المقهى في فندق الكونراد.. تشعر وأنت في منتزه "ألوص بارك" بأنَّك تستطيع أنْ تضع يدك على كلِّ إسطنبول.. راحة يدك.. انتبه.. فالناس حولك يراقبون حركتك اللاشعورية وأنت ترفع ذراعك.. وتحاول أنْ تضع راحتك على كامل المدينة.. كم كنت متشوِّقًا للمنظر العام للمدينة.. إنَّني أستحق أنْ أكافئَ نفسي بهذا المنظر.

تقع "ألوص بارك" على طرف رابية.. تشرف على منظر للبوسفور مقابل لمنظر "تل العرائس" من الجانب الأوروبي، وهو عبارة عن حديقة (سُلَّميَّةٍ) تبدأ من حيث أقف نزولا بالسلالم الحجرية إلى آخر الحديقة بالأسفل.. أطراف السلالم امتداد لغابة أشبه ما تكون بالطبيعية.. ستجد نفسك وبدافع الفضول والرغبة تتجه نزولا مع السلالم.

سلكت طريقي نزولا.. إنك تقف على ربوة من أعلى ربوات إسطنبول في الجانب الأوروبي.. تكشف جسر "البوسفور".. القصور على الجانب الآسيوي.. تقف على أعلى منحدر.. ستسلك السلالم المكونة من أحجار المنحدر.. لتصل إلى وسطه.. حيث تنهمر مياه شلاَّل تنبع من أعلى الرابية.. مُشَكِّلة بحيرة.. أحيطت بسهل منبسط.. جميل.. مفروش بأخضر لون الطبيعة.. ستقف هناك... سيسحرك الجمال.. إلاَّ أنَّ الفضول يناديك

لتكمل النزول.. ستنزل لترى حديقة صغيرة بها بعض الألعاب.. الآلات الرياضية.. ستتقلَّب ماشيًا فيها.. ثمَّ ستعود.. إنَّ رحيل الشمس أزف، وأنا لا أحب أنْ أفوِّت حفل المغيب.

عدت إلى مقهى يقع أعلى الرابية.. جلست على بَلَكُوْنِهِ.. وبدأت أراقب المهرجان الأحمر ذي الزرقة المسائية.. هذه المرة أجلس في الشرفة الغربية للبوسفور.. المسرح يكاد يغص بالممثلين.. أولئك القاطعون على الجسر من آسية إلى أوروبة وبالعكس.. وكأنَّ كلَّ واحد منهم يمسك مصباحًا ويجري على الجسر.. البيوت.. القصور.. والشوارع.. تُبَدِّل ثوبها الصباحي الأبيض بآخر مسائي مطرِّز بالأنوار.. البوسفور يفرش الظلمة على متنه فترى انعكاس السماء عليه.. وانعكاس العابرين.. سحر لا ينتهي.

اليوم الثامن: آخر أيّام المجد

مَن الذي كان يناديني منذ أوَّل يومٍ وَطِئت فيه قدمي إسطنبول وكنت أتجاهله؟! من الذي أراه شاخصًا في تطبيق فكر والده التجديدي.. فأسبُّ اللحظة التي دفع ثمنها طُرٌّ من تلاه من السلاطين؟! من تلك الشخصية الزمهريرية التي عاشت أواخر أيَّام المجد.. وافْتُضِحَ ضعف الدولة بمستهل عهده؟! في كلِّ يومٍ أمر على مَعْلَمِهِ الباذخ.. أرى كلَّ محاولاته في خلق هيبة له، فُقِدَتْ مع إنزال سلفه للعمَّة.. أرى أموال الدول المُقْرِضَةِ.. وقُروض صيارفة "غَلَطَة".. فِعلا.. إنَّها غَلْطَة.. اليوم فتحت عيني.. كان صباح إسطنبول يبعث على البهجة.. (بهجة) رأيت خيالا شاحبًا لرجل لا أعلم من هو.. أعرفه ولا أعرفه.. كان لطوله الفارع.. وتناسق جسمه النحيل نوعًا ما.. ولبدلته العسكرية الزرقاء الداكنة.. وردائه الأزرق ذي البطانة الحمراء.. والنياشين على صدره.. والعُرف الريشي على مُقدِّمة طربوشه.. منظرًا مألوفًا... أعرفه.. ولا أعرفه..

صحوت من نومي لأتبع طيفًا، خرجت من الفندق في أثر عربته ذات الخيول.. في كلِّ لحظة كان يلتفت ليطمئنَّ أنَّني أتبعه.. وأنا أتبعه.. أرى زهوه بما لا يملك.. أرى الذهب المتصلِّب على عربته.. أعرفه.. ولا أعرفه..

تنعطف عربته على طرقات كانت هنا قديما.. اليوم أصبحت شوارع أكثر اتساعًا.. إلاَّ أنَّ عربته تمشي وكأنَّها تمشي في طريقها الضيق القديم، الذي لم يكن يتسع لأكثر من عربتين متجاورتين.. يلتفت مبتسما وكأنَّ تلبيتي لرجائه أراحته.. أبتذل ابتسامة لأرد له ابتسامته.. فأنا.. أعرفه.. ولا أعرفه..

مألوفٌ الطريق الذي تسير فيه العربة.. عَبَرت من تحت بوابة تْشِيران.. وانطلقَتْ تحثُّ الخُطَا على الطريق.. لم تكن عربةً عادية.. فخشبها من الماهوجني الأسود الخالص.. بينما كانت كلُّ حُليها من الذهب الخالص.. ويقولون إنَّ السلطان أحمد الأول كان مولعا بالذهب!! عمومًا.. على أبواب هذه العربة عُلِّق شعار الدولة العثمانية بالذهب.. وعلى ظهرها عُلِّق ختم السلطان.. لا يبين لي الاسم.. فأنا أعرفه.. ولا أعرفه..

تخطَّت العربة الطريق بقرب بربروسا.. وانطلقت في طريق مفتوحة.. حتَّى وصلت إلى مدخل القصر.. توقَّفت أمام البوابة ليتأكَّد راكبها أنَّني

وصلت.. الشعار على بوابة القصر مطابق للشعار على ظهر العربة.. ابتسم أخرى.. الآن أصبحت أعرفه.. إنَّه السلطان عبد المجيد الأول.. والقصر: هو "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي"، وليس أمامي إلاَّ أنْ أزوره بعد أنْ كنت أتجاهله طوال فترة مكوثي بإسطنبول.

وقفة قبل الدخول..

أنا ضد المقولة التي يرددها عميد القلم توفيق الحكيم: "وراء كل مصيبة فتِّش عن المرأة".. إلاَّ أنَّها.. وفي هذا المكان تكاد تكون حقيقة.. وراء سقوط العثمانيين فتِّش عن المرأة.. والمرأة هنا هي امرأتان: الأولى الوالدة سلطان "نقشديل سلطان" أو (إيمي دوبوك دي ريفيري) أمُّ السلطان محمود الثاني.. والثانية هي ابنتُها الروحية الوالدة سلطان "بيزمي عالم".. والدة السلطان عبد المجيد الأول.. وزوجة ابنها السلطان محمود الثاني.

فالأولى هي الرَّحم الحاضن لعملية التغريب التي زُرعت في ذهن السلطان محمود.. وهي التي تولت تبديل شكله من الداخل قبل الخارج.. وهي التي تولَّت تربية حفيدها عبد المجيد عن طريق المربيات الفرنسيات اللواتي استقطبتهن بعد أنْ أصبحت الوالدة سلطان.

أمَّا الثانية.. فهي المُختارة من قِبل الأولى لتكون زوجة ابنها محمود.. وهي التي اعتنت بأنْ يكون ابنها عبد المجيد غربي الطراز.. وهي التي

كانت (مع جدَّته) المستشارتان الأوليان في (تغريب) شؤون الدولة.. وهما من كانا وراء (مباركة) البدء في إنشاء "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي" في الوقت الذي تُقْبِلُ فيه الدولة على الحرب.

ما هو "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي"؟ أيهمك أنْ تعرف؟ اسمع إذًا: لا يكذب من يقول إنَّ هذا القصر هو سبب سقوط الدولة.. لا يكذب من يقول إنَّ أيَّام السلطان عبد المجيد الأول.. والسلطان عبد العزيز خان جرفت الدولة إلى هاوية السقوط بسرعة كبيرة.. فما يحتاج إلى قرون حدث كلمح البصر في سنين.. ولولاها لكان العثمانيون اليوم قوة لا يستهان بها.

تْشِيران سراي.. برغم البذخ الذي كان عليه يكون متواضعا عند هذا القصر.. أعتقد أنَّ ما صُرف في كل القصور العثمانية مجتمعة.. منذ عهد الفاتح إلى يوم السقوط.. صرف مثله في هذا القصر.. يكفي أنْ تعلم أنَّ سبب خسارة العثمانيين أمام الروس أيام عبد المجيد كان بسبب تعمير هذا القصر... هذا هو "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي".

إنَّه الفهم السقيم للفخامة والرهبة.. الفهم الذي لم تعرفه عمامة سلطانية عثمانية.. ولم يسلم منه طربوش سلطاني.. فَهْمٌ لم يحتج إليه ذوو العباءات والقفاطين.. ودمَّر ذوي البِدَلِ والأردية، هو السبب في هذا الطيش.. هو السبب في أنْ يلجأ السلاطين من آل عثمان إلى البذخ في بناء

القصور.. وتعليق (١٤) طنًا من الذهب في قصر واحد، عدا ما صرف في البناء، في الوقت الذي تقبل الدولة فيه على حرب مع روسية القيصرية.. خسرتها بالطبع بسبب هذا البذخ.. هذا هو "طُوْلْمَا بَاغْجَة"..

أنا أقف الآن أمام برج الساعة.. خلفي المسجد.. وعن يميني البوسفور.. وأمامي بوابة السراي.. هذا قصرك يا عبد المجيد.. هذا أنت.. إنَّ الرهبة التي اجتاحتني أمام بوابة طوبقابي البسيطة لا أجد منها شيئًا هنا أمام "بارُوْخِيَّةِ" أبوابك.. حتى لو قارنت بين الاسمين.. تجد طوبقابي سراي.. أو يني سراي.. ويعني الاسم الأول قصر بوابة المدفع.. والثاني القصر الجديد، وتجد طُوْلْمَا بَاغْجَة.. حديقة النافورة.. أو الحديقة المكتظَّة.. أيًا كان المعنى.. في آخر الأمر تجد هيبة الأول.. وسخافة الثاني.. لم أجد رهبة في المكان.. ما قيمة المباني إنْ لم تصنعها رهبة الأشخاص، كان السلطان الضامر في مصلاه في مقصورة الأمانات المقدسة بطوبقابي أكثر رهبة وهيبة وهو يشير إلى ينيشاريَّته بالهجوم.. مِنْ ذلك الذي يقف خلف أكثر من ست قاعات بروتوكوليَّة ليستقبل سفيرًا أو يصدر قرارًا.. كان ذو العمامة الذي يفرد طوله في قاعة الصلاة بمسجد أبي أيوب الأنصاري ليصلي ركعتي الخلافة بعد تنصيبه أعظم وأهيَبَ من ذلك الذي يحشد أكثر من (٢٠٠٠٠) في قاعة "معايدة" صبيحة التنصيب.. شتَّان بين الرجلين.. وشتان بين الدولتين.. ولو أنَّ الاسم واحد.

"طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي"

حديقة الشاطئ.. أو حديقة النافورة.. أو الحديقة المكتظة.. أيًا كان اسمها فهي أسماء مخملية لا تنم عن الهيبة والعظمة.. هكذا كان اسم هذا القصر الذي بدا فكرة في خيال الأمير عبد المجيد ولي عهد السلطان محمود الثاني، والذي شرع في تنفيذه بمجرد استلامه السلطنة، وكان يحضر شخصيًا وبشكل شبه يومي ليتابع سير العمل فيه.

قصر على الجانب الأوروبي من إسطنبول.. وعلى الطراز الأوروبي الدَّخيل على المشرق عمومًا.. وعلى حضارة هذه المدينة على وجه الخصوص، باروخي.. روكوكي.. فيكتوري.. وكلاسيكي حديث.. جمع كلَّ أنماط بناة القصور في أوروبة في مبنى واحد.. ونسي أنْ يلبس من هويته، استغرق بناؤه (١٣) سنة.. بدأ في (١٢٥٨هـ)، (١٨٤٣م) وانتهى في (١٢٧٣هـ)، (١٨٥٧م)، ليصبح قصر السلاطين السبعة الأخيرين.. لمدة قاربت الخمسين عامًا.. إذا استثنينا الفترة التي انتقل فيها السلطان عبد الحميد الثاني إلى "يلدز" ما بين (١٣٠٦- ١٣٢٦هـ)، (١٨٨٩- ١٩٠٩م)، والأشهر القليلة لعبد العزيز في "تْشِيران".

"طُوْلْمَا بَاغْجَة" التاريخ

حتَّى هذه اللحظة أنا أحدثك على روح القصر.. ولم أدخل في صلبه.. فعلى (١١٠٠٠٠م٢) يمتد على ساحل البوسفور.. بامتداد (١٠٠٠م) تقريبًا وبأعماق متفاوتة بين (٥٠م) و(٢٠٠م) تقوم مرافق القصر، ويحتل المبنى الرئيس للقصر ما مساحته (٤٥٠٠٠م٢)، مما جعله القصر الأكبر في تركيَة.

كان فيما سبق تقوم هنا بين أشجار غابة باشكطاش العالية مجموعة من العوامات، يشمخ بينها قصر يسمى "بِيْشِيْكطاش سراي".. وكلمة بِيْشِيْكطاش كلمة من شقين الأول "بِيْشِيْك" وتعني المهد، و"طاش" وتعني الحجر.. فيكون اسم المنطقة هو مهد الحجر.

كانت منطقة بِيْشِيْكطاش الساحلية هي الميناء العسكري الرئيس للدولة العثمانية.. وكانت المنطقة عبارة عن مرفأ.. وحوض جاف.. ومع مرور الزمن.. وبسبب ترسبات طمي الأنهار التي تنقلها الأمواج إلى هنا ؛ أصبح الميناء ضحلاً.. وذا قاع طينية.. فتم إلغاؤه، واستبدل بآخر في الجهة المقابلة من البر الآسيوي.. في منطقة برج الأميرة.. والتي لا تزال إلى اليوم ميناءً للمدينة.

في ذلك المكان المهجور.. ولقربه من شاليهات.. ومنتجعات.. وقصور الأمراء والوزراء أقام السلطان أحمد الثالث عوامة.. أو "يالي" خشبي له، كان يستخدمه هو ومن تلاه من السلاطين للإراحة، وبعد أربعة سلاطين جاء حفيده السلطان سليم الثالث فابتنى قصرًا خشبيًا مكان العوامة الخاصة بجده.

"بِيْشِيْكطاش سراي"، هو قصر خشبي أعاد تعميره السلطان سليم الثالث بن مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث، وأصبح توأمًا إداريًا لطوبقابي سراي، إذ كان فيه يستقبل السفراء، ويستلم السفارات الخارجية، إلاَّ أنَّ نظام الدولة الإداري كان في طوبقابي.. وكان يرتحل السلطان سليم الثالث إلى "بِيْشِيْكطاش سراي" عن طريق البحر.. ويُكثر النزول فيه، واتخذه ابن عمه السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث، منطلقًا لحركة التغريب العمرانية.. لكونه يقع في المناطق المستحدثة من إسطنبول،وكونه يقع في مناطق قصور الأمراء، ومنتجعاتهم، عدا أنَّ طوبقابي سراي أصبح في وسط المدينة القديمة.. و"بِيْشِيْكطاش سراي" هو الأفضل بعد طوبقابي.

ولما انتهى عصر محمود عدلي.. واعتلى العرش السلطان عبد المجيد الأول.. بدأ في طرح فكرة كانت راودته كثيرًا في بناء قصر يبُزُّ قصور أوروبة التي أصبحت دولته تستقطب منها كل شيء، فشجَّعت أمُّه الوالدة سلطان "بيزمي عالم" ذلك، ودعمته جدَّته الوالدة سلطان السابقة

"نقشديل سلطان" في الأمر، إذ أنَّها - وهي ابنة دوق الريفيرا- تعرف ما تصنعه القصور من هيبة لمن يسكنها دون أنْ يلتفتا إلى كون الدولة في تلك الفترة بدأت تمر بأزمة مالية.. وأنَّها على وجه توتر علاقات مع روسية.

وفعلا.. كلَّف السلطان كبير معمارييه الحاج سعيد آغا بإزالة "بِيْشِيْكطاش سراي" والمنطقة الحكومية المحيطة به.. والتي شملت مقابر مهجورة.. وبعض الأبنية القديمة للميناء المزال.. وبعض الشاليهات الخاصة بأفراد بيت الحكم.. ثمَّ أوكل إليه أعمال إعمار القصر الجديد الذي وضع تصميمه المعمار الأرمني "جرابيت بليان"، والذي زار خلال حياته الكثير والكثير من المدن والقلاع والقصور الأوروبية.. فكان من السهل عليه أنْ يصنع تصميمًا جديدًا مستقىً من الأنماط الأوروبية التي كانت منتشرة في تلك الفترة من القرن (١٨م)، وبدأ البناء متزامنًا مع الإزالة.

وخلال فترة الإنشاء الممتدَّة على (١٣) سنة كان السلطان ينزل في عبارته.. ويرتحل إلى بِيْشِيْكطاش ليتابع سير العمل في القصر بنفسه.. وكان يخلبه منظر اكتظاظ الغابة في بِيْشِيْكطاش.. لذا فقد أسمى السراي الجديد "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي".. أي الغابة المكتظَّة.

وبدأ "بليان" يبتكر خلال البناء أمورًا تجعل من هذا القصر كاسرًا لفخامة كل القصور الأوروبية، وبدأ يستنفد الذهب الحر في البناء

والديكور، حتى استنفذت خزينة الدولة، فاضطر السلطان للاقتراض من صيارفة "غَلَطَة"، ثمَّ تقديم امتيازات للدول الغربية مقابل دفع الأموال.. ثمَّ الاقتراض من تلك الدول.. في الفترة التي كانت فيها روسية تعد العدَّة للحرب مع الدولة العثمانية التي كانت خرجت للتو وقبل سنتين من حرب خاسرة شنَّها عليها واليها على مصر "محمد علي باشا"(١٣٠)، وكاد فيها أنْ يستولي على الخلافة، ويكتسح إسطنبول.. ويقال إنَّ السلطان محمود الثاني مات بعدها بقهره لأنَّ أحد ولاته استطاع أنْ يكسر الجيش الحديث الذي بناه على أنقاض الينيشارية.

وبرغم الديون التي تكبَّدتها الدولة لبناء القصر لم يصرف عبد المجيد في إعادة تأهيل الجيش دينارًا واحدًا.. في الفترة التي كانت فيها روسية تستعد للحرب مع العثمانيين بسبب إلغاء معاهدة "خونكار أسكه سي"(١٣١).. واندلعت بعدها حرب القرم (١٢٦٩- ١٢٧٢هـ)(١٣٢).. مما جعل الموقف العثماني ضعيفا وخاذلاً لولا خوف القوات الأوروبية على مصالحها.. ولولا الدعم من جيش محمد سعيد باشا(١٣٣) والي مصر إذ ذاك.

ومما يقال إنَّ "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي" كان جاهزًا لسكنى السلطان بُعيد اندلاع الحرب في (١٢٦٩هـ)، (١٨٥٣م)، إلاَّ أنَّ السلطان ظل في طوبقابي خمس سنين، خوفًا من موقع "طُوْلْمَا بَاغْجَة" المكشوف.. وبسبب تذمُّر الشعب من كونه "أسرفَ" خزينة الدولة في بناء قصره الجديد

دون الاستعداد للحرب، وظل القصر خاليا حتى انتهاء الحرب في (١٢٧٣هـ)، (١٨٥٧م).

ومن المعلوم أنَّ أوَّل حدث دَشَّن نزول السلطان عبد المجيد الأول في "طُوْلْمَا بَاغْجَة" كان حفل استقبال المهنئين بالانتصار في حرب القرم.. والذي كان في قاعة "معايدة"، واستقر بعدها في "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي" ليصبح الباب العالي.

مسكين هذا القصر "المنيف".. خمس سنين ينتظر ساكنه في خوف من الحرب.. وبعدها بقرابة (٣٠) عاما يُخلى مرة أخرى لقرابة (٢٠) سنة، خوفًا من حرب الروس أيضًا.. يا للسخرية.

لم يُعمِّر عبد المجيد في القصر إلاَّ خمس سنوات.. ليرحل ابن الأربعين (خريفًا) ويعتلى العرش أخوه السلطان عبد العزيز خان.. الذي ينتقل إلى "تْشِيران سراي" لأشهُرٍ.. ثمَّ يعود إلى هذا القصر.. ليُخلع، ويأتي ابن أخيه السلطان مراد.. ثمَّ يُخلع، ويعتلي العرش السلطان عبد الحميد الثاني.. الذي ينتقل إلى يلدز خوفًا من الهجوم الروسي على القصر.. ويُخلع، ليسد العرش أخوه السلطان محمد رشاد الخامس الذي يعود إلى "طُوْلْمَا بَاغْجَة سراي" ويموت، ليؤول الأمر لأخيه السلطان محمد وحيد الدين السادس.. الذي يُخلع، ويُغادر بعد أنْ تُلغى الخلافة.. ويصبح المنصب الذي شغله السلطان الأخير عبد المجيد أفندي في

إسطنبول - في هذا القصر- شرفيًا، حتى تلغى الدولة التركية وتقوم الجمهورية التركية.. فيتحول "طُوْلْمَا بَاغْجَة" إلى قصر صيفي للرئيس أتاتورك.. كان يحن إليه.. ويأتيه كثيرًا.. حتَّى أنَّه قرر أنْ يعيش به أواخر أيامه.. ويلفظ أنفاسه هنا عام (١٣٥٦هـ)، (١٩٣٨م).. ثمَّ يضمحلُّ في التاريخ.. ويصبح آثارًا تشير إلى ماضٍ لا أكثر، مُتحفًا.. بعد أنْ كان ملء السمع والبصر.

"طُوْلْمَا بَاغْجَة" المبنى

إذا صح أنْ نسمي طوبقابي بقصر المرمر الإزنيكي، والبورسلان العثماني المزخرف، فيجب أنْ يسمى "طُوْلْمَا بَاغْجَة" بقصر الذهب والكريستال، ذلك سبب منع السوَّاح من التجول فيه من غير مرافقة من العاملين في القصر.

يتكون القصر من ثلاثة أجزاء رئيسة: "المابِيْن الهاميوني" أو "السلاملك" وهي منطقة القصر الإدارية، والتي تدار فيها شؤون الدولة، ويدخلها الرجال، ثمَّ (موآيديه صالون) أو معايدة صالون ومعناها قاعة التهنئة، ثمَّ "الحريم الهاميوني" أو "الحرملك"، وفي القصر أكثر من (٢٨٥) غرفة، و(٤٦) قاعة، و(٦) حمامات استحمام، و(٦٨) دورة مياه.

دخلت من البوابة الكبرى للقصر.. تخطَّيت الحديقة الباهرة الملوَّنة بالأزهار.. والتي ترتكز فيها نافورة من كبريات نوافير إسطنبول.. تخطَّيتها.. متذوقًا "مرارة" جمالها، كاد هذا القصر أنْ يكون تحفة لولا الجزء الأسود من تاريخه.. طفت بالأُسُوْدِ الحَجَرِيَّةِ المتربِّعة في الحديقة تفترسُ التماسيح.. ووصلت أسفل باب المدخل.. خلف هذا الباب يبدأ البروتوكول السلطاني.

إنَّ شكل القصر الطولي جعل له ميزة تناظرية.. فكلٌّ واجهة بحريَّة منه يقابلها (في الأغلب) نظير ذو واجهة برِّية بقاعاته وغرفه.. تستخدَم غرف الواجهة البحرية من قِبل السلطان وأفراد الأسرة الحاكمة.. بينما تُستخدم البريُّة من قِبل الموظفين الإداريين والحكوميين في الدولة والقصر، كمستشار القصر، وشيخ الإسلام، ورئيسَي مجلس "المبعوثان"[١٣٤].. ومجلس الأعيان.

لساحة القصر (٩) بوابات رئيسة.. (٤) منها برية (١)"خزانة قابي"، و(٢)"سلطنة قابي"، و(٣)"كوتشِلوك قابي" وتعني باب العرش، و(٤)"والدة قابي" والذي يؤدِّي إلى قصر الوالدة سلطان، والبقية بحرية، وهي (١)بوابة البوسفور، (٢)بوابة ميناء الوزير.. المقابلة لبوابة السلطنة، (٣)بوابة البحر المقابلة لمعايدة صالون، (٤)بوابة بنديجان، (٥)بوابة الحريم.

ويعد باب الخزانة الباب الرئيس منها، وهو الذي يقع بالضبط قبالة برج الساعة وطُوْلْمَا بَاغْجَة جامع.. ويواجه بالضبط بوابة مدخل صالون، وهو الذي يستخدم اليوم لدخول الزوار، وسمي بباب الخزينة لكون مرافق خزينة الدولة تقع بينه وبين مباني القصر.. وبالقرب من المدخل الرئيس للقصر يقع باب السلطنة، وهو الذي يؤدي مباشرة من "طُوْلْمَا بَاغْجَة قادسي" أو شارع طُوْلْمَا بَاغْجَة إلى أمام المدخل الرئيس للقصر.. وهو الذي كان يدخل منه السلطان إلى القصر.. ويشبه بشكل كبير باب الخزينة، وللبوابتين شكل باروخي يتفق مع شكل القصر، ويرتفع بناء كل منهما (١٢م) تقريبًا، بينما يشكل المدخل قوس يرتفع قرابة (٦م) تقريبًا، أمَّا بالنسبة للبوابتين البريتين الأخريين فهما أصغر بكثير من هاتين البوابتين، وتكادان تكونان أبوابًا جانبية للقصر.. تؤدي الأولى منهما إلى ممر طويل يصل إلى قرب قاعة المعايدة، ولذا فهي تسمى "بوابة العرش"، بينما تُوْصِلُ الأخرى إلى قصر الوالدة سلطان الذي يقع وراء الحرملك، وتسمى "بوابة الوالدة". أمَّا البوابات البحرية، فهي عبارة عن بوابات حديدية تحمل نفس الروح التي تراها على البوابات الخارجية من تعشيق باروخي، يوصل إليها عن طريق البحر، وقديما كانت تصل إليها الزوارق والعبَّارات من سواحل إسطنبول الأخرى.

مدخل صالون

لم يكن اليوم جزءًا من زمن قديم.. لم يكن التاريخ فيه قد عاد إلى أواخر القرن (١٩م).. ولكنَّ إحساسًا كان يراودني وأنا أقف أسفل سلالم المدخل أنَّ خلف الباب الذي أمامي عمقًا من التاريخ.. كنت - بين لحظة وأخرى- أضع يدي على رأسي لأتأكَّد من أنَّني فعلا لا ألبس طربوشًا.. صعدت السلم.. وفي داخلي إحساسٌ أنَّني على مشارف التاريخ.. فكما عرض لي الأساطينَ قصرُ طوبقابي، سأرى جديد السلاطين في "طُوْلْمَا بَاغْجَة".

فُتح الباب.. قاعة رخامية الأرضية.. مساحتها (٤٠×٣٠) تقريبًا.. غطيت بأرضية خشبية داكنة اللون.. وفرشت عليها سجادة حمراء.. وعلى جدرانها عُلِّقت ستائر نسيجية تحجب النوافذ الطويلة من الواجهتين البرية والبحرية.. معظم المنسوجات.. والأقمشة التي تغطي الأثاث.. والستائر.. والسجاد في الأرضيات هي من السجاد الحريري الهريكي المشهور، والذي كان يصنع في إزميت.. وهي من أفخر وأجود المنسوجات على مستوى العالم.

في آخر القاعة ثلاث أبواب مقوسة من الأعلى، زجاجية، ذات أطر خشبية، تؤدِّي إلى سلَّم للدور الثاني.. وعن يمين الأبواب ويسارها أبواب خشبية تؤدِّي إلى غرف أخرى، وعلى مقربة من الشبابيك في كل

جهة من الجهتين توجد طاولة حجرية مبنية في الجدار فوق مدفئة مرمرية كبيرة.. صبَّ عليها من الأعلى ختم السلطان عبد المجيد.. تقابلها في الجهة الأخرى واحدة مشابهة.. إنَّ التناظر في هذا القصر يبعث على الاستغراب، فحتَّى القاعات التابعة لقاعة المدخل متناظرة، فقاعة الوزراء، والتي كانت تُستخدم على الواجهة البحرية لاجتماعاتهم، أو جلوسهم في القصر، تقابلها من الواجهة البريَّة قاعة الهدايا، والتي كانت توضع فيها الهدايا التي تُهدى للسلطان، أو التي سيهديها السلطان للحرمين.

قاعة المدخل.. إنَّها القاعة الأولى.. خالية من أي كرسي.. أو دِكَّةٍ.. أو مقعد، هنا كان يقف السفراء.. الوزراء.. والأعيان، في انتظار إذن الدخول إلى السلطان، واقفين ينتظرون.. حتى يأتي موظف المراسم.. فيرافقهم كما سيرافقنا المرشد السياحي الخاص بالقصر في جولة القصر.. من هنا سنبدأ.. كما كان يبدأ كل من يدخل.. من "مدهِيل صالون".. أو قاعة المدخل.

كم شهِدت هذه القاعة.. وكم حملت من وصمة.. في هذه القاعة كان السلطان يقيم استقبالات الجمعة، ومنها كان يطلق محملي الحج.. وفيلق ليلة القدر.. وفيها عقد أتاتورك مؤتمر اللغة الذي غيَّر الحرف التركي من العربي إلى اللاتيني، والذي ألغى أكثر من (٥٠٠٠) كلمة ذات أصل عربي، وأكثر من (٣٠٠٠) كلمة ذات أصل فارسي، والذي

ألغى قرابة (٥) أحرف من اللغة التركية. كم حملت جنبات مدخل صالون من أسرار.. وكم حاكت من مؤامرات.. ورحل الجميع.. وبقيت الصالة.. يتردَّد فيها صداهم الذي لا يُسمع.. وأطيافهم التي تبعث الحياة غير المرئية في المكان.

كنت أقف عند المدخل، الإضاءة الحاصلة من الثريات الكريستالية الإنجليزية الثلاث.. ذات الستين ذراعًا المعلَّقة ضعيفة.. في السابق.. وحتى عهد السلطان محمد رشاد الخامس، كانت الإضاءة في القصر كله تعتمد على الشموع والنيران: الثريات.. والمحامل الكريستالية الموزعة.. والأعمدة البرونزية، مما جعله مهددا بالحريق.. وفي عهد محمد رشاد تمَّ إدخال الكهرباء للقصر.. لذا تجد التمديدات الكهربائية خارجية ظاهره.. لقد كانت إضاءة النيران المتراقصة على الجدران أقوى.. وأصبحت بعد تمديدات الكهرباء أضعف.. مما جعل رؤية الخيالات أوضح.. أربعة سفراء يقفون في زاوية من زوايا القاعة.. عليهم لباس أوروبي زاهٍ يعود للعصر الفيكتوري أو الباروخي.. يميز كُلاًّ منهم لون بِزَّته.. من الواضح أنَّ ذلك ذي البزَّة السوداء هو سفير الرايخ.. "بْرُوْسِيَة"، ولا تجد عناءً في معرفة أنَّ تلك الزرقاء الغامقة تحمل زهو التاج البريطاني، الحمراء.. تنتمي إلى البروتوكول الإمبراطوري النمساوي، والزرقاء الداكنة المزركشة بالأبيض تحمل الأناقة الفرنسية.. كان على بعد خطوات منهم يقف رجل ملتح ذو طربوش أحمر.. وبدلة سوداء وسترة طويلة تصل إلى ركبتيه.. وقميصه

أبيض.. يشاركهم النقاش.. من الواضح أنَّه الصدر الأعظم.. مرَّ من أحد الأبواب متجهًا إلى الباب الواقع على يسار الداخل من بوابة القاعة رجل يلبس عمامة كبيرة.. وله لحية كبيرة.. هذا شيخ الإسلام بكل تأكيد.. بعد قليل ظهر غلام أمرد.. يلبس بدلة سوداء.. طربوشه صغير.. وفتحة ستْرته السوداء الحريرية كبيرة.. وقميصه أبيض ناصع.. في يده صينية تقديم من الذهب.. بها أكواب شاي.. ضيَّف بها السفراء والوزير.. ثمَّ رحل.. كانت خيالات السفراء والوزراء والخدم وموظفي المراسم الرائحين والغادين تجعلني أتحسس الطربوش غير الموجود على رأسي.

لم يطل انتظارنا حتَّى انفتح الباب الواقع على يسار البوابات الثلاث الزجاجية على مصراعيه.. ظهر من خلفه موظف ذو بدلة زرقاء داكنة.. سترته تصل إلى ركبته.. وذهب يُسِرُّ بشيء للصدر الأعظم.. وظهرت معه المرشدة التي سترافقنا في القصر.. من الواضح أنَّ الموظف أخبر الوزير بالإذن الذي منح للسفراء والأعيان لمقابلة السلطان، كما أخبرتنا المرشدة بالتعليمات التي سنتبعها خلال الجولة.. سمح لهم.. وسُمح لنا.. مشى موظف المراسم أمام الجميع.. تلاه الوزير.. الوزراء والسفراء.. الأعيان.. ثم المرشدة.. ثمَّ السياح.. تخطَّينا الباب الذي خرجا منه.. لنقف في غرفة الكُتَّاب أو بالمعنى الحديث غرفة السكرتارية.

يازي دايرهْ سي

بعد أنْ تخطَّينا الباب توقف الجميع في دائرة الكتابة.. أو إدارة الكتاب.. اتجه الصدر الأعظم والسفراء إلى أريكة مذهبة الأطراف منسوجة تلبيستها من الحرير الهريكي وخيوط الذهب.. وجلسوا في انتظار "اليازيدار" أو رئيس سلك المراسم الذي سيكمل معهم الطريق إلى غرف الاستقبال، بينما اتجه موظَّف المراسم إلى طاولة الأعمال المكتبية، كانت الغرفة صغيرة (بمقاييس القصر).. ذات واجهة بحرية.. إلاَّ أنَّها تحوي الكثير من التحف النفيسة، فعلى جدرانها عُلِّقت لوحات لرسامين عالميين، لن تجِدَ صعوبة في أنْ ترى زَهْوَ الصَّدْرِ الأعظم باللوحة الجدارية المعلَّقة على يسارهم مقابل النوافذ.. تلك اللوحة الكبرى التي تحتل الجدار كاملا، "سُرِّيْه أَلايِيْهْ" (بالتركية).. أو "سُرِّيْ بروسيشن" (بالإيطالية والإنجليزية) أو "موكب (الصرُّة)" (١٣٠٤هـ)، (١٨٨٧م)، والتي رسمها الفنان الإيطالي ستيفانو يوسِّي[١٣٥]، وهي لوحة جدارية ضخمة المقاسات تظهر الموكب الذي كان يخرج من إسطنبول إلى مكة قبيل الحج بـ(السُّترة) الشريفة، يبدو أنَّ هذا هو مكمن الخطأ.. إذ أنَّ اسمها كان موكب السُّترة، ومع التصحيف اللاتيني أصبحت الصُّرة.. فأصبح المرشدون السياحيون يتحدَّثون عن صرَّة من الذهب يهديها السلطان إلى الكعبة.. تكون عادة صلةً منه لأهل الحرمين.. تُحمل مع الحجاج.

لاحظت (في خيالي) امتعاض السفير الفرنسي من اللوحة الطولية المقابلة له.. تلك التي تصوِّر أُنَاسًا يتدافعون فارِّين من باب صغير، وآخرين يختنقون تحت الباب جرَّاء حريق.. إنها لوحة "حريق أوبرا باريس" لأبي الفن الاستشراقي "رودولف آرنست"(١٣٦)، وكأنَّ السفير يقول في ذهنه.. "ألم يجدوا أفضل من حريق الأوبرا ليذكروا به باريس؟!"، كأنه يقولها وهو يختلس النظر إلى سفير بْرُوْسِيَة الجالس أمامه معلَّق العينين، هَيْمَانَهُمَا باللوحة المقابلة لهذه اللوحة.. "فتاة القرية الألمانية" للألمانية "تيريزا ديلايندر"، لم يكن سفير جلالة الملكة البريطانية يحتاج للتركيز على شيء.. أو للزهو بشيء.. فكلٌّ كرستاليات القصر بريطانية.. ويكفيه فخرًا الثريا المُتَدَلِّية في "معايدة صالون".

كانت المرشدة تمهلنا قليلا لنتفرَّج.. وكأنَّها تنتظر وصول "اليازيدار"، الذي وصل فعلا.. فسلَّم على الصدر الأعظم.. واستأذنه ومن معه من الضيوف في الانصراف.. وتحرَّكوا.. وتحرَّكنا.. كنَّا نمشي بقرب لوحة "فوج السُّتْرة" وكأنَّ الدراويش.. والجند والجمال والدواب فيها تتحرَّك.. في رحلتهم إلى الديار المقدسة.. إلاَّ أنَّ ثباتهم هنا.. في هذا القصر يجعلهم غرباء.. ولو أنَّهم عثمانيون.. فكل ما يحيط بهم أوروبيٌّ صرف.

أفضى الطريق إلى "سلاملك بينيك صالون" أو قاعة استقبال الرُّكاب، وهي قاعة "كمدخل صالون" يؤدِّي إليها "كوتْشِلوك قابي" من الناحية البرِّية، وقريبة من بوابة ميناء الوزير البحرية، وكان يستخدمها

السلطان للاستقبالات خاصة،وفي طرف هذه القاعة البرِّي باب يؤدِّي إلى "إيبادت هزرهليك مكاني" أو مكان العبادة الخاص بأصحاب الفخامة، وهو عبارة عن غرفة جلوس زيِّنت جدرانها بلوحات خطِّية يقضي فيها السلاطين والأعيان أوقاتهم قبل الصلوات، وفيها يستعدون للصلاة، ويقومون بالتعبُّد، وتفضي هذه الغرفة إلى المسجد، وهو قاعة كبيرة، علِّقت على جدرانها لوحات خطِّية من أشعار لبعض السلاطين في المديح النبوي، وآيات، وعُمل محرابها من قطعتين من كسوة القبر الشريف، بالإضافة إلى أربعة أعمدة رخامية يناظر بعضها بعضًا.. لا تنزعج إنْ لم تشعر بروحانية في المكان.. فالمكان بعيد كلَّ البعد عن شكل المسجد.

تخطَّينا ذلك مرورًا بخزينة الأواني والتي جمعت فيها الأواني الذهبية والصينية والزجاجية التي كان يستخدمها السلاطين، كلُّ ذلك والموكب المرافق للصدر الأعظم لا يرافقنا.. ترى أين صاروا؟

ما فوق سُلَّم الكريستال

في نهاية هذه الجولة وقفنا أسفل سلَّم الكريستال الشهير.. إنَّ هذا السلم هو الرئيس للقصر، وقد صنع درابزينه من الكريستال، ويُعد الأعظم والوحيد على مستوى العالم، قرابة (٢٠) عَتَبَة مبنية من النحاس المغطَّى بخشب الماهوجني الذي تغطيه أيضًا سجادة حمراء،

رُصَّ على جنبيها الدرابزين الكريستالي الشهير، بعد العتبة العشرين يفترق السلَّم إلى قسمين يعودان ليلتقيان، وكأنهما يضعان قاعدة للثرية، إذ أنَّ سقف السلَّم المفتوح على السَّماء، المغطَّى بقبَّة زجاجية، تتدلَّى منها ثريَّة إنجليزية، مما يجعل الثرثرة غاية في الفخامة هنا.

تقف في نهاية السلَّم أمام ثلاثة أبواب خشبية مقوَّسة.. بالضبط كتلك التي في آخر المدخل صالون.. أنا أقف بالضبط على النقطة المشابهة من الدور الأرضي.. القاعة أمامي تقع مباشرة فوق مدخل صالون.. هذه هي "مابين صالون".. أو "سُفرا صالون".

ستذهلك حين تدخل الثريات.. ستشدُّ نظرك لترى السقف الإيطالي المرسوم بالذهب والذي يغطي سقف القاعة.. سيشد ناظرك الأثاث المنمق.. قطع السجاد الهيريكية.. والسجادة العجمية التبريزية التي تتوسط القاعة، على الأرض رمي دُبَّان روسيان كبيران.. سجادتان عمر الواحدة منهما قرابة (١٥٠) سنة، أهديتا للسلطان عبد الحميد الثاني من قيصر روسية بعد انتهاء الحرب كعربون صداقة، في آخر المكان مقابل الداخل بابان.. كلٌّ منهما يؤدي إلى غرفة، الأيمن يؤدي إلى "تُرجمان أودسي" أو غرفة المترجمين، وهي عبارة عن غرفة صغيرة كان ينتظر فيها المترجمون والسفراء قبل قبول أوراق اعتمادهم.. وتفضي إلى "إنتزار أوضه سي" أو قاعة الانتظار، والتي ينتظر فيها السفراء قبل مقابلة السلطان.. الآن عرفت أين اختفى السفراء.. هاهم يجلسون فيها، للغرفة

(١١) نافذة.. ملبَّسة بستائر حمراء، وأرضيتها سجَّادة بيضاء، وكراسيها حمراء.. كلٌّ ذلك صناعة هريكيَّة، وجُمِّلت جدرانها بلوحات لأكابر الفنانين الغربيين، وهي تطل على الواجهة البرية

تُقابلها على الواجهة البحرية "إيليتْشِي قَبول أودسي" أيْ غرفة قبول السفارات، ويقابل غرفة المترجمين غرفة اسمها . "إيليتْشِي قَبول أودسي مدهل"، أي مدخل غرفة قبول السفارات، مسكينة هذه الغرفة.. برغم أنَّها (هي ومدخلها) من أفخم وأكثر غرف القصر تنميقًا.. إلاَّ أنها مسكينة، فهذه الغرفة هي التي شهدت توقيع وثيقة الاستسلام إبَّان الحرب العالمية الأولى، وقَّعها السلطان محمد وحيد الدين السادس مع ممثلي جيوش المنتصرين، وحضر التوقيع سفراء تلك الدول.. كأنَّني أراه.. وهو يجلس على كرسيه في وسط الغرفة، أمام الطاولة المستديرة الصغيرة التي تحمل صورة "نابليون بونابارت"، وهم يملون عليه شروط المنتصر.. وهو مطأطئ رأسه.. يدفع ثمن حماقة الاتحاديين في عهد سلفه.. أخيه محمد رشاد الخامس.. كم هي مسكينة هذه القاعة.. رحل الجميع.. وظلَّت بجدرانها الخضراء.. وأسقفها المذهبة.. وتيجان ستائرها الذهبية الثقيلة.. وصمة عار على جبين العثمانيين.. ومكان إهانة يكرهه كل تركي.

على امتداد قاعة القبول تقع غرف للمناقشات الجانبية كان يستخدمها السلطان، ثمَّ تأتي غرفة ولي العهد.. تقابلها في الواجهة البرية

غرفة الهدايا المقدسة، والتي تحوي الهدايا التي سترسل إلى الحرمين.. أو التي جلبت من الحرمين بعد التبديل والصيانة.

ستتخطَّى الأبواب الثلاثة التي دخلت منها.. ستمر على درج الكريستال لتدخل إلى "زُوْلْ فِيْجْهَيْنْ صالون" أو القاعة ذات الوجهين، قف قليلا.. أصخ سمعك.. ستسمع أصداء قصيدة البردة للبوصيري.. أهازيج منشدين ينشدون قصيدة السلطان محمود عدلي في صاحب المقام الشريف.. صوت دفوف وعزف.. نعم.. هذه القاعة كانت مكان عقد احتفالات القصر.. الموالد النبوية، والرجبيات، والخامس عشر من شعبان، وأعراس أفراد البيت الحاكم، القاعة جميلة.. متناظرة.. وتسمَّى بذات الوجهين لأنَّها كانت تستخدم من قِبل "السلاملك" و"الحرملك" فهي آخر قاعة في المابين الهاميوني، وكما كانت تستخدم كقاعة طعام لضيوف السلطان.. ومكتبًا لجلالته، وقاعة إراحة له.

في زاوية هذه القاعة، وعلى الواجهة البحرية تقع الغرفة السُّمَّاقية، والتي تعد أحد أجنحة مكتب ولي العهد، وعلى نفس الامتداد تقع "كِتابخانه" أو مكتبة عبد المجيد أفندي الثاني" وهي مجموعة نفيسة من الكتب واللوحات والصور، جمعها السلطان عبد المجيد الثاني خلال فترة سلطنته.

وفي المكتبة باب، يؤدِّي إلى "بَيَاظ أوضه" أو الغرفة البيضاء.. وذلك لأنَّ كلَّ قطع أثاثها وستائرها وأرضيَّاتها بيضًاء، وفيها الموقد الصيني الأبيض، وهي أيضًا من الغرف المسكينة في القصر.. هذه الغرفة التي كان يستخدمها السلطان محمد رشاد الخامس كغرفة لمراجعة القرارات والفرمانات قبل إصدارها.. والتي كانت خلوة المطالعة لعبد المجيد أفندي الثاني، هي التي شهدت إبلاغه بقرار الجمعية الوطنية التركية بعزله، وإبلاغ الأسرة العثمانية بقرار الجمعية حول وجوب مغادرتها البلاد، مسكينة هذه الأسرة.. مسكينة هذه الغرفة، فهي بيضاء نقية.. قدمت خدماتها بإخلاص.. وفي نهاية المطاف أغلق بابها نهائيًا.. وعُزلت عمَّن تحبُ.

ستعود إلى المكتبة.. لتغادر إلى الغرفة المقابلة.. غرفة الموسيقى.. حيث كان أبناء وبنات الأسرة الحاكمة يتلقون دروسهم.. اليوم هي معرض من معارض القصر، أثاثها أصفر فاقع.. وستائرها حمراء.. كم يبعث ذلك على الكآبة.. قد يكون مصدر كآبتي أيضًا تلك اللوحة الكبيرة المتعلِّقة على الجدار، والتي يظهر فيها صاحبي السلطان عبد الحميد الثاني أمام خمسة أشخاص.. أحدهم يلبس لباس موظف المراسم.. وأحدهم ببدلة عسكرية.. والبقية من الواضح أنَّهم من موظفي الدولة.. القاعة التي رُسمت في الصورة ليست من قاعات "طُوْلْمَا بَاغْجَة".. إنَّها الصالون الكبير في "يلدز سراي".. هذه اللوحة رسمها السلطان عبد المجيد

الأخير.. وكأنَّه يتحسَّر على آخر لحظة فوق تخت الحكم لآخر الرجال المحترمين.. إنَّها لوحة (الخَلْع).

في قبالة غرفة الموسيقى الواقعة في الواجهة البرية للقصر، وعلى الجهة الأخرى من الطريق المؤدِّي إلى ممر الحرملك.. يقع الحمَّام السلطاني، والمكوَّن من قاعة انتظار كبيرة فاخرة الفرش، ثمَّ الحمام الذي صنع من الرخام المرمري الخالص.

ما بينهما ممر يؤدِّي إلى "هاتيرلار صالون" أو صالون الذكريات.. وهي غرفة وضعها السلطان محمد رشاد، بها طاولة فضيَّة صغيرة بكرسيين، وعلى جدرانها صور ولوحات لسلاطين، وقصور عثمانية، وصور ولوحات لإسطنبول، وكأنِّي به كان يجلس هنا كلَّما عجز عن إنفاذ قرار بسبب تعنُّت البرلمان يُقَلِّبُ وجهه في الوجوه.. ويتحسَّر على صور المجد الآفل.. ويقضي ساعات عجزه هنا.

من هذه القاعة ستمر لتصل إلى الممر الطويل المؤدِّي إلى "الحرملك الهاميوني"، الممر سينعطف يمينًا.. ثمَّ يسارًا.. هذه المنطقة لم يكن يجرؤ على الوصول إليها إلاَّ السلطان، وأنت الآن تمر فيها بسلام!! رؤوس أقواس تشكِّل نوافذ الممر، تراها على مستوى قدمك، عن يمينك يدخل النور من الخارج.. إنَّه البحر.. ورؤوس الأقواس عن يسارك أقلُّ إضاءة، إنَّ على يسارك جزءًا من المبنى، أترى طول هذا الممر.. إنَّه جزء من طول

قاعة مُعايدة، في القدم كانت نساء الحريم السلطاني تراقب الاحتفالات والاستقبالات الكبرى من خلال هذه الأقواس التي تطل على قاعة معايدة، تأتي الوالدة سلطان مع من تختارها من بنات وزوجات وإماء السلطان.. في الأعياد.. والاستقبالات والتهاني.. ستمر لا ريب على "معايدة".

ما وراء بوابة الحرملك

ستصل إلى الحرملك.. القوس المحرَّم الذي يمنع على أيٍّ تخطِّيه.. ستتخطاه بهدوء وسهولة دون أنْ تخشى أحدًا من الآغاوات السود، ستقف على باب "قرمزي أوضه".. أو الغرفة الحمراء، وهي التي كانت تستقبل فيها سيدة القصر.. الوالدة سلطان ضيفات السلطنة، ونساء السفراء.. والأعيان، بقربها غرفة نوم الضيوف، وتسمى "ياطك أوضه" وتعني غرفة الصدف، تتخطَّاها لتقف على باب قاعة الاستقبالات الكبرى في الحرملك، "مافي صالون" أو القاعة الزرقاء، وهي قاعة كبيرة شبيهة في التقسيم والشكل بـ"سفرا صالون".

في طرف القاعة المقابل لـ"ياطاك أوضه"، على الواجهة البحرية (مما يعني أنَّك تمر في "مافي صالون" على امتداد الواجهة البحرية)، هناك تقوم آخر غرفة شغلها حاكم في القصر، هناك يقوم الجناح الذي كان يشغله الرئيس مصطفى كمال أتاتورك.

غرفة أتاتورك

في الساعة (٩:٠٥) صباح (١٩٣٨/١١/١٠م) كانت هناك حالة استنفار عامة في القصر.. الأطباء كانوا يجرون في ممرات القصر، أعضاء مجلس الوزراء.. مسؤولي الجمهورية التركية.. حالة انزعاج عامة.. الساسة كانوا يشغلون القاعة الزرقاء.. أحد الأطباء دخل متأخِّرًا من البوابة المقوسة للحرملك.. واتجه بهرولة خفيفة نحو الغرفة.. دخل.. كان الراقد على السرير قد لفظ أنفاسه الأخيرة.. والطبيب الخاص يقوم بإيقاف الساعة بقرب السرير على (٩:٠٥).. يخرج ليعلن للجميع أنَّ الرئيس مصطفى كمال أتاتورك قد رحل.. بحركة عامَّة بدأ حَشَمُ القصر بأوامر القيادة العامة بإيقاف ساعات القصر على نفس التوقيت.. حتَّى ساعة البرج تمَّ إيقافها.

الغرفة الصغيرة (مقارنة بالقصر) خضراء الجدران.. مزركشة الستائر.. فاتحة الأوان، بها كرسي.. وسرير من خشب التيك، يلحَّف اليوم بعلم تركيَة، وإلى عهد قريب لم تكن ساعتها هي الساعة الوحيدة في القصر الموقوفة على (٩:٠٥).. إلاَّ أنَّها هي الوحيدة اليوم.

هذه هي الغرفة.. على هذا السرير لفظ أتاتورك أنفاسه الأخيرة.. كان هنا في أواخر أيَّامه، حينما بدأت صحته بالتدهور استجاب لنداءات روحه، وقرر أنْ يستشفي بهواء إسطنبول، لم تسعفه أنقرة، ولم يجد في

جمال طرابزون أو يلوفا حاجة، إلاَّ أنَّ روحه التي كانت تَكْتُمُ ذلك جَرَفَتْهُ إلى هذا القصر ليعيش أواخر أيَّامه فيه، كان تليُّف الكبد.. وتلوُّث الدَّم أخذ منه - في أنقرة- كلَّ مأخذ.. لم يتَّجه إلى بيته الصيفي في طرابزون.. بل قرر أنْ يرتحل إلى يالوفا.. ومع كون المكان في يالوفا أخَّاذا إلاَّ أنَّ صحته أخذت بالتدهور.. طلب هو أنْ ينقل إلى إسطنبول.. وصلت سيارته السوداء إلى بوابة "طُوْلْمَا بَاغْجَة"، إخال أنَّ ذاكرته طوَّفَت به، عادت به إلى ذلك اليوم حين دخل هذا القصر بعد أنْ قدَّم صديقه القديم السلطان محمد وحيد الدين السادس استقالته.. كان يقف في نفس المكان.. تقدَّمت سيارته.. دخل "مدخل صالون"، فتذكَّر المؤتمر الوطني.. وكيف قضى على الدولة العثمانية.. وتقدَّم.. صعد السلَّم.. ومرَّ أمام المكتبة فشعر بشيء من الزهو وهو يرى نفسه يبلغ عبد المجيد أفندي الثاني بأنَّه وأسرته غير مرغوب فيهم في تركيَة الجديدة.. وتقدَّم.. ليصل إلى غرفة نومه هنا، تحسَّنت حالته قليلا في القصر.. ثمَّ انْتَكَسَتٍْ، كانت صرخات ألمه تتردَّد أصداءً في القصر، كان يتحرَّك من غرفته إلى الغرفة المقابلة لها ليدخل دورة المياه.. فيمرُّ على خزانة الأدوية الممتلئة الخاصة به.. فتمتلئ نفسه غمًّا.. يخرج إلى الحديقة على البحر.. فيستنشق الهواء الذي يبهجه.. حتَّى تدهورت حالته أكثر.. وبدأ العد التنازلي لعمره.. وفي تلك الساعة (٩:٠٥) في ذلك اليوم أعلن طبيبه توقف الحياة في جثته.. على تلك الساعة أوقف الطبيب ساعته.. وعليها أوقفت جميع ساعات القصر.

يا للمفارقات العجيبة، كلٌّ من (اعتلى) العرش في هذا القصر خُلِعَ عن العرش على يد هذا الرجل.. أو جماعته، وهو يموت فيه.. هاهو الذي أسقط الدولة.. وأقام الجمهورية، غيَّر كتابة حروف اللغة.. وألغى بعض حروفها، وألغى مصطلحات (عربية وفارسية) من اللغة التركية، واختلق مصطلحات أخرى، نقل العاصمة.. وغيَّر الهوية، ونزع حجاب المرأة، حينما حانت منيته توفي في قصر الدولة الأخير.. بغض النظر عن أيٍّ شيء أو أي فكرة أو عن الطريقة.. هذا الرجل أنقذ تركيَة من الاضمحلال.

مساكن السلاطين

حينما تتخطَّى جناح أتاتورك ستمر على قاعة كانت تستخدم للجلسات العائلية، تمر من خلالها فتصل إلى عدد من الغرف.. أولاها هي غرفة الضيافة "مِسافِر آطاك أوضه"، والتي ستميِّزها بسريرها الأحمر المذهب.. والمعمول على الطريقة العثمانية.. محجوز بحواجز من ثلاث جهات.. ومفتوح من الجهة الرابعة، بقربها غرفة "بيرتيفنيال والدة سلطان" والدة السلطان عبد العزيز، سريرها عادي.. مفتوح من الجهتين، تصل بعدها إلى غرفة جلوس صغيرة تخص الوالدة سلطان، تصل بعدها إلى غرفة الوالدة سلطان الرئيسة.. البيضاء، والتي استخدمتها "بيزمي عالم" والدة السلطان عبد المجيد ومن تلاها، وهي غرفة بيضاء بشكل غريب.

تصل بعدها لجناح السلطان محمد رشاد الخامس.. وهو الجناح الواقع في زاوية القصر البحرية، وفيه غرفة نوم كبيرة سريرها عثماني خشبي، وغرفة جلوس مرافقة.

ستعود إلى قاعة الجلسات العائلية، فبقية الأقسام تمتد بشكل رأسي على البر، ولها مدخل من خارج هذا المبنى، من تلك القاعة تستطيع أنْ تمر على حمَّام الحرملك وهو حمَّام رخامي كبير، يقع على الجانب البري لهذه القاعة، وتستطيع المرور إليه من حمَّام جناح أتاتورك، في هذا الحمام قاعة جلوس كبيرة، ثمَّ ستمر على غرفة السلطان عبد العزيز المميزة بسريره الفردي الضخم.. الذي يصل طوله إلى قرابة (٥) أمتار، وعرضه (٣) أمتار تقريبًا، وتقع هذه الغرفة على الواجهة البرية للقصر.

ستعود بعدها إلى "مافي صالون"، لتنزل من "سلَّم الخليفة"، وهو سلَّم خشبي ضخم.. أبيض مزيَّن بالذهب، تتدلَّى فوقه ثريًا كريستالية حمراء، ستنزل من السُّلَّم إلى ممر طويل.. احبس أنفاسك.. فأنت أمام الإبهار الآن.. أنت أمام الباب الخاص لـ"معايدة صالون".

قاعة معايدة

لاحظتُ أنَّ داعيَّ إلى القصر لم يظهر بعد أنْ دخل من بوابة القصر، عبد المجيد الأول.. ذكَّرني به الباب الخاص الذي كان يدخل منه للقاعة.. لم أر القاعة حتَّى الآن.. ولكنِّي سمعت عنها من مرشدتي..

تكلَّمت أمام الباب فقالت: "حاولوا أنْ لا تنبهروا.. سترون الآن أكثر الأشياء عظمة في طُوْلْمَا بَاغْجَة.. إنَّها (مِآيَدِيْهْ) صالون.

فتح الباب.. ظلام.. كأنَّ أنوار القاعة مطفأة.. دخلنا.. كان ارتفاع السقف مرعبا.. نحن ندخل من الزاوية اليسرى للقاعة.. أمام وجهنا عامود ضخم.. يقارب أعمدة جامع السلطان أحمد في الحجم.. إلاَّ أنَّ كلَّ عامود يلتصق به ثلاثة أعمدة مثله.. التفتنا يسارًا.. فصعقَنا ما نُشاهد..

قاعة تشكِّل مساحتها (٥٠×٥٠م) تقريبًا ذلك عدا الجزء الواقع تحت ممر الحرملك والذي أقدِّره بحوالي (٢٠×٥٠م)، بارتفاع للقاعة يتجاوز (٦٠م) تقريبًا.. من غير أيِّ عامود في المنتصف.. جدرانها ذهبية.. سقفها مذهَّب.. قاعة من ضخامتها بُنيت لها شرفات كتلك التي في المسارح والأوبرات، في قلبها وضع عرشٌ أحمر مذهَّب.. كبير.. إلاَّ أنَّه يبدو صغيرًا إذا ما قورن بهذه القاعة.. في وسط قبَّة القاعة تتدلى أكبر ثريا كريستالية في العالم، أهدتها الملكة فيكتوريا للسلطان، تضيء عن طريق (٧٥٠) شمعة، وتزن (٤,٥ طن)، إلاَّ أنَّها بالنسبة لهذه القاعة تائهة في هذا الحجم.

بدأنا نمشي كطابور في هذه القاعة.. نبدأ من طرفها باتجاه العرش.. وكأنَّنا نمشي لتهنئة السلطان.. وكأنَّ الأخبار جاءت منذ قليل بانتهاء حرب القرم.. فاحتشد الناس ليهنِّئوا السلطان بالنصر.. وبنزول السراي الجديد

الذي حُرم سكناه قرابة الخمس سنين، وقفنا في الصف.. نتحرك.. كنت أرفع رأسي إلى الشرفة الواقعة على يساري فأرى سفراء الدول.. ألتفت خلفي فأرى باب البحر الذي يهبُّ علينا بأعذب النسمات.. وأرفع رأسي فأرى حركة غريبة خلف الشبابيك المقوَّسة المغطَّاة بالزخارف الخشبية المشغولة.. إنَّها حركة الحريم السلطاني ليروا التهاني، فوقهم بقليل كان يجلس في الشرفة الوزراء.. والأعيان.. وفي الشرفة عن يميننا كان الولاة، وقادة الجيوش، أمَّا في الحائط الذي يقف تحته السلطان فلا شرفة هناك.. إذْ أنَّه ليس لأحد من البشر الحق في أنْ يعلو على السلطان.

نحن نتحرَّك في طابور.. وكأنَّنا سنسلِّم على السلطان عبد المجيد بعد قليل.. كنت أسمع في أذني التهاني تنصبُّ عليه بالنصر.. وأرى القاعة، وأذكر ما حلَّ في الدولة بعد أقل من قرن بسبب هذا القصر فأحار ما أقول له، فكَّرت في أنَّني من الأفضل أنْ لا أسلِّم عليه.. إلاَّ أنَّ الصفَّ يتحرَّك.. فكرت في أنْ ألومه.. أنْ أنبئه ما فعله قصره بالدولة.. أقول له إنَّ المال.. والذهب.. والجواهر.. والديباج التي (أسرفها) في هذا القصر راكمت على الدولة ديونًا أدت بعد أربعة سلاطين إلى سقوطها.. أنَّ حاجة السلطان لأن يبدو كأصحاب العمائم في "طوب قابي" جعلت بسمارك سكرتير الرايخ الألماني يقول لسفير ابنه عبد الحميد الثاني، حين بدأ المنتصرون بتقاسم الأراضي بعد الحرب الروسية التالية، وحين بدأوا بمنح النمسة أراضٍ عثمانية، وإعلان استقلال أراضٍ أخرى، مع كون الدولة في

الجانب المنتصر في الحرب.. أنْ يقول له حين دمعت عين السفير حزنًا: "لا تبك يا هذا مجدًا لم تحافظوا عليه فتناوشه غيركم"، ماذا أقول له؟! هل أقدِّر ضيافته فأهنئ وأخرج.. أم أتكلَّم لعل كلامي يجعله يفكر فيما سيفعل في الخمس سنوات القادمة.

كنا نتحرك.. وصلت إلى أمام العرش..فلما وازيته التفت إليه.. ومددت يدي.. فسمعت صوته يقول: "أهلا وسهلا بك".. وقبل أنْ أرد التحية.. سألني أحد مرافقي: "ماذا تفعل؟!".. انتبهت إلى كوني أقف في قبالة العرش.. أمد يدي كمن يصافح شخصًا ما.. انتبهت إلى كوني أتخيَّل ذلك.. رفعت يدي مسرعًا لأرفع الطربوش عن رأسي.. تذكَّرت أنه وهم.. ابتسمت.. وقلت: "لا شيء.. كنت أهنئ السلطان بالنصر"، والتفتُّ.. وأنا أضحك ماشيًا باتجاه باب البحر.. وقفت بعد أنْ خرجت منخلبًا بمنظر البوسفور.. هنا.. عند باب البحر كانت تقف عبَّارات الأعيان ومراكبهم.. ينزلون ليحيُّوا السلطان.. ما أجمل منظر البوسفور.. إنَّ كلَّ نظرة أنظرها له أجد لها طعمًا آخر.

أحسست أنَّني اكتفيت من "طُوْلْمَا بَاغْجَة"، فسحبت نفسي إلى باب الخزينة، بينما أكمل الفوج السياحي طريقه إلى مدخل الحرملك الآخر.. والمباني الملحَقَةِ بالقصر، أحس أنَّني أرضيت عبد المجيد بهذه الزيارة.. كنت أخرج من السراي وأنا غير مكترث بكمِّ الكنوز (المبذوخة) فيه.. يكفي أن تعلم أنَّ أكبر مجموعة من الثريات.. واللوحات..

والمعلقات.. والمعروضات الكريستالية في العالم مجتمعة في هذا القصر، .. لم ينفِ ذلك ألمي.

من أمام بوابة الخزينة أخذت سيارة أجرة إلى منطقة حربية بقرب تقسيم، هناك حيث يقع المتحف العسكري.. أو المتحف الحربي، الذي يتحدث عن الترك كمحاربين.. عن تاريخهم العسكري منذ أن كانوا قبائل متفرقة في آسية، إلى حين الاستقلال وإعلان الجمهورية.. والعسكر الذين أسسوا الجمهورية.. كنت أبحث عن أيِّ شيء يبعد ألم "طُوْلْمَا بَاغْجَة" عنِّي.. اتجهت إلى هناك لعلِّي أجده.. فذلك المبنى يعود تقريبًا إلى نفس فترة القصر.

"عسكري مْيُوْزِيْسْ"

وصلت إلى منطقة حربية تلك المنطقة التي يعود تأريخها إلى القانوني، حين أَسَّسَ فيها معسكرًا حربيًا دائمًا، يقال إنَّ مبناه القديم كان يقوم مكان المتحف اليوم.. وأنَّ فيها كان يتم تدريب الجيوش، وتنظيمها.. إلاَّ أنَّ مساكنها كانت في "طوبقابي سراي"

وقفت في "جمهوريَّت قادسي" أو شارع الجمهورية.. أمام مبنى المتحف الذي كان كليَّة الدراسات الحربية، أنشأها السلطان عبد المجيد الأول.. إنَّ الشارع تجاري صرف، يمتد على يمينه مبنى المتحف الرَّازِحِ

على (٦٠٠×١٥٠م) تقريبًا، بينما تقابله.. وتتلوه محال تجارية ذات أنشطة متعددة، ينزل النازل أمام بوابة المتحف.. سيرى مجسمًا ضخمًا لمدفع آلي عثماني، سيشعر بالزهو.. إذ أنَّه سيدخل الآن إلى الكلية العسكرية المجيدية، ويجب أنْ نفرِّق تاريخيًا بين قصتين.. الأولى قصة متحف السلاح.. والثانية قصة الكلية المجيدية.

القصة الأولى: إِيْرِيْنْ دِكِّه

هنا تبدأ القصَّة الأولى.. لَّما كان السلاح يخزَّن في كنيسة "سَانْتَا إِيْرِيْن" في طوبقابي أصدر السلطان أحمد الثالث في العام (١١٤١هـ)،(١٧٢٦م) أوامره بجرد وتنظيم المخازن ومعرفة ما فيها تمَّ إنشاء "دار السلاح" التي كانت تحوي الكثير والكثير من التحف التي تعود إلى السلاطين الراحلين، والتي خزِّنت بطريقة تراكمية، فقام بتنظيمها، ومعرفة الأثير منها، ليسهل الوصول للسلاح المطلوب.

وفي (١٢٢٢هـ)،(١٨٠٧م) وفي التمرد الذي عُزل فيه السطان سليم الثالث، صودرت الكثير من التحف والأسلحة وحُملت إلى مقارِّ قيادات الينيشارية التي كانت تقود الانقلاب، ولما ضرب السلطان محمود الثاني قيادات الينيشارية، وقضى عليهم في (١٢٤١هـ)،(١٨٢٦م) تم استرجاع كل ما سُرق من مستودعات الأسلحة.

وفي الفترة التي تلت ذلك (١٢٤١- ١٢٥٤هـ)، (١٨٢٦- ١٨٣٩م)، كان مبنى "سَانْتَا إِيرِيْن" مهملاً، حتَّى عاد المشير داماد أحمد فتحي باشا (١٢١٥- ١٢٧٥هـ)[١٣٧]، وتقدَّم للسلطان عبد المجيد الأول بفكرة إنْشاء المتحف الوطني، وكانت "سَانْتَا إِيْرِيْن" المكان الأنسب لفكرته، وبدأ بجرد بقايا الأسلحة المهملة فيها، فوجد قطعًا تعود إلى أيَّام فتح القسطنطينية، ومتعلِّقات أخرى كانت في "دار السيباهية" (الخيالة العثمانية)، والتي كانت القوة الأساسية في إعادة تنظيم الجيش والقضاء على الينيشارية في عهد السلطان محمود الثاني، فقام بلمِّ التحف والآثار من مختلف أنحاء المدينة، وأنشأ "دار الإصلاح الحربية" والتي كانت أوَّل منظمة من نوعها في الدولة.. حيث تقوم في الأساس على علماء الآثار.. الذين سيقومون بإعادة تأهيل الأسلحة القديمة، وترميمها، وكان مقرها في "سَانْتَا إِيْرِيْن" لذا كانت تسمَّى "إيريني دِكَّه". وأغلق أروقة القاعة الرئيسة بواجهات زجاجية، وقسَّمه إلى قسمين.. الأول للأسلحة، والثاني للآثار، وفي (١٢٦٢هـ)، (١٨٤٦م) وفي عهد السلطان عبد العزيز خان، تمَّ فعلا افتتاح "هميوني ميوزيس"، ليكون أوَّل متحف وطني عثماني، ويكون أحمد باشا فتحي أوَّل مدير للمكان، إلاَّ أنَّ المتحف، وبعد وفاة أحمد باشا، تعرَّض للإهمال، وأُغْلِقَ.. ونُقلَت قطعه إلى قصر البورسلان لتُخزَّن هناك في طوبقابي.

وفي (١٣٢٦هـ)،(١٩٠٨م) وفي أواخر أيام السلطان عبد الحميد الثاني، رأسَ الفريق أحمد مختار باشا(١٢٧٧- ١٣٤٥هـ)[١٣٨]، لجنة لإعادة تأسيس المتحف العسكري، وقام بجمع الكثير من التحف عدا إعادة تأهيل "سَانْتَا إِيْرِيْن"، وتم افتتاح "المتحف العسكري العثماني".

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية نقلت التحف لأسباب أمنية إلى مدينة "نيدي" (شرق تركيَة اليوم)، وبعد انتهاء الحرب تم تخزين (٧٠٠٠) قطعة في مستودع للأسلحة في إسطنبول، والذي تُبِّع لجامعة إسطنبول التقنية، فنقلت التحف عام (١٣٧٤هـ)،(١٩٥٥م)، إلى مبنى رياضي تابع لوزارة الحربية، عندها انبعثت فكرة إنشاء متحف للسلاح، وبعدها بقرابة (١٠) سنوات، وفي (١٣٩٦هـ)،(١٩٦٧م)، تمَّ تدشين القسم الأول من مبنى "عسكري ميوزيس" هنا.. في الكلية العسكرية القديمة، واستمرت الأعمال الإنشائية، ليتم افتتاح المتحف العسكري كاملا بشكله الحالي في (١٤١٣هـ)، (١٩٩٣م).

القصة الثانية: الكلية العسكرية المجيدية

في أواسط عهد السلطان عبد المجيد الأول، وبالتحديد في (١٢٦٢هـ)، (١٨٤٦م) تمَّ الشروع في بناء "كلية الدراسات الاستراتيجية"، والتي تعرف في بعض المصادر بالكلية العسكرية المجيدية،

وتمَّ فعلا الانتهاء من بنائها، وبَدَأ التدريس فيها، وقد أفرزت الكثير من الجنرالات، والساسة، أمثال أحمد مختار باشا، ومصطفى كمال أتاتورك.

وظلّت الكلية العسكرية "كلية الدراسات الإستراتيجية" تشغل المبنى، حتَّى (١٣٥٩هـ)، (١٩٤٠م)، حيث توقفت الأعمال الأكاديمية بها لتقوم الجمهورية بوضع الرئاسة العامة للأركان بالمبنى، ثمَّ تُرك.. ليُعدَّ فيكون المتحف الحربي الحالي.

يسطِّر "عسكري ميوزيس" أو المتحف الحربي تأريخ التركمان كعرقية، منذ نشوء مجتمعهم والمجتمعات المحيطة به كقبائل بدوية، واستمرار ذلك النظام، حتَّى قيام الدول التركمانية كالسلاجقة، والعثمانيين، أو دول العرقيات المتعلقة بالتركمانية كالمغول والهون والتتر، على مدى رقعة العالم ككل.

أكثر من (٥٥٠٠٠) قطعة نفيسة تأريخية تجد مكانها في هذا المتحف، لتعرض الحياة العسكرية بكل جوانبها لكل الأعراق التركية.. بِدْءً من قبائل التركمان في أواسط آسية.. مرورًا بالمغول.. والتتار.. والسلاجقة.. وانتهاءً بالعثمانيين والدولة الحديثة.. فالجمهورية.. ذلك عدا الدول والأعراق المتصلة بالدولة.. كالصفويين والأرمن والأكراد، تستطيع أنْ تستعرض الحروب الشهيرة.. كحروب السلاجقة مع الصليبيين.. معركتي كوسوفو وفارنا بين العثمانيين والاتحاد المسيحي في

شرق أوروبة.. تقدُّم التتار حتى وصولهم إلى الشام، وحروب التأديب التي قام بها سليم الأول.. وسليمان القانوني للصفويين، عدا مشاركات الجمهورية التركية في قوات السلام الدولية.. كمشاركتهم في قبرص.. وكوريا الجنوبية.

سترى الأسلحة، والمداليات، والرايات وحواملها، والألبسة العسكرية، والدروع، عدا أنَّه يحوي لوحات لأشهر المعارك، والسلاطين والقادة والعرقيات، كما يعرض تصويرا بانوراميا للفتح ولمعارك أخرى، عدا المدافع والآليات التي كانت تستخدم في الجيشين العثماني والتركي، وتماثيل كاملة ونصفية لبعض القادة والأمراء والسلاطين من مختلف هذه العرقيات والدول.

تستطيع أيضًا أنْ تزور القاعات التاريخية.. لتعبر من خلال بوابةٍ الزمن إلى عصر قديم.. فترى القاعة العثمانية.. قاعة السلاجقة.. قاعة الفاتح.. قاعة "المهتر" (الفرقة العسكرية العثمانية، والتي تعد الأولى من نوعها في العالم)، عدا أنَّك ستتمكن من حضور عرض للفرقة يقام في "قاعة النصر ٣٠ أغسطس".

تَنَقُّلٌ في الزَّمَنِ

دخلت من الباب الرئيس للمتحف.. هناك بهو كبير، عُرضت فيه تماثيل نصفية لشخصيات مهمة، ولقادة الجمهورية الحديثة، سترى تمثالاً

لأحمد فتحي باشا، ولأحمد مختار باشا، ولأتاتورك.. ومجموعة أخرى من قادة التغيير، ستتخطَّى البهو لتدخل إلى أوَّل القاعات.. والخاصة ببدائية الحياة التركمانية، وأوائل المعارك وكيفيَّة القتال، وتمثالاً لـ"آتيلا"(١٣٩)، وصورة لحربه ضدَّ الصيْن.

ثمَّ تتخطَّى بوابة لتقف في قاعة السلاجقة.. هنا يبدأ التاريخ بالنسبة لك.. لن تعرف من أين تبدأ.. عن يسارك يصطف العظماء من الأسرة السلجوقية: (المؤسس أبو طالب طغر بك مؤسس دولة السلاجقة الكبار، يليه أبو شجاع ألب أرسلان بطل ملاذكرد الذي وضع رجله على خد الإمبراطور البيزنطي، ثمَّ قلج أرسلان مؤسس دولة السلاجقة الروم وقاهر الحملة الصليبية، وطارد الصليبيين من الأناضول، ثمَّ ملكشاه الأول خليفة ألب أرسلان وموحد الدولة، والسلطان الوصي على العرش العباسي، ثمَّ علاء الدين كيقوباد آخر حكام السلاجقة الروم، الذي انتقل الأمر بعده إلى السلطان عثمان باي الأول).. وعن يمينك لوحة للمرشدين الدينيين الأشهر في تلك الفترة، (الشيخ نصر الدين أبي الحقائق، خوجه أحمد العيساوي، حاج بكداش ولي، جلال الدين الرومي، الشيخ يونس لامار).. ولوحة أخرى لعلماء الطبيعة والأطباء في تلك الفترة (الخوارزمي، البيروني، الفارابي، ابن سينا، يوسف الحاجب).. وصورة ضخمة لمعركة ملاذكرد والتي أركع فيها ألب أرسلان إمبراطورَ الصليبيين تحت قدمه، وتمثال للقهرمان أوغلو محمد

باي[١٤٠]، وشعار دولة السلاجقة وخريطة لدولتهم، إنَّه المجد الذي لا يعرفه أحد.. إنَّك ترى الآن دولة من أعظم الدول في التاريخ الإسلامي، دولة حَكَمَ سلاطينها كوزراء للخلفاء العباسيين، دولة بعثرت شمل حملة صليبية، وكسرت تقدُّم التتار، واستعادت القدس من الصليبيين، وكادت أنْ تفتح القسطنطينية، دولة.. كلُّ ما لدى الغرب من صور حكامها صورة تمثال في أحد الكنائس لملكها يضع رجله على وجه الإمبراطور البيزنطي وهو جالس على عرشه.. ما أعظمها من دولة.. وما أَوْجَبَ أنْ يَعْلَمَ أَبْنَاؤُنَا مَنْ هَؤلاء.. كُنْتُ أمرُّ لأخرج من القاعة، وكل سلطان من السلاطين ينظر إليَّ.. يُشْعِرُنِيْ مَنْ هُو.. يا للعزة في عيونهم.

إذا خرجت من القاعة ستقف على ممر عن يسارك باب خارجي، وأمامك قاعة العثمانيين، وعن يمينك امتداد المبنى وامتداد التاريخ التركي العثماني، خارج الباب عن يسارك ساحة بها تماثيل نصفية لـ(١٨) من الحكام المؤسسين لدول وقبائل تركمانية على مدى التاريخ.. بدءًا من أتيلا.. وانتهاءً بأتاتورك، مرورًا بالخوارزميين، والسلاجقة، والعثمانيين، والمغول، تعرض بقرب كل تمثال راية ملكه، وخريطة دولته، وتأريخها.

أمَّا القاعة أمامك، فيها لوحات للسلاطين العثمانيين قبل الخلافة، بدءًا من عثمان باي الأول، وانتهاءً بالفاتح، سترى لوحات لأشهر معاركهم كـ"كوسوفو" و"فارنا"، وبقايا خوذة أورخان الأول، وبقايا درع رأس الحصان الخاص بمراد الأول.

خارج القاعة ستمر على ممر يعتبر جزءًا من قاعة "الفاتح وسليم الأول ياوز وسليمان القانوني".. لا تجفل.. فالتمثال على الخيل أمامك للفاتح وهو يدخل القسطنطينية، إنَّه يوم الفتح، تُعرَض هنا أجزاء من سلسلة القرن الذهبي، وخريطة مجسمة للقسطنطينية، ورايات السلاطين، ولوحات لفتوحاتهم عدا تماثيل مكبَّرة للفاتح ولسليم على خيولهم، وبانوراما مجسمة تفصيلية للفتح، وسيوفًا لسليم والقانوني، ودرعًا لوجه الحصان لهما ولأورخان الأول، عدا أسلحة عثمانية كثيرة، وسيوفًا وبلطات مملوكية جلبت من مصر في تلك الفترة، عدا الخناجر والمطارق الحربية، ومجموعة من السيوف والمطارق تعود إلى فترة الحروب الصليبية، بعضها إسلامي، وبعضها صليبي.

ثمَّ سيأتيك عن يسارك ممر طويل، جمِّل حائطه الأيمن بصور للسلاطين العثمانيين، بينما شَغَلَ حائطه الأيسر الصفوف الدراسية السابقة للكلية، والتي حوِّلت حاليًا إلى قاعات عرض للأسلحة.

وفي نهاية الممر تستطيع الصعود إلى الطابق الثاني لترى الأسلحة الحديثة، والخاصة بفترة أواخر الدولة العثمانية والحرب العالمية، والدولة الحديثة، فسترى مكتب السلطان عبد الحميد الثاني، وعملية اغتيال محمود شوكت باشا وزير الحربية الذي اغتاله الاتحاديون، والمدافع العثمانية، والمسدسات، والبدل العسكرية النظامية، والسيوف،

والأسلحة الأوروبية، عدا الخيام العثمانية التي كانت تنصب في ساحات المعارك للسلاطين، الكثير والكثير من الآثار الأخرى.

سترى أعلامًا مزخرفة لسلاطين المماليك وشاهات الفرس. سيوفًا عائدة للجنود الصليبيين. وسترى كذلك البندقية التي أدت بالخطأ إلى إصابة السلطان محمود الثاني. وتحفًا مختلفة عائدة لأتاتورك.

أمَّا إذا نزلت وانعطفت مع آخر الممر يمينا فتأهَّب.. ستمر على قاعة المدافع.. ثمَّ ستدخل إلى قاعة أوَّل جهاز شيفرا عسكرية عرفه التاريخ.. قاعة "مهتر".

في قاعة النصر ٣٠ أغسطس

حينما دخلت إلى القاعة التي تعرض تفاصيل الـ"مهتر" كان أحد الموظفين واقفًا يستعجلني لألحق بالعرض في مسرح (٣٠) أغسطس، صعدت الدرج.. ودخلت القاعة ذات (٥٠٠) مقعد، مدرَّجٌ ضخم يتجه إلى الأسفل.. لينتهي بساحة كبيرة.. خلفيتها بيضاء قماشيَّة، أرضها رملية اللون.. كانت الساعة تشير إلى الثالثة.. أو الرابعة مساءً، فذلك وقت بدء العرض، والذي يجب أنْ تتأكد من يومه ووقته،

جلست على أحد المقاعد ألتقط أنفاسي.. وبدأ الإظلام يملأ المكان، وعرضت شاشة العرض فلما وثائقيًا عن الفرقة الموسيقية

العسكرية العثمانية، تاريخها.. نشأتها.. وبعض معلومات أخرى عنها، ثمَّ عادت الأضواء.. كان الفلم شيقًا.. إلاَّ أنَّني توقعت المزيد، قمت لأخرج غير منتبه للشاشة الكبرى التي أصبحت خلفي الآن.. بدأت الشاشة تتحرَّك إلى اليمين.. وأنا أتجه لأعلى المسرح.. وبمجرد انتهاء تحركها.. سمعت رزح طبل.. ثم دق أجراس.. رفعت رأسي دون أنْ ألتفت.. بدت الأصوات التي تأتي من خلفي قريبة، وكأنَّ الجيش الذي يضرب موسيقاه على العتبة التي أسفل مني.. أجفلت.. التفت بهدوء.. وجلست مكاني على الدرج.. كان العرض قد بدأ، فرقة مهتر تتحرَّك داخلة المسرح من ساحة الحديقة الصغرى "كوتْشِك إتْشِ باغجه" في المبنى، والواقعة خلف الشاشة مباشرة، كانت مساحة القاعة (٨٣٧م٢)، أضيفت عليها مساحة الحديقة (١٥×٢٠م)... بدأت الفرقة بالتحرك.. دخلت المسرح.. واصطفت على هيئتها الخاصة.. الدائرة.. وتوقف الدق على الطبول.. حينما حرَّك الرجل الواقف على رأس الدائرة عصاه.. ثمَّ صرخ مادًا آخر الحروف في الجمل: "وقْتِيْ سُروري سِيْفَا... هاي هاي.."، والتفت على المجموعة أمامه وقال مخاطبًا لهم: "مِرْهَبا أَيْ مِهْتَرَمْ"، فردَّ عليه الجميع: "مَرْهِبَا... مِهْتَرْبَاشِيْ".. وبدأ بإعطاء الأوامر، والتعليمات، وكأنَّه تلقاها من السلطان، ثم رفع عصاه.. وصرخ: "يا أَلله" بتحقيق الهمزة ونفث الهاء، وبدأ الضرب مرة أخرى.. لم أكن في معركة.. ولو كنت لكنت معهم، فلماذا أشعر بقلبي ينخلع رعبًا؟! من هؤلاء؟! ولماذا كانوا؟!

بغض النظر عن حُرمة الموسيقى وحلِّيتها، فأنا لا أناقش الحكم الشرعي رغم اعتباري لأهميته، إلاَّ أنَّني سأتكلَّم عن واقع، تبدأ قصة هذه الفرقة مع نشوء الجيوش التركية الأولى، حيث كانت حركة الجيش تتم على إيقاع دق الطبل.. فإذا أسرع الإيقاع أسرع المشي، وإذا توقف الإيقاع توقف المشي، وقد ورد أنَّ الجيوش العربية.. والنبوية منها على وجه الخصوص كانت تمشي على إيقاع الحُداة(١٤١)، وكان الفرس يضربون بالنواقيس.

ويبدو أنَّ السلطان أورخان الأول، لحظ ما تبثه هذه الفرق من الرعب خلال المسير، فعمل على تقويتها، ووضع لها (١١) لحنًا بنفسه، ثمَّ ابتكر فكرة إرسال الشيفرا العسكرية لقادة الفيالق عن طريقها، فمثلا لو افترضنا أنَّ اللحن الأول يعني الميمنة، والثاني يعني الميسرة، والثالث المقدمة، والرابع القلب، والخامس المؤخرة، والسادس يعني التقدم، والسابع هجوم العدو، والثامن الدعم، والتاسع النصر، والعاشر يخص فيلق القائد العام، والحادي عشر للمسير ودخول المدن في حال تم النصر، وهذه الألحان تتبدل إحداها بالأخرى بشيفرا لا يعلمها إلاَّ القادة، فإذا قال القائد الأعلى للمهترباشا اعزف اللحن الأول.. ثمَّ قال له اعزف اللحن السادس، علم قائد الميمنة أنَّ الأمر معناه: يا قائد الميمنة تقدَّم، وإذا أمر قائد الميسرة مثلا المهتر بعزف اللحن الثاني، ثمَّ اللحن

السابع، فهو يرسل رسالة للقائد الأعلى مفادها أنَّ العدو هجم من ناحيته.. وهكذا.

وبعد انتهاء المعركة، وخلال مسير الجيش يشكل الـ"مهتر"، فيلقًا واحدًا، يعزف لحنًا واحدًا، يدَّعى البعض أنَّه كان يسمع من بُعد مسير (٣) أيام.. أو ما يقارب (٨٠ كم)، فإذا بدأ الجيش بالتحرك باتجاه مدينة، ظلَّ أهلها يسمعون اللحن دون رؤية الجيش لمدة (٣) أيام.. فلا يصل إليهم الجيش إلاَّ ونفسياتهم في الحضيض، وكانت فرقة المهتر هي أوَّل من يدخل المدن حال فتحها بالحرب.. على هيئة طابورين.. وهم يعزفون ألحانهم. ومن المهام الرئيسة لكتائب الـ"مهتر" حمل راية الجيش والسلطان والقادة، فكل كتيبة منهم بها (٣) ينيشارية حُمَّال للراية، الأول يحمل راية الدولة الخضراء ذات الثلاثة أهلَّة، والثاني يحمل راية قائد الفيلق الذي يرافقه، والثالث يحمل راية السلطان الحمراء، ويحرس كل واحد منهما جنديان.

كانت الفرقة الموسيقية العسكرية العثمانية هي الأولى من نوعها على مستوى العالم، ومنها استوحى الأوروبيون فكرة الفرق الموسيقية، وعلى نمط الـ"مهتر" نشأت الأوركسترا، ووضع موزارت أشهر سيمفونياته (كما يقول الفلم الوثائقي).

رئيس الفرقة هو "تْشِورباهتْشِي باشا"، ويميزه عن البقية قبعتة الطاووسية، وهو القائد الأعلى للفرقة، ويجب أنْ يكون قد شارك في خمس معارك على الأقل ليكون قائدها، ويُعتبر أحد جنرالات الجيش، وله وضعه بين قادة الفرق الأخرى.

يليه في المرتبة، "مهتر باشا"، وهو (قائد الأوركسترا)، ويحمل في يده عصا ذات هلال، يقوم عن طريقها بتوزيع الأدوار الموسيقية على أعضاء الكتيبة.

وتتكون الفرقة من البوري (عازفي البوق)، والطبلي(عازفي الطبل)، النقاري (وهم يضربون بعصا صغيرة على طبلات صغيرة ذات صحنين بمثل صوت النقر)، الصنجي (من يضربون الأصناج النحاسية ببعضها)، تْشِفجن (وهي عبارة عن عصًا في نهايتها ثلاثة أجراس، يقوم جزء من الكورال بهزها مصدرة الصليل)، والبرميل (ويُعد أعلى العازفين رتبة، وهو يعزف على طبلين كبيرين بعصاتين غليظتين).

كانت الأجواء تنشحن مع بداية العزف.. وتعود لتهدأ مع انتهاء اللحن، كانت الحروب تتداعى وتتدافع.. الانتصارات تُعلي زئيرها.. وكأنَّك ترى بأمِّ عينك النصر الذي تحقَّق.. وكأنَّك تسمع ألحان قائد من القادة ينبئ عن هجوم، وألحان القائد الأعلى تأمر بالدعم.. وأصواتًا متفرقة لفرق مهتر تنبئ عن انتصارات فرق وقادة في المعركة، تتوالف مع

بعضها لتشكل لحن انتصار كامل بتوالفها، تسمع ألحان الفاتحين.. وألحان الذاهبين إلى الوغى وكأنَّهم يطلبون الموت أو النصر، ما أجمل ذلك الشعور.. وما أعظم الإحساس بالنصر.

خرجت من المسرح.. طوَّفت بقاعة الـ"مهتر"، وشاهدت آلاتهم، ثمَّ عدت أدراجي إلى الباب الرئيس، فالمتحف آذن بالإغلاق، كانت الشمس تُشَرِّفُ المغيبَ، وأنا بحاجة للحظات سكون.. قد تكون هذه الليلة الأخيرة في إسطنبول.. ما أجمل إسطنبول.. وما آلم فراقها.

فَلُوْرْيَا بَارك

ركبت السيارة التي عبرت بي إلى "إيْمِيْنونو" باتجاه المطار، ومنها طفت الطريق إلى منطقة فَلُوْرِيا، وهي عبارة عن منطقة ساحلية أقيمت على شواطئها حدائق ومتنزهات كبيرة، فما أجمل أنْ تجتمع لك خضرة الغابات مع صفاء البحر.. البحر يُنشد أغنية.. إنشاد نغماته المتكرر يتجدد دائمًا، كنت أراقب لوحة الأرض وأنا أستمع لأناشيد البحر.. كنت أستقرئ المغيب.. قصيدة هذه الشمس.. أتمشى في الغابات.. أو إنْ شئت فقل المتنزهات.. أتمشى إلاَّ أنَّ قدميَّ لا تصل الأرض.

كنت أمشي فأضع يدي على جذع شجرة.. أسائلها عن جمال المكان.. هل ترغب أنْ تكون إنسانًا يتحرك.. يتنقل بين جمال أعلى..

وجمال أقل؟ لا أعلم من أين سمعت: "لا"، إنَّني أغبط الأشجار هنا.. فمع أنَّها حبيسة الحركة.. مهددة بالرياح والعواصف وجحود البشر.. إلاَّ أنَّها سعيدة بجوار البحر.. ما أجمل المكان.

أكملت رحلتي.. مررت بمدينة ألعاب جميلة.. انتقلت من متنزه إلى آخر.. مررت بعدة مطاعم "كوسوفو".. وبوسني.. ومكسيكي.. ووقفت بقرب مطعم "ضيا شرق".. ومن المواقف أمامه عدت لأدخل إلى المتنزه.. كان الليل أرخى عباءته الملكية.. وابتسم لي بنسمة من هواه العذب.. وكأنَّه عرفني.. جلست في حضرته قبالة البحر.. أتسلَّى بالوقت كما يتسلى شخص بأكل البندق.. سرحت في الأفق.. وغبت في الجمال.. لأعود ولا أدري كم مضى من الوقت.

تحرَّكت حينها إلى مطعم على البحر.. تناولت عشائي.. وطلبت من إدارة المطعم توفير سيارة أجرة.. ووقفت قبالة البحر مودعًا.. عبَّأتُ رئَتي من نسيمه العبِق.. وأرسلت تنهيدة مسافر لن يعود.. ورحلت إلى مسكني.. وأنا أخلط سعادة ما رأيت.. بألم ما ودَّعت.

شرفة تْشِيران الأخيرة

لم يبقَ في العمر أكثر مما مضى... إذ أنَّ هذه الرحلة تستحقُّ أنْ يطلق عليها رحلة العمر.. أُبْتُ إلى فُنْدُقِي.. اللَّيلة هي الأخيرة هنا..

والأخيرة في إسطنبول.. اقتربتُ إلى الشرفة.. فتحتها.. وقفت.. عبأت صدري من هواء البوسفور.. حبسته.. ثمَّ زفرته وأنا أستحضر أنَّها الأخيرة.. أحسست حينها أنَّها زفرةٌ حرَّى رافقَتْهَا دمعة وداع.. إلاَّ أنَّ نسيم إسطنبول يبعث الأمل في الحياة.

هي حركة الدنيا بنا.. تَهُبُّ نَسمة الهواء فتتخللنا - ما دمنا في مهبه- كما تتخللُ الريشة، فتسرق من بين جنبينا أحزاننا.. وأتراحنا.. وهمومنا، فتطفو ابتساماتنا المرتبطة بأفراحنا الصغيرة على وجوهنا.. ما أجمل ليلك يا إسطنبول.. وما أعزَّ ذكرياتك التي ترتبط من حيث لا نعلم بماضٍ فقدناه.. لا ندرك وجوده في ذاكراتنا.

لَمَّا هَدَأ الليل.. ونامت أسرتي.. اقتربت أكثر من شرفتي.. قرَّبت كرسيًّا إليها.. وجلست.. كلامك يا ليل يطول.. وصوتك يا بوسفور يبعث الأشجان أحياءً يتراقصون على تلألؤ القمر على وجهك.. مهما كان القمر هذه الليلة.. سينعكس بدرًا على مياهك.. كم شَهِدَت هذه الأجواء من عَظَمَةٍ.. وكم سمِعت من حسٍّ.. محبٍّ كان أو حزين.. سمعت صوت السُّمَّار بين أشجار "كازنسي أوغلو".. صوت مهرجانات "فاطمة سلطان"، معزوفات التخت الشرقي في "يَالِيَاتِ" الأمراء والوزراء، همس العشَّاق في سرِّ الليل.. أضواء الشعلات المرتجَّة الخائفة للعبَّارات الخشبية بين "إيْمِيْنونو" و"أورطاكوي"، تحمل الهاربين لجمال الليل.. وهدوء الغابات.. رأيت السابحين على ضفَّة "أسكودار"، رأيت أحمد جلبي طائرًا

إلى هناك.. وصاروخ حسن جلبي الساقط في غبَّة البوسفور.. رأيت السَّاقط من قمِّة "تْشِاملوجيه"، سمعت صرير سفن الفاتح تسحق جذوع الأشجار المطلية بالزيت في ليلة الفتح.. سمعت صوت المطارق.. تطرق الحديد في "روملي حصار" خلفي تماما.. رأيت خيال قسطنطين الأول.. يجوب المنطقة بحثًا عن مدينة العميان.. ليقيم مدينته قبالتها.. ويجد ضالَّته في منطقة قرب أطلال مدينة البيزنط.. حيث التلال السبع[١٤٢] الخضراء.. منظر يشبه روما.. إنَّها فعلا روما الجديدة... هناك.. استسلَمْتُ.. لم أقاوم أنْ أنام في حضرة كلِّ ذاك الجمال.. فأي ذكرى سأحملها الآن.. قد تكون جزءًا من حسرة الغد.

---

١٣٠) هو والي مصر العثماني محمد علي باشا بن إبراهيم آغا الألباني الأصل (١١٨٣- ١٢٢٠- ١٢٦٤- ١٢٦٥هـ) الموافق (١٧٦٩- ١٨٠٥- ١٨٤٨- ١٨٤٩م)، خَلَفَ خورشيد باشا المملوكي في ولاية مصر، وتعد طفولته استثناءً، فهو ابن رئيس جنود الخفر في بلده، وتوفي عنه والده وهو صغير، فكفلته أمه التي توفيت وهو في (١٤) من عمره، فكفله عمه طوسون، ولما توفي كفله صديق لوالده اسمه إسماعيل أسلكه في السلك العسكري، ولما احتل الفرنسيون مصر كان محمد علي آغا قائد الكتيبة الألبانية في الجيش العثماني التي رحلت إلى مصر.. وبعد أنْ حررت مصر ظل فيها قائدا للجيش العثماني، وكان المصريون قد ضاقوا ذرعًا بخورشيد باشا والي مصر، فتحركوا بقيادة الشيخ عمر مكرم وولَّوا محمد علي آغا.. فأصبح بموجب ذلك واليا على مصر، بارك السلطان العثماني سليم الثالث توليه، فبدأ حركته بإنشاء مصر الحديثة، واستفاد من فلول الفرنسيين في إنشاء نظام عسكري في مصر.. وكون جيشًا نظاميًا استطاع التغلب على الإنجليز في معركة رشيد، واستطاع القضاء على المماليك الذين كانوا يشكلون مراكز قوى ضده.. فهم الولاة السابقون.. والمتحكمون الحاليون.. قضى عليهم بمذبحة القلعة التي لم ينج منها إلاَّ مملوك واحد. في ١٨١٨م، وبأوامر السلطان محمود الثاني قام بالتحرك في حملة عسكرية بقيادة ابنه طوسون باشا لضم الحجاز إلى الدولة العثمانية.. والقضاء على الدولة السعودية القائمة في نجد،إلاَّ أنَّه قبل تحريك الجيش قام بدعوة المماليك في القلعة.. وغدر بهم ليستطيع أنْ يحرك كامل قواته في هذه الحملة، وفعلا تحركت الحملة.. وضمَّت الحجاز.. إلاَّ أنَّ طوسون فشل في التوغل إلى نجد.. فعاد بعد أن هلك الكثير من جنوده في الصحراء.. فحرَّك محمد علي حملة أخرى بقيادة ابنه الأكبر إبراهيم باشا.. والتي نجحت في

الوصول إلى الدرعية عاصمة الدولة السعودية والقضاء على الدولة وقتل الكثير من أبناء الأسرة الحاكمة فيها، والعودة بالإمام عبد الله مكبلا إلى القاهرة.. ومنها إلى إسطنبول ليعدم هناك. قدم محمد علي باشا المساعدة للدولة العثمانية للقضاء على الثورة في بلاد المورة (اليونان)، إلاَّ أنَّ تدخل الأوروبيين أدى إلى خسارته جزءًا كبيرا من أسطوله.. فعقد معاهدة صلح أغضبت السلطان العثماني. قدَّم محمد علي مبالغ مالية للسلطان مقابل توليته الشام، إلاّ أنَّ السلطان رفض ذلك.. وبدأ السلطان في الإعداد لعزله، إلاَّ أنه تحرك فعلا عام ١٨٣٣م .. واستولى على الشام.. وهزم الجيش العثماني، وتقدم إلى الأناضول.. فما كان من الدول الأوروبية إلاَّ أنْ وقفت في طريقه لحماية السلطان.. وأرسلت بوارجها إلى السواحل.. فاضطر إلى سحب جنوده من الأناضول، وفي العام ١٨٣٩م صدر تهديد من السلطان بعزل محمد على عن الولاية فحرك الجيش بقيادة ابنه إبراهيم باشا مرة أخرى وتاخم حدود الدولة مرة أخرى.. إلاَّ أنَّ الجيوش الأوروبية وقفت في طريقه.. وحطَّمت أساطيله البحرية.. وأجبرته على الدخول في مفاوضات نتجت عنها معاهدة لندن في (١٨٤٠م)، والتي نصت على تحديد عدد الجنود والعتاد العسكري في ولاية مصر والسودان.. وأنْ تكون مصر والشام تحت حكم محمد علي خلال حياته، وينتقل حكم ولاية مصر فقط للأكبر سنًا من أولاده ويكون وراثيًا في بنيه، وتعود الشام إلى الحكم العثماني. وكما ساهم محمد علي في تأسيس التعليم.. وإنشاء النهضة العلمية والثقافية والصناعية في مصر، فقد ابتدع نظام السُّخْرة.. الذي عاد على مصر في عهد حفيده عباس حلمي بن طوسون بالوبال.. وأدى إلى ضعف الدولة.. وانكسارها.. ووقوعها تحت الاحتلال الإنجليزي فيما بعد. أصيب محمد علي في أواخر حياته بالخرف.. وتنازل عن العرش لابنه الأكبر

إبراهيم، ليموت بعدها بعام في الإسكندرية، ويدفن في قلعته بمصر، وقد كان استحدث في مصر أربعة أنظمة رئيسة للتعليم.. والاتصالات.. والعسكرية والرعاية الصحية.. ووسعها بشكل كبير.. ومن المفارقات ما يقال من أنَّه مات في مصحة عقلية كان قد أنشأها بنفسه في الإسكندرية.

١٣١) إلغاء معاهدة "خونكار أسكله سي": كان مما نصَّت عليه معاهدة لندن بين العثمانيين ومحمد علي والدول الأوروبية إلغاء معاهدة "خونكار أسكله سي" الدفاعية بين الروس والعثمانيين، والتي كانت تمنح الروس حق الإبحار في البحر الأسود واستخدام مضيقي البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة دون مقابل، شريطة الالتزام بالدفاع عن المسطحات المائية التابعة للعثمانيين، فلما ألغيت هذه المعاهدة، تم اعتماد معاهدة المضائق التي ألغت امتيازات كل الدول الغربية في البحار العثمانية، مما تسبب في إعلان الروس الحرب على العثمانيين، ونشوبها.. والتي تعرف بحرب القرم، والتي انتهت بعد تدخل الدول الغربية الأخرى وعقد صلح أرجع الروس بموجبه ما استولوا عليه من أراضٍ عثمانية.

١٣٢) حرب القرم (١٢٦٩- ١٢٧٢هـ) الموافق (١٨٥٢- ١٨٥٧م)، والتي بدأت بتوغل الروس في الأراضي العثمانية بأوروبة الشرقية فسيطروا على غرب نهر الدانوب.. وتوغلوا في القفقاس (القوقاز والشيشان الحالية).. وأذربيجان حتى دخلوا شرق الأناضول وأصبحوا يهددون العاصمة، وسيطروا على الموانئ العثمانية في البحر الأسود، فتدخلت بريطانية وأوقفت أسطولها في مضيق البوسفور لحماية العثمانيين،وفي أواخر (١٢٦٩هـ) (١٨٥٢م) أعلن فشل مؤتمر الصلح في فينا، فأعلن العثمانيون الحرب على الروس.. واستطاعوا بمساعدة القوات المصرية إيقاف تقدمهم على حدود نهر

الدانوب.. وإجبارهم على التراجع إلى القفقاس، وعقد في أواسط هذا العام مؤتمر إسطنبول الذي كتَّل الجبهة الأوروبية (إنجلترة.. فرنسة.. بْرُوْسِيَة.. والنمسة) ضد الروس.. خوفا على مصالحهم، مِمَّا عطَّل التجارة الروسية في البحر، واضطرها في أواخر (١٢٧٢هـ) (١٨٥٧م) أن توافق على معاهدة باريس لإنهاء الحرب، والتي نصت على أن يعيد كلا الطرفين المناطق التي احتلها، وإطلاق حرية الملاحة في البحر الأسود مع عدم إنشاء قواعد عسكرية فيه، حرية الملاحة في نهر الدانوب، مناطق أوروبة الشرقية تبقى تحت الوصاية العثمانية مع منح الصرب حق الحكم الذاتي، وانتهت الحرب على ذلك.

١٣٣) محمد سعيد باشا بن محمد علي باشا (١٢٣٧- ١٢٧٠- ١٢٧٩هـ) الموافق (١٨٢٢- ١٨٥٤- ١٨٦٣م)، والي مصر الملكي الرابع، خَلَفَ ابن أخيه عباس حلمي الأول بن أحمد طوسون باشا بن محمد علي، هو رابع أبناء محمد علي، تلقى تعليمه في باريس، أنشأ البنك المصري، وصادق على حفر قناة السويس، وأغلق المدارس العليا (الجامعات) في مصر وقال جملته الشهيرة: "أمة جاهلة أسهل قيادة من أمة متعلمة"، فهو يعد القاتل الرسمي لحركة النهضة التي ابتناها والده، ورعاها أخوه إبراهيم، وأهملها ابن أخيه أحمد حلمي، لما توفي خلفه عباس الأول بن إبراهيم باشا، الذي أراد أنْ يعيد تحريك نهضة جده فعزله الإنجليز وأبعدوه.

١٣٤) مجلس المبعوثان هو اسم المجلس النيابي الذي يجمع مجلس الشيوخ والبرلمان.

١٣٥) ستيفانو يوسي (١٨٢٢- ١٩٠١م)، رسَّام فلورنسي، التحق بكلية الفنون الجميلة بفلورنسا بإيطالية، ولكنه قبل تخرُّجه جُنِّد في الجيش، ليشارك في الحرب، ويحمل أسيرًا إلى سجن تيريزينشتات، حيث استلهم منها لوحته المنفى، والتي صوَّر فيها جبال الألب الإيطالية، وبعد أنْ عاد من الأسر شارك

في مسابقة للكلية فاز فيها ليحصل على منحة دراسية في روما، اشتهر برسم اللوحات الجدارية التاريخية، ولعل أهم أعماله "الكوميديا الإلهية" بكنيسة سانتا استيفانو، وطرد دوق أثينا، ومحمل الحجاج المصري، وموكب الصُّرة.. أو السترة، رسم لوحات كتاب يصف حياة الناس في المغرب العربي، يعد المرجع اللاتيني لوصف الحياة العربية، وزار الولايات العثمانية أكثر من مرة خلال حياته.

١٣٦) الدوق رودولف آرنست (١٨٥٤- ١٩٣٢م) نمساوي الأصل فرنسي السكنى، ولد في فيينا، ولما بلغ (١٥) عاما التحق بأكاديمية الفنون الجميلة، ثمَّ انتقل إلى روما ليكمل تعليمه، وتخصص في رسم المناظر الطبيعية والرومنسية، ثمَّ انتقل إلى باريس، فكوَّن علاقة مع أكابر الرسامين العالميين كالألمانيين "دوتشيه"، و"دسكارت"، وفي (١٨٨٥م) جذبه العمل على الفن الاستشراقي، فتخصص فيه، إلى أنْ أصبح يعد أحد آبائه المؤسسين، وكانت بداية علاقته بالرسم الاستشراقي هي رحلته إلى المشرق الإسلامي.. التي بدأها من المغرب.. مرورًا بمصر والشام ووصولا إلى إسطنبول، ليعود إلى باريس في (١٨٧٧م) ويقيم معرضه الخاص الأول في صالون الفنانين، واستمر حتى وفاته متبنيًا فن الاستشراق حتى توفي في مدينة "فونوتينيا روزاس" بشمال باريس.

١٣٧) السرعسكر داماد أحمد فتحي باشا (١٢١٥- ١٢٧٥هـ) الموافق (١٨٠١- ١٨٥٨م)، والسرعسكر رتبة توازي المشير أو الجنرال، كان مدفعدارًا في الجيش العثماني، وشغل منصب الملحق العسكري العثماني في فيينا ثمَّ في باريس، ثمَّ أصبح حاكما عسكريا في "رودس"، ولمَّا عاد إلى إسطنبول طرح على السلطان عبد المجيد الأول فكرة إنشاء متحف وطني

عثماني، وكان قد عاد بالفكرة من عمله في أوروبة، فأوكل إليه السلطان تلك المهمة، ليظهر بفكرة إنشاء "هاميوني ميوزيس".. أو المتحف الإمبراطوري، وكان مقره في سانتا إيرين، وشغل هو منصب أوَّل مدير له، ولذا حمل المتحف مسمَّى "إيرين دكِّه".

١٣٨) الفريق أحمد مختار باشا (١٢٧٧- ١٣٤٥هـ) الموافق (١٨٦١- ١٩٢٦م)، ولد في إسطنبول، وتخرَّج من الكلية الحربية المجيدية، وعمل في سلاح الحربية، واشتغل بالتدريس في الكلية الحربية، وشغل منصب رئيس نقابة المهندسين البريين في الجيش العثماني، وبعد إعلان الدستور (المشروطية الثانية) في عهد السلطان عبد الحميد أصبح رئيس لجنة تأسيس المتحف العسكري العثماني، وقام بمجهود جبار في بناء وتأسيس المتحف العسكري وجَمْعِ التُّحف

١٣٩) الإمبراطور الهوني أتيلا باليدا (٣٩٥- ٤٥٣م)، أقوى حكَّام الهون (وهي القبائل التي ينتمي لها التركمان، والتتار والمغول)، أسس إمبراطورية سيطرت على شمال وشرق ووسط أوروبة ممتدَّة من سور الصين، ومن المحيط المتجمد شمالا حتَّى حدود البحر الأسود وبحر قزوين، حاصر القسطنطينية، وتوغَّل في فرنسة، فشكَّل الرومان تحالفا مع القوط ضِدَّه، فانسحب ليعود إليهم في العام التالي ويتقدَّم إلى روما، إلاَّ أنَّ الإمبراطور فالنتنيان الثالث أرسل البابا ليو الأول ليتوسل لآتيلا أنْ يترك روما، وقدَّم له الكثير من الهدايا حتى يوافق، فعاد إلى عاصمته في هنغاريه، ويموت هناك في ظروف غامضة.

١٤٠) هو محمد باي كرمان أغلو (توفي ٦٧٦هـ) الموافق (١٢٧٧م)، الباي الثاني من بايات الدولة الكرمانية، والتي قامت بالتمرد على الدولة السلجوقية في منطقة جنوب شرق الأناضول، هو أوَّل من أصدر قرارًا باعتبار اللغة التركية لغة رسمية، وقام على وضع قواعدها، وتأسيس حرفها، وأصبحت اللغة

التي كانت شعبية غير مقننة لغة كلِّ الدول التركمانية التي قامت في غرب آسيا، بعد أنْ كانت تعتمد اللغة العربية أو الفارسية في إدارة شؤون الدولة، مما يجعل معرفة الناس بفحوى الفرمانات الرسمية صعبة، ونص فرمانه الذي صدر في (١٣/ من مايو/١٢٧٧م) على أنَّه واعتبارا من تلك اللحظة، لا لغة رسمية مستخدمة إلاَّ اللغة التركية، إلاَّ أنَّه خسر الحرب ضد السلاجقة الذين قاموا بإعدامه في أنقرة، في أيَّام السلطان السلجوقي غياث الدنيا والدين كيخسرو الثالث بن قلج أرسلان الرابع.

١٤١) الحداة جمع حادي، وهو شخص حسن الحس، عالي الصوت، يسير بقرب الجمال في الجيوش والقوافل يحدو لها.. أو ينشد أو يترنَّم لها لتحث في مشيها، وورد في الحديث يوم الخندق أنَّ حادي مقدِّمة الجيش كان البراء بن مالك، وحادي المؤخِّرة كان أنجشة رضي الله عنهما، وأنَّه من حسن صوت أنجشة كانت الإبل تتمايل في مشيها حتَّى جاءه الرسول ﷺ وقال له: "رفقًا بالقوارير يا أنجشة" يعني النساء، ودعا له فقال: "رحمك الله"، فاستشهد في الخندق رضي الله عنه.

١٤٢) التلال السبع: تتفق القسطنطينية مع روما في أنَّ كلتيهما تقومُ على سبع تلال، فـ"روما" بنيت على "كولليس قويريناليس"، "كولليس فيميناليس"، "كولليس إيسقويلينيوس"، "كولليس كابيتولينيوس"، "كولليس بالاتينيوس"، "كولليس كايليوس"، "كولليس أفينتينوس". أمَّا فيما يخص القسطنطينية.. فأهلها يسمونها "ييدي تيبلي شيهير".. أو مدينة التيجان السبعة، وكان مطلب قسطنطين الأول أنْ يؤسس المدينة على سبع تلال لتوافق روما، ووجد ضالَّته في الجزء الأوروبي الممتد من "إيمِيْنونو" إلى "أيوب سلطان"، ولذا فالتلال السبع كلها تقع ضمن السور القديم للمدينة، وترفع كل تلة من التلال السبع

معلما مشهورًا من معالم إسطنبول، فبينما يحتل طوبقابي سراي.. وأيا صوفيا التلة الأولى، يتموضع "سلطان أحمد جامع" على التلة الثانية.. وتمتد إلى "جراند بازار" وبايزيد جامع وعامود قسطنطين، ويشمخ على التلة الثالثة "سليمانية جامع" ويتصل بإسكي سراي.. أو جامعة إسطنبول حاليا، وينتصب على التلة الرابعة "فاتح جامع" والمنطقة المحيطة به، ثمَّ على الخامسة جامع السلطان سليم الأول، وعلى التلة السادسة يقوم حيِّي "إدرنه قابي"، و"إيفان سراي"، بينما تقوم الجدران الخارجية الدفاعية للمدينة ومنطقة "آقسراي" على التلة السابعة المتصلة ببحر مرمرة.

اليوم الأخير: ذكريات عبد المجيد الثاني

لقد صدق الإمبراطور نابليون بونابارت حين قال: "لو كانت الدنيا دولة واحدة.. لكانت إسطنبول عاصمتها".. سلام عليك يا أجمل ما سأحمل معي من ذكريات.. اليوم حانت اللحظة التي كنت أشحن كلَّ ما أجد في طريقي أمامها كي لا أراها.. ولكنها لا شكَّ قادمة.

حملت متاعي.. أيُّ متاعٍ يغني عن سواحلكَ يا مضيق الأماني؟ نزلتُ خصِّيصًا لأقف على ساحلك.. أغمضتُ عيني.. استنشقتُ.. عبأتُ رئتي من هوائك يا آسر الأباطرة.. والسلاطين، فتحتُ عيني لأودِّعك يا أجمل ساحر في الآفاق.

اليوم أرحل.. ما أعزَّ اللحظة على قلوبٍ تمتلئ حسرة، قلْ للصباح - أيا بوسفور- إنَّ عينًا كانت تتملأ منك سترحل اليوم.. بخوف من لا يعود.. ولو أنَّه لا بد له أنْ يعود، يا أهازيج الضفتين إنَّ مجرَّد التفكير في أنَّ سماعكما لن يكون غدًا يجعل العقل مشوشًا، يا ذات الضفاف الثلاث.. والتلال السبع.. والأبراج السبعة.. آن أوان الفراق.

خرجتُ - وعيني تودِّع كلَّ ما تمر عليه- إلى "تْشِيران قادسي".. مررت بالقصر.. لوَّحتُ دون جدوى لذكرى السلاطين فيه.. تخطيتُ ذلك.. أرسلتُ تحيَّة بحارٍ لجنراله حين مررت على ضريح بربروسا.. وتحية مواطن لرئيس وزرائه أمام مسجد سنان باشا.. مشيت في الطرقات التي أعرفها.. وأعرفها جيدًا اليوم.. ألمس بيدي نافذةَ السيارة.. فتمتدُّ إلى الأرصفة لتنال آخر لمسات المحبين.. صعدت على جسر "غَلَطَة".. فأدَّيتُ "لعبة الدهشة" الأخيرة.. كحَّلتُ عيني بمآذن "ييني جامع"، وعطَّرتُ أنفاسي ببخور "سلطان أحمد"، واستنشقتُ عزَّة أيا صوفيا، وملأتُ نظري من جمال معمار سنان الصَّائغ الذي نمَّق سليمانية.. وأرسلتُ زفرة وداعٍ تكسَّرت على أسوار طوبقابي.. تخطَّيتُ ذلك كلَّه.. حتَّى مررتُ على بقايا ثُلاثيَّة الأسوار.. حَبَّسْتُ أنفاسي.. الأول.. الثاني.. الثالث.. والآن.. خرجتُ من المدينة.. أطلقتُ آهةً محترقةً في أفق ندمي.. الآن... ودَّعتُ إسطنبول.

كما دخلتها كالفاتح في ثُلاثائه.. خرجت منها كالأخير[١٤٣].. وكما ودَّع كلُّ الخلفاء والسلاطين.. مُرغَمًا ودَّعت.. وكأنِّي بعبد المجيد الأخير وهو يركب السفينة مع الفجر إلى منفاه (في رحلة اللاعودة إلى إسطنبوله) يحس بنفس إحساسي الآن، يا لآلام عبد المجيد الثاني.. وهو يودِّع مدينته دون أيِّ أمل بِلِقاءٍ.. ها أنا أرحل الآن مثله.. أسهمتُ في ألمي.. وداعًا يا معشوقة قسطنطين.. يا شهادة أبي أيوب.. يا وردة الفاتح الحمراء.. يا

عَظَمَة سليم.... يا قصائد القانوني.. وترتيل أحمد.. وذكريات مراد.. وجبروت محمود.. وهَوَسَ عبد المجيد.. ومذبح عبد العزيز.. وتنسُّك عبد الحميد.. وأجمل لوحة أعجزت عبد المجيد الأخير.. وحائرَ أشواقِ علي.

الله يا تُركيَّة.. في كلِّ زاوية خَبر.. وفي كلِّ موقف ذكرى.. وعلى كلِّ سفحٍ جمال.. الله يا حاضنة السلاطين والخلفاء.. يا أحلام الملوك.. النُّسَّاك.. الأباطرة.. الأكاسرة.. الأمراء.. السلاطين.. الأتابك.. الله يا دروب الحكماء.. والمتصوفة.. والفلاسفة.. والرهبان.. يا صراع الأديان.. ويا قبول بعضها لبعض.. يا تناقض التناغم.. وتناغم التناقض.. الله.. الله.

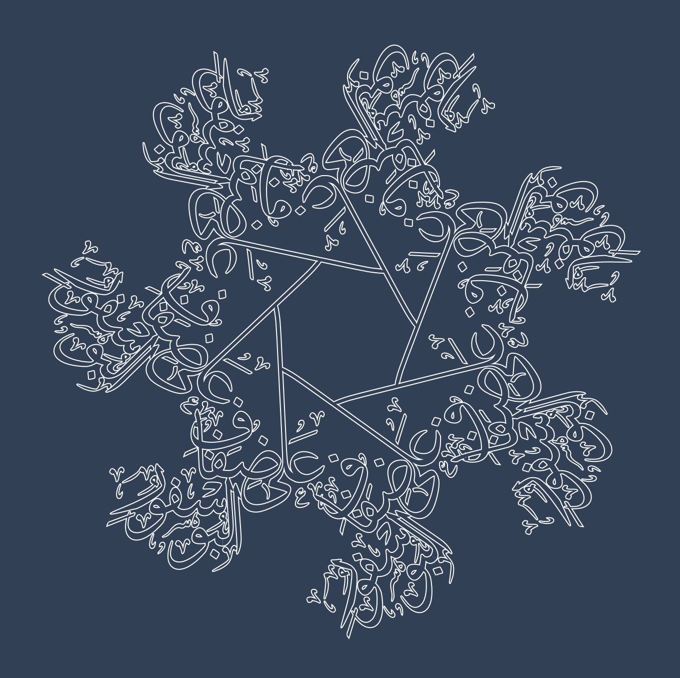
أسندت رأسي إلى مقعدي في السيَّارة وأنا أسائل نفسي: "كيف هان عليَّ أنْ أرتحل؟!".. مرَّ الوقت حينها سريعًا.. فإذا بي أسند رأسي على مقعد الطائرة.. تتحرَّك على المدرج.. فتُحرِّك في نفسي كوامن شجن خفي.. أغمضت عيني في محاولة لإيقاف الزمن هنا.. أغمضتها.. إلاَّ أنَّ الطائرة حلَّقت في الجو.. ورحلتُ يا إسطنبول.. ولا بدَّ.. ويجمع الله الشتيتين.. فسلام العاشق الواله يا دارًا نودِّعها رغما عنَّا.. ونشتاقها ونحن فيها.. سلامٌ عليكِ.

١٤٣) السلطان عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز(١٢٨٥- ١٣٤١- ١٣٤٢- ١٣٦٣هـ) (١٨٦٨- ١٩٢٢- ١٩٢٤- ١٩٤٤م) ويُعرف أيضًا بالأخير.. لكونه آخر خلفاء آل عثمان.. هو الخليفة الثلاثون من سلاطين آل عثمان.. وهو أوَّل خليفة للمسلمين بعد إسقاط الدولة العثمانية وقيام الدولة التركية مكانها، لذا: فقد كان خليفة من غير دولة، ولد في إسطنبول، وولي ولاية عهد ابن عمِّه محمد وحيد الدين السادس في (١٩١٨م)، واعتلى العرش في (١٩٢٤م) بعد استقالة محمد وحيد الدين وانتخاب الجمعية الوطنية التركية له، ليكون ثاني سلطان للدولة التركية الجديدة، وكان يلقَّب بـ(خليفة المسلمين) بصفة غير رسمية، إذ أنَّ فكَّ الارتباط بين الدولة التركية.. والخلافة الإسلامية كان قد حدث في زمن سَلفه، فكان اللقب بالنسبة له شَرَفِيًّا.. وغير معترف به.. فهو لم ينل بيعة بالخلافة، وبرغم نقل العاصمة إلى أنْقرة.. إلاَّ أنه ظل في إسطنبول.. فقد كان وجوده في الكرسي شرفيًّا لأبعد الحدود، إلاَّ أنه وبعد أشهر من اعتلائه العرش تمَّ عزله.. وطرده في فجر (٣/مارس/١٩٢٤م) فرحل إلى فينا عاصمة النمسة.. وأصبح يتنقَّل بينها وبين فرنسة.. وإيطالية.. وبريطانية.. حتَّى توفي في فرنسة، فحُمل جثمانه بناءً على وصيته ليدفن في البقيع بالمدينة المنورة، كان رسَّامًا مشهورًا، وعمل كرئيس لجمعية الفنانين العثمانيين، كما شغل (خلال اعتلائه العرش) منصب جنرال الجيش العثماني.. والذي لم يكن يتعدَّى أكثر من لقب، بعزله انتهت الدولة التركية - التي حلَّت محل الدولة العثمانية بعد فكِّ الارتباط بالمناطق غير التركية من الدولة- وقامت الجمهورية التركية ليكون مصطفى كمال أتاتورك أوَّل رئيس لها.

المحتويات

أسعد الله أوقات آخر حاضرة للخلافة.. وأخيرًا لامسَت عيناي عينيكِ، لا أزال أتلمّس طريقي كضرِير، أراك يا مدينة المدائن على الأرض.. أكاد أمس عظمتك.. أراك وأرى ناسَك العائدين إليك في كل صبح، وهَا أنا بَعْدَ بُعْد الشّقة أعود.. أعود لأدخلك كالفاتح رحمه الله، لو كان لَه يومها نشوتي لكفاه سعادةً ذلك، أدخلك يا واصلة القارتين.. أكاد أسجد لله شكرا لولا أنّني لا أستطعم النصر.. لكن رحيق التاسع والعشرين من مايو لا يزال يفعم نفسي نشوة رغم بعد الدهر.

أسعد الله أوقاتك يا قرة عين الناظرين.. وها قد جمع الله الشتيتين.. فما أحلاك.. وما أجملك.. وما أشوقني إليك.. ها أنا أجيء.. لا.. ها أنا أعود إليك.. فاتحا.... فاتحًا ذراعَيّ.. فاستقبلي يا حُرْمَةَ الباب العالي من عاد.. ها أنا أعود لأجدك كما عهدتك تمتلئين حيوية وعظمة يا آخر عواصم الدنيا.





http://www.ansari.net.qa/AThB

ISBN
